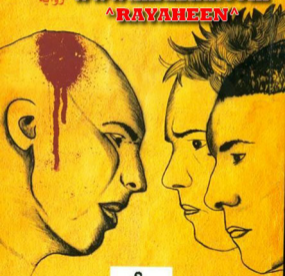


فواز حدّاد

عزف منفرد على البيانو

رواية [www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^



رمان ريان  
RAYYAN BOOKS

---

## المحتويات

|    |  |
|----|--|
| ١١ | ١ - الحبيب الشاب                           |
| ١٧ | ٢ - سيدة في نحر الأرمحين من عمرها          |
| ٢٥ | ٣ - فراتر الأحمر                           |
| ٣٣ | ٤ - العلماني المقيت                        |
| ٤١ | ٥ - لانا سبب الأستاذ للقاء طفيفاً للعودة!! |
| ٤٧ | ٦ - رواية محمولة باليد                     |
| ٥٣ | ٧ - بنك المعلومات                          |
| ٦١ | ٨ - الراحة                                 |
| ٦٧ | ٩ - المفضي النسائي                         |
| ٧٥ | ١٠ - جولة خاطرة مع الموت                   |
| ٨٧ | ١١ - الحبيب ... من هو؟                     |
| ٩٣ | ١٢ - العلماني ... من هو؟                   |

- ٩٧ - ١٣ - دراما متقلبة
- ١٠٥ - ١٤ - احتمال لا بد من تهرجه ذهنياً
- ١١١ - ١٥ - تشابه غير متصد
- ١١٩ - ١٦ - مخاضات العثماني
- ١٢٩ - ١٧ - حسين المرشد والحلوس والشميد
- ١٣٧ - ١٨ - مدونة بلا دين، مدونة بلا جس
- ١٤٧ - ١٩ - نطلب على المحاضرة
- ١٥٧ - ٢٠ - أنبه باعتطاف
- ١٦٧ - ٢١ - الصديق يتظاهر بأنه يأكل
- ١٧٣ - ٢٢ - العثماني يتخيل
- ١٨١ - ٢٣ - الدعوة تأخذ سيرها
- ١٨٩ - ٢٤ - الدعوة تتقدم إلى حرب موافق
- ١٩٧ - ٢٥ - عرض بالحسابة
- ٢٠٥ - ٢٦ - الجهاز الدولي
- ٢١٣ - ٢٧ - حماية لأثرية
- ٢٢٣ - ٢٨ - عزف منفرد على البيانو
- ٢٣١ - ٢٩ - ذكرى عهد الزواج
- ٢٣٩ - ٣٠ - تحولات مرئية
- ٢٤٥ - ٣١ - الصديق يحرف بجهله
- ٢٥١ - ٣٢ - لماذا السباريو؟
- ٢٥٧ - ٣٣ - السباريو الرباني
- ٢٦٥ - ٣٤ - ودياع طومبل
- ٢٧٥ - ٣٥ - ما زال للوداع بنية
- ٢٨٥ - ٣٦ - سائلة إيمان

|     |                          |
|-----|--------------------------|
| ٢٩٢ | ٢٧ - لقاء على حافة الحلم |
| ٢٩٩ | ٢٨ - الانسحاب الفطريحي   |
| ٣٠٣ | ٢٩ - الريح               |
| ٣١١ | ٤٠ - النور               |

## الخبير الشاب

بعد أن تجاوز الطابق الأول بهضج درجات، سمع صوت دعوات أقدام تهبط من الطابق الثالث. تابع صعوده على مهل. عند منعطف الدرج، ظهر الرجل النازل، وقد تلكأ قليلاً. لم يُعزّ بالنظر إليه، عندما حاذاه، أحس بحركة غريبة، وقيل أن يرفع بصره إليه، صدمه بكتفه، لم يحشر الرجل، أو يتعد عن طريقه، بل مال عليه بجذعه، دفعه وحصره إلى الحاجز الجانبي للدرج، متصلاً بالحرس به، فالدرج لم يكن ضيقاً وتسع لاثنتين. بحركة لا شعورية دفعه عنه. استدار الرجل، وصفعه على وجهه بقوة أطارت صوابه. لبث مذهولاً للحظات. لم يتبين ملامحه في العتمة الشاحبة، سوى أنه كان يرفقه بحقة. استند ملخوماً إلى الحاجز، تسمرت أنامه صورة غائمة للمحافظ؛ كان أعيناً بالتراجع، وازداد ميلان الدرج. فيما كان الرجل الذي صفعه بلا مبرر، ولم يتزحج عن مكانه، قد أمسك بكتفيه، شد بقبضته عليهما، ودنا برأسه منه، هاجماً

بوجهه نحوه فالتقط بعضاً من ملامحه، وكانت قريبة جداً، مقاييسها غير عادية، حتى أن غلده احتل مساحة الرؤية. نفتت أنفاسه في وجهه وهمس في أذنه، ثم أبعدته عنه بفظاظته؛ كان الرجل غاضباً جداً، ما أوقع في ذهنه بأنه يتوي ضربه ثانية، لم يخطئ، رفع ساعده لبحمي وجهه، كان قد هوى على وجهه بصفعة ثانية، أقوى من الأولى. انبرمت رقبته، وفقد توازنه، مد يده ليمسك بشيء، أو يستند إلى الجدار، وهو يفكر جاهداً، لماذا الرجل مصر على ضربه!! وفيما كان يزعج نحو الأرض، لم ير سوى كفتي الرجل ورأسه المطاطين، ينسل مختفياً في منعطف المدرج. ثم سمع صوت عبط يتوالى، لم يكن سوى رأسه يصطدم بالدرج ويهبط درجة درجة، وغاب عن وعيه.

«ألم تلتفت نظرك علامة فارقة تميزه؟».

«لا، كنت صاعداً عانقاً رأسي، بينما كان نازلاً».

«عندما احدى عليك، كنتما وحدكما، وجهاً لوجه».

«نعم كل شيء بسرعة».

«لا بد أنك رأيت، كان الوقت ظهراً».

«لم تكن الرؤية واضحة، المدرج والفسحات بين الطوابق غير مزودة بالإضاءة، تبدو لي عز الظهيرة، وكأنها في أول الليل».

تجدد التحقيق مع وصول عمير شاب يرافقه أربعة مسلحين، مزوداً بصلاحيات غير محدودة، كان يحمل تكليفاً بالنظر في القضية. كلف بد الشرطة عنها، وأبهى اثنين منهم لضبط النظام. كانت مهمته التأكد من طبيعة الحادثة، فيما إذا كان لها علاقة بالإرهاب، كما تزعم المريضة التي وقّع عليها حتى مساء البارحة

أكثر من ثلاثين شخصاً. وكان العدد قابلاً للزيادة.

قبل أن يقرأ ضبط التحقيقات، باشر باستعمال صلاحياته، أخرج المتجمعين من الغرفة، ومنعهم من الدخول إليها، حرصاً على سلامة المصاب. كانوا من الصحافيين ونشطاء سياسيين من جمعيات مدنية وأهلية ومعهم بعض الفضوليين من معارف المعتدى عليه. احتجوا، فنفهم بصراخ، ولم يسمح لهم بالأقرب من الباب. أعادوا تجمعهم بعد قليل وحاولوا اقتحام الغرفة، فهددهم بالاحتجاز، وقبل أن يتفرقوا في الممر، أمر بطردهم إلى خارج المستشفى بعد أن حفرهم من الإتيان بكلمة حول الحادثة. كانوا يشوشرتهم يشيعون جواً من الرطانة القمحة تنناثر فيه تعبيراتهم عن الدين والأصولية والحريات. لم يتنادوا للحضور عبثاً، بل دعماً للمعتدى عليه ضد قوى الظلام والتكفير، وكأنهم من قوى النور والسامح!!

وقبل أن يهاجمك، تجول في السوق وسأل عنك الباعة، فدلوه إلى البناية التي تسكن فيها. انصبأ فيها وانتظر قدومك ثم... تعرف الباقي. لقد تحرك بحرية وعلى الملأ، دون أن يعمل حساباً لأحد. أليس هذا غريباً؟

لم يكن يسأله، كان يسأل نفسه. تابع:

ألم يتوخ الحفر في تصرفاته، الكثيرون في السوق وأود، وبعضهم تكلموا معه. لم يثر ريبهم. أوصافه عادية جداً.

وأخذ يحددها... متوسط العمر، طويل القامة، قوي البنية، جبين ضيق، ذو شاربين رفيعين، وشعر أسود مصفف، ووجه طولاني، وعسل عرضاتي.

كانت أوصافه مخالفة لما تراهي للمصاب، الذي ضخمها عدة مرات في ضبط التحفيق، فكان الجبين عريضاً، والشاربان كثيرين، والشعر كثيفاً، والوجه مستطالاً، أما الصدر فمفلطح.

«لَمْ تَرَهُ مِنْ قَبْلِ، أَوْ تَلَمَّحَهُ فِي مَكَانٍ مَا؟».

«لَا».

«نَمِ إِنَّهُ لَا يَلِيسُ جَلِيباً؟».

«لَمْ أَقُلْ هَذَا».

«وَكَانَ حَلِيقَ الذَّنْبِ بِلَا لِحْيَةٍ طَوِيلَةٍ أَوْ قَصِيرَةٍ».

«وَمَاذَا بَعَثَ؟».

«بَعَثَ أَنْ لَيْسَ إِرْهَابِيًّا».

«لَنْ يُرْسَلُوا شَخْصاً بِعِصَامَةٍ وَلِحْيَةٍ، وَيَدُهُ مَسْبُوحَةٌ».

«وَلَمْ يَهْرَبْ، خَرَجَ بِكُلِّ تَقَفٍّ، نَفَضَ مَلَابِسَهُ وَمَضَى بِهَيْوَتِهِ».

كان يحاول من خلال تساؤلاته المتلاحقة، التلميح بشيء يخبر ما يجمع به هؤلاء الذين في الخارج. شيء لا علاقة له بكل هذا الزعيق عن الإرهاب.

«هَلْ تَعْتَقِدُ بَأَنَّ هَذَا الشَّخْصَ إِرْهَابِيًّا فَعَلَّامًا؟».

«وَلَيْتَ لَأَنَّ؟».

«الإرهابي أنيق بلا سلاح رشاش وقنابل».

«وَمَاذَا يَكُونُ؟».

«لَنْ أَشْبَهَ بِرِجَالِ الْأَعْمَالِ، أَوْ الشَّبَّانِ الَّذِينَ يُسَاجِرُونَ لِحِرَاتِهِمْ».



فخر المصاب منه مدعوشاً من هذا التصريف الريه.  
«شان بينهما».

«كلاهما يرتدي بدلات سوداء وقمصاناً بيضاء ونظارات سوداءه.  
«لم يكن يلبس نظارات».

«علمها فلا تعيقه عن الرؤية في الحصة».

ابتعد عنه، وجلس على كرسي بجوار الخزانة. أولاً أن يقول  
للمصاب الشامخ برأسه الملقوف بالشاش، من السخف التظاهر  
بأنه اجترح مأثرة في الصدام مع الظلاميين، القصة التي ينوي  
تصديرها، والآخرين ترويحها ضحيفة جنناً، إذا كان من قصة ضللاً،  
فحساب أزد الفاعل تصفيتها، ما هو؟! قش عن المرأة!! المعتدى  
عليه رجل لا يخلو من وسامة فجة تروق للمراهقات، وذكورة  
ناضجة تلفت النساء غير الناضجات، لو أنصح عما يخفيه، فلن  
يكون هناك لغز. ثمة العديد من الأمور التي تجعل الناس  
يتضاربون، لكن منذ انتشرت الصلوات الإرهابية، بات لها ضحايا  
زائفون يتحلونها ويسارعون إلى الاتحاق بها.

مدُّ بصره بعيداً، واحترق زجاج النافذة، أخذ يرالب شيئاً ما  
بتلوي، ثم يصعد ببطء شديد، لم يكن غيمة، كان دعائناً يتعالى  
في الفضاء.

## سيدة في نحو الأربعين من عمرها

بعد مضي يوم كامل على اضطراره في المستشفى دون حركة، ما زال يعاني من التشوش. كان بحاجة إلى الخلو بنفسه، لكنه قضى الوقت بين الذهول والضجيج والنوم، يستعيد حادثة جرت في عتمة خفيفة، على وقع تحقيق متقطع ومرهق، بات سلاً منذ انشغلت قضيبته من الشرطة، وتولاها محقق شاب كما يبدو من فرع المختبرات يلبس الملابس المدنية. بدأ عملياً جداً، وفي منتهي الحيوية، مهمته دحض ما أدلى به إلى المحقق الأول. لم يشأ أن يطلق على استنتاجاته، ما دام التحقيق أصبح تفصيلاً متوالياً لأقواله السابقة. تفحص الشاب الذي كان يتأمل السماء، ما الذي يشير ضابط مختبرات في مساء باردة خالية من الغيوم؟

حاول تذكر ما جرى مراراً، وبدلاً من أن يتوضح، كان في كل مرة يبهت، أو يفقد تفصيلاً ما، حتى عشي أن يفقد الحادثة

برمتها. ما صمم على تذكره فعلاً هو ما قاله الرجل له قبل أن يصفحه للمرة الثانية، شفه نحوه، وهمس في أذنه بوضع كلمات، لم يسمعها، كان ملطوشاً ذاهلاً عما حوله، واقعاً تحت تأثير الصفحة الأولى وما خلفته من صخب عبق في رأسه. كان متأكداً من أنه قال له شيئاً يتعلق بالسبب الذي ضربه من أجله. كلمات أرقته طوال الليل، كان صنداها الحائق يتردد في أذنه، لو نجح في التقاط كلمة واحدة منها، لعرف سر ما حدث. بل واختلط عليه ما تلمحه ونشتت مع ما كان يهزغ في ذهنه بقوة، ويتلاشى بسرعة، لكنه استطاع أن يتذكر واحداً منها:

«كانت عناء قاسيتين واليهتين».

«هل نبحث عن رجل نظراته قاسية واليهمة؟».

كانت ملاحظته مواتية للشباب كي يسخر منه.

«الأجدى أن نتذكر لونهما مثلاً، ولكي أنشط فاكترتك كانتا زرقاوين».

ومع هذا تجرأ بعدها على التعبير عن تلك اللمحة التي عاودته وكهرته؛ عندما رمقه المعندي بحدقة، والشرر يتطاير من عينه.

«كان يريد أن يقتلني!».

حبس الشاب ضحكته، لم يكن الجاني يريد قتله، وإنما تلاميذه، وحسباً فعل. ما فائدة أي سؤال، إذا كان يعاني من عدم التركيز، ويتقصد التهويل؟ أحس بالضجر، القضية لا شهوية، والمصائب لا يتعاون معه، كانت رغبته قوية في الانتهاء منها على عجل. كان موكلاً بمشاهدة ملفات إرهابية حقيقية وفي غاية الخطورة، ليست

بحجم هذه الحوادث الصغيرة المحظوظة، التي يتوفر لها جماعات تضحها ووسائل إعلام خارجية تستغلها دعائياً، ودائماً على أسوأ وجه. يبدو أن جهات في الدولة ترغب في أن تتخذ هذا المنحى.

كان انتدابه صباح هذا اليوم ورطة مزعجة. لم يكن محققاً جنائياً، كان عييراً في قضايا الإرهاب، وبما أن الخير يسأل، اشته عمله بالتحقيق. ملاحظاته وأسئلته لم تكن في محلها تماماً. هنا ليس عمله. لو كان الأمر عائداً إليه، لأرسله إلى بيته فوراً. كان تكلفه بالمهمة للتأكد من سير التحقيق في الواجهة الصحيحة، لكن الذين أرسلوه لم يقرروا بعد وجهته الصحيحة، تركوا له هامشاً مؤقتاً، عليه من خلاله الفصل في التكييف القانوني لهذا الاعتداء، هل يقع تحت بند الإرهاب؟ الجواب، لا.

افتتح الباب ودخلت سيدة في نحو الأربعين من عمرها، أوجت تسريحة شعرها المنسدل على كتفها أنها أصغر بضع سنوات. لا بد أن الشرطة تأكدت من هويتها، حتى سمحت لها بالدخول. كانت تعليماته، الأقرباء فقط. هرعت إلى المصاب المفجوع الرأس، عانقته واطمأنت عليه، لاحظ اللهفة ترتسم على ملامحه، وخاطبها باسمها هيفاء دون كلفة. بدا من طريقة إساکها يديه، أنها أكثر من فرية. التفت نحوه وسأته:

«هل الأمر خطير؟».

«لا، على الإطلاق».

«وجدوه يسبح في دمه أسفل الدرج».

هذا ما سمعته من الشبان في الأسفل المرابطين عند المدخل. إذاً

قوى النور لم تغادر المكان، بل تجتمعوا على الرصيف الملاصق للمستشفى، بالهفون روايات عن الحادثة، ربما يعيدون تنظيم صفوفهم.

«بضع قطرات من الدم. لقد شُخ رأسه».

«يقولون.....».

وأعرف ما يقولونه، الحادثة كي لا نبالغ، رجلاً اصطدم أحدهما بالآخر، فتبادلا بعض الكلمات، وربما الشتم، أو تشابها بالأيدي، كان نصيب واحد منهما صفتين، فانقلب على فناء. ما أمراتنا، هل استغزه حتى ضربه؟».

تناهى إليه صوت المصاب بهتراض أو بهضم. تابع دون أن يلتفت إليه:

«هذا مجرد احتمال، نحن لم نقبض بعد على المعتدي. عفواً، لم أعرف، هل هو زوجك؟».

«لقد زعمت أنني ابنة عمه، لكنه صديق».

فأدرك بأنه أكثر من صديق. وربما كانت هي المرأة التي ينبغي التفيش عنها، طويلة أنيقة ولطيفة، لا بأس بجمالها، غير أنه من النوع الهادي، وليس الصارخ المشير للترامبات بين الرجال الأشرار.

«بعد ذلك غاب عن وعيه ولم يتذكر شيئاً ذا قيمة يبر التحقيق».

«يحتقدون.....».

كان صبره قد نفذ.

وإذا كانوا يعتقدون بأن الرجل الذي ضربه إرهابي، فالقصة غير متقنة، لن يكفي بصفته، سيقتله، أو على الأقل سيهدده. لم يكن هناك سواهما على الدرج، الفرصة سانحة، الوقت عند الظهيرة، والجيران في فترة القبول أو تناولون الغداء. صدقتك أصعب برضوى وعلوش لا أكثر.

لم يرد تبهيد ما ظهر من ارتياح على وجهها، فاحتفظ بشكوكه لنفسه، الإصاح عنها، قد يؤدي صداتهما القوية.

«اطمئني، لم تعلن أية جماعة إرهابية مسؤوليتها عن الحادثة، هذا إذا كان ما يزال لهذه الجماعات وجود فعال في البلاد».

وتصنع الانهماك. هذه الجماعات كانت وسواس الدائم، علاياها متوزعة في أنحاء البلاد، لكنها خلايا نائمة، لا تستيقظ إلا إذا تعثر رجال الأمن بإحداها، أو ارتكب أحدهم حماقة فأنكشف، أو أخذت جماعة منهم التهمة الدينية فهب أعضاؤها ليتضاموا من ... ما أكثر ما بات يثير نفقتهم!! لكن لم نشأ أي جماعة، الإعلان عن نشاطها بمحاولة اعتداء فاشلة على موظف في إدارة ماء، مضمور تماماً، لم يسمع به غير أولئك الحريصين على اكتشاف أناس مجهولين، تعرضوا لاعتداءات غامضة، فيحولونهم إلى ضحايا للإرهاب. أما لماذا تهتم الدولة بالحادثة، فربما تفكر بدفع الصحافة إلى استغلالها. قيل ذلك، هل تستحق؟ لا، لا تحتمل!! هنا بشرط ألا يتأخروا في التخلي عنها، قيل أن يستثمرها المصائب على نحو مكشوف، الظروف مساعدة، قد يوصى إليه ثانية، فيذكر بأنه تلقى قبل فترة من الزمن عدة تهديدات، مع أنه قال في ضبط التحقيق إنه لم يتلق أي تهديد.

عند هذا الحد، لم يعد هناك ما يفرضه بأي استفسار. اتصل برئيسه، وارتأى أن تصرف إدارة المستشفى الجريح المفجوع الرأس إلى بيته، لقد تماثل للشفاء. لكن رئيسه طلب منه متابعة ما يبدو... أنه تحقيق.

والكنه انتهى.

رئيسه أصر.

«تظاهر بأنك ما زلت تحقق».

تفهد بالتمليحات الأخيرة، عاد بعد الظهر، وتظاهر بأنه يحقق، فأعاد طرح الأسئلة ذاتها، وتلقى الأجوبة ذاتها. من ناحية ثانية، لم يكن مستعداً، فتح الباب وسمح لأقارب المصاب وأصدقائه ومعارفه بزيارته.

لم يكن المساء سعاداً، فقوم الزوار الكثيف بعث النشاط في الغرفة، كانوا من رجال الدولة المعروفين، ليس من الصف الأول، بل من الصفوف الثالثة؛ موظفون من الوزارات المختلفة، ومديرو إدارات ومؤسسات، وبضعة مسؤولين بارزين من الأحزاب، تواصلوا بالمفرد، بينما تدفقت باقات الزهور بالجملة، وتقاطر معهم نساء سافرات في أواسط العمر، وموظفات شابات في زهرة العمر، يطمنون على صحة الأستاذ قاتح القلب، ويهتفون على سلانته من الاعتناء الفاضل.

لم يؤخذ بما أظهره الزوار من تعاطف، كانت مجاملات يستدعيها وجود رجل طريح على السرير في مستشفى. وإذا كانت كلمة لإهاب قد ترددت على مسامعه، وأحدثت لديه رد فعل غاضب، فلأنه كان على اطلاع واف بما يمكن أن تستجره هذه الكلمة

من مخاوف لم تكن حقيقية، على الأقل لأنها من صميم تخصصه، لم يكن يعمل على خريطة صغيرة، تقتصر على البلد، وإنما على خريطة تشمل العالم، يتابع يومياً وأحياناً بالساعة والدقيقة، ما يجري في أرجائه من العراق وأفغانستان والسعودية إلى أوروبا وأمريكا.

وأيضاً، لاشتمالها من هؤلاء الذين يسعدهم تحويل قصة نافذة محدودة الأثر، لا يشوبها أي التباس، إلى جريمة شنعاء أتعقت، مع التأكيد على أن المعتدي قد يعاود الكرة.

مراعاة لهذه الأكتوبية، أهدى الشرطين بحرسان ليلاً المعتدى عليه الأستاذ فاتح.



## الزائر الأخير

مع تناقص الزوار في اليوم التالي، أعد الأستاذ فاتح العدة لمغادرة المستشفى، اتصل بهيئة مساء، وقال لها إنه لا يتوقع مزيداً من الزوار، وسيغادر في القاد، وطلب منها مساعدته ريثما يصل إلى البيت. واتفقا على أن يمر سائق سيارة المركز وبأعضائها من عملها نحو الساعة الثالثة بعد الظهر كي ترافقه من المستشفى.

قبل الظهر بقليل، دخل الزائر الأخير، لم تسبقه باقعة زهور، ولا مرافقة أفسحت له الطريق، أو أحد فتح له الباب. انسل إلى الغرفة وكأنه يدخل عجلة، بخفة على رؤوس أصابع قدميه، ابتسامة عريضة على وجهه، تشوب نظراته سحنة حزن عميق.

فوجئ فاتح بالرجل قصير القامة الممثلن الجسم واقفاً أمامه، ينحنح وعلى وشك أن يتكلم. لكنه لم يفتح فمه إلا عن الإبتسامة المتنبئة التي دخل بها إلى الغرفة. فاتح لم يعرفه، فظهر

التساؤل في عينيه، غير أن الملامح البشوشة والنظرة الحزينة معاً، تراكبتا بشكل عجيب، وأقتنعتاه بأن هذا الشخص يعرفه جيداً، وإلا لما أظهر ببراعة وبشكل متفجع، الأكم لما أصابه، والفرح لتجاته في آن واحد. وهذا كافٍ ليعتقد بأنه يعرفه بالمقابل، وإن لم يحضر إلى ذهنه. فأسف بإيمامة من رأسه على ذاكرة لم تسفنه، واعتلر منه بنظرة حائرة، لأنه لم يرحب به بالشكل المناسب، فكان الصمت دعوة إلى المبادرة للتعريف عن نفسه.

لم يحبط الشخص الذي توقع أن يحظى بلقمة لطيفة تدل على أن فاتح تعرف إليه. رغم أن الموقف تجسد على هذا الوضع. أهدي راحة صدره بانسامة باتت أوسع، لم يفته أن المصاب نسيه تماماً، فقد مضى زمن طويل، لم ير أحدهما الآخر، حوالي ثلاثين سنة. «كنا أصدقاء طفولة».

فانتثر فاتح واستقام بجذعه فوق الفراش، عجباً من يكون؟ هل جسمتني الطفولة مع هذا الشخص المسمين؟! حتى لو لم يكن سبباً في ذلك الوقت. تابع الشخص موضحاً:  
«في المدرسة الابتدائية».

فرجع برأسه إلى الخلف، وارتد عالقاً إلى مدرسته الابتدائية في حي الشيخ محيي الدين، وتذكر طوراً الولد الذي رافقه طوال خمس سنوات، من الصف الأول إلى الصف الخامس، لم يظفر باسمه، كان عالقاً على رأس لسانه. ولكن تذكر وجهه بسرعة، فلأن التقاطيع الطفولية لم تفلارق ملامحه، ما زالت مطبوعة عليها، رغم أنه تجاوز الأربعين من عمره، وأصبح رجلاً قصير القامة متفوحاً لآفت الهدانة.

«كيف تذكرني؟».

«سمعت بما حدث لك، فأبته لأزورك وأطمئن عليك».

«لماذا لم تحاول رؤيتي من قبل؟».

«مشاغل كثيرة، أتصد مشاغلك، فلم أحاول الاتصال بك. كنت أتابع أخبارك وأقرأ لك. اعلموني يا صديقي، بصراحة لم يسرني ما كنت أقرأه وأسمعه عنك. بعد أن وصلني خبر الاعتفاء عليك، دعاني الواجب، الواجب فقط، إلى الأطمئنان عليك، لقد قصرت معك، أنا المعلوم. كان علي غض النظر عن بعض الأمور، بعضها وليس كلها. للصدفة حقوق مهما مرَّ عليها الزمن، لا ينبغي التهاون فيها».

لم يشأ أن يسأله، عما قرأه أو سمعه عنه ولم يسره. آراؤه أحياناً لا ترضي أقرب المقربين إليه، فما باله مع صديق طفولة منسبة، باعدت بينهما السنين. منذئذ لم يتذكره ولو لحظة واحدة، أو يخطر على باله.

«لا تلقى اللوم على نفسك، وإنما على الزمن الذي فرقنا».

أثاره تدفق الذكريات، هذا الرجل كان صديقه الحميم والوفى، مثلما كان صديق جميع طلاب الصف، ولد مسوس بلعل الخير، ضرب أمثلة عجيبة على طيبة قلبه البالغة، كان يتبرع بمصروفه اليومي لمن يصادفهم من المنسولين وهو في طريقه إلى المدرسة صباحاً، ويقاسم أصدقائه رقبتي الحال طعانه، ورغم أنه كان تلميذاً مجتهداً، لم ينافس رفاق صفه على المراكز الأولى، يدرس ليس كي يتفوق عليهم، وإنما ليمد إليهم يد المعونة في الامتحانات الشفهية والتحريرية، خارقاً مثالياته، ولو عوقب من جرائها.

فاجأه الحضور الزعم للماضي المنسي، وما فاجأه أيضاً، اكتشافه أنه كان طفلاً في يوم من الأيام. اعتقد أنه لم يمر بهذه المرحلة، مع أنه كان خلالها تلميذاً نجيباً متميزاً بذكائه، حسبما يقول صديقه الشاهد عليه وعليها:

«كنتَ ولدًا لمأحاً. توقفتُ لك في حينها، مستقبلاً عظيماً.

وأضاف بخجل:

«ولاحظ الأستاذة، أنا أنا وأنت، كنا تفكر أكثر من غيرنا».

بعد هذا الفراق الطويل والشهادة الممتازة، كان الموقف ملاحظاً ليسأل فاتح صديقه الأسئلة المناسبة التي لا مفر منها دفعة واحدة، عما فعلته به الأيام، أين أنت يا رجل؟ ما الذي تعلمه؟ هل تزوجت؟ كم ولدًا صار لديك؟

بتلكو وتواضع، أوجز صديقه ثلاثين سنة من عمره لم يتابع تعليمه الجامعي، تسلّم بعد وفاة أبيه دكانه لبيع الأدوات المنزلية بالجملة في المصرونية. تزوج صغيراً، ورزق بخمسة أولاد، صبيان وثلاث بنات، اثنتان منهن تزوجتا السنة الفاتحة. ترك الدكان لابنه الأكبر، وتفرغ لأخوته.

«في هذه السن؟!».

تسائل مدهوشاً، هل بلغ التدين بصديقه حدّ التفرغ في وقت مبكر للعبادات وإعداد النفس للموت؟ لا بد أنه مريض بمرض عضال أجدّاه إلى الله.

«هل تعاني من شيء؟».

«لا، أبداً، لا أشكو من شيء».

والمعجب، أنه ليس قاعداً بلا شغل، العمل في الجمعيات الخيرية أخذ وقته كله، وهي أعمال بلا مقابل، مد يد العون للفقراء والأرامل واليتامى وكل ذي حاجة، أعمال يبذل فيها جهده لرضاء لربه وللثواب فقط. هذا أفضل ما يحسن به حالته.

بعدما أوجزت الخلاصة حياته كلها، السابقة واللاحقة حتى النهاية، جاء دوره في السؤال، فأشار إلى الضمادة البيضاء التي لف بها رأسه، وقال بحسب:

«يا صديقي ما الذي فعلك بنفسك؟».

فأنتبه فأتاح، كان صديقه يلومه:

«أنا لم أفعل شيئاً، لقد اعتدي علي».

«أعشى أنك أثرت أحداً ضلك».

«لا أعرفي، التحقين لم يؤد إلى نتيجة».

اختصر جوابه كي لا يفسد الجو غير المادي الذي استأنس به، مطلقاً الكلام حول هذا الموضوع. لكن صديقه اقترب منه وتكلم بصوت منخفض:

«من قبل بأنهم فعلوها، لا علاقة لهم، جماعتك يلقون الاتهامات جرائفاً».

فقال متوتراً:

«ما أفرأك؟».

«أنا أعرف الكثير».

هيطت درجة توتره، وأقلت ضحكة لم يتمكن من إخماتها، هذه الجملة بالذات كان الولد الصغير الطيب القلب يرددها في مواقف كانت بمنتهى الطرافة، أهام كان لمعرفة أبعادها البريئة. ها هو الرجل الطفل، كاشف الأسرار، يرددها بعد مضي عشرات السنين، يزعم بأنه يعرف الكثير!! ما زال على نهجه، في معرفة دائمة، لم تراجع أو تبدل، وفي ازدياد.

«ما الذي تعرفه؟».

«الكثير، أكثر مما تتوقع».

«ما زلت كما كنت، لم تتغير».

«طلالما تتغير هذا».

«عسى نحن ألا نلتزم».

«ومع هذا نلتزمنا، نلتزمنا كثيراً».

«إننا رغبت في مساعدة...».

«لا أحتاج إلى شيء».

قالها بسرعة، مظهرًا ضيقه منه. فما كان من صديقه إلا أن توجه نحو الباب، لكنه استدار عائدًا إليه:

«أريد أن أقول لك، إن ما تدعو إليه سيئ، سيئ جدًا».

كان يقصد ما يدعو إليه في محاضراته وما يكتبه أحيانًا في الصحف.

«نعم لا يروق للكثيرين. معك حق. هنا ما أصبحت، لا لم أعد كما كنت. ولن أعجبك، لكن مهما قلت، فهنا أنا».

وكأنه لم يسمعه. أخرج صديقه ورقة من جيبه وكتب عليها رقم هاتفه، وأعطاه إياها.

«سأدعوك بالشفاء العاجل. رجائي أن تتصل بي في حال احتجتني».

أخذ الورقة منه، دفعها ووضعها في جيبه. لا لن يتصل به، مهما كان الأمر، ثم لماذا يحتاج إليه؟ في الماضي السعيد كان طفلًا مثاليًا. أما في هذا الحاضر غير السعيد، فلن يكون سوى رجل ثقيل الظل والدم، وكما يبدو قاذبه طيبة قلبه إلى التدين. وعلى الرغم مما يدعيه عن كثير معرفته، لا يعرف سوى القليل مما يدور

حوله، العالم يتطور، أما هو فما زال يعيش في الزمن الغابر.

أمر واحد، كان عليه أن يسأله عنه اسمه، فهو لم يتذكره، كما أن صديق الطفولة، لم يكتبه إلى جانب رقم هاتفه. أخرج الورقة من جيبه ومرفها.



## العلماني المقيت

الإقبال الرسي والاجتماعي على زهارة المصائب في المستشفى، استرعى انتباه الخبير الشاب، فلم يدعه دون استفسار. سأل رؤسائه عن سر الاهتمام بالشخص المفجوع الرأس. فبدا الجواب الذي سمعه حيرته: الأستاذ فاتح القلج موظف مرموق، ومفكر مستقل، لا يقل أهمية عن مفكري الحرب!!

ما الذي جعله يسيء الظن بالرجل ونضيته!!

تسرعه بالاكْتفاء بانطباعاته الأولية عنه، واستعانته بالحدس الذي كثيراً ما يخطئ؛ وقليلاً ما يصيب، وقبلها حفنة المعلومات التي استقاها عنه من جواره في البناية، وهو في طريقه إلى المستشفى عقب تكليفه بالقضية.

المعلومات لم تكن في صالح الأستاذ، كان الجار على خلاف

منه، وأميل إلى تخصيص شأنه، لا يعرف عنه سوى التزور البسيط، فهو يجهل عمله الوظيفي، وإن كان مطلعاً على أحواله المعيشية كأرامل يمش وحيداً ومثله بقية الجيران يتفرون منه، يعتقدون أن الأستاذ يتجنبهم ويأنف من الحديث معهم؛ كان لا يزور ولا يُزار.

لم يصر عليه فهم انطباعاتهم السلبية عنه؛ ما دام يسكن معهم في البناية نفسها، وهي بناية قديمة تقع في سوق العزة طلعة السجن، فلا شيء يميزه عنهم، لو كان موظفاً ذا حيشة لسكن في منطقة الفيلات القريبة القريبة أو بناية في شارع المالكي. كما أن السيارة التي نقله صباحاً إلى مركز عمله وتعيده بعد الظهر إلى البيت، لا تنبئ عن منصب معتبر، ما دامت هي بجوار قديمة موديل سنة ٧٦، نادراً ما يستخدمها خارج أوقات الدوام الوظيفي.

المعلومات الرسمية الرسمية التي حصل عليها، كانت لا ريب الأقرب إلى الحقيقة. كان مديراً مرموقاً فعلاً، لكن دون نفوذ فعال، ولا عمله ذو شأن كبير، كان موظفاً محترماً، والأهم مفكراً مرموقاً. فاكثفى الخبر مؤقتاً بهذا القدر، لكن فيما بعد سيبحث عن المزيد.

وللعلم، أُنسب إليه هذا المنصب المرموق غير الفعال، مكافأة له على مواقفه التقدمية في فترة سابقة، مع أنه لم يطلب شيئاً لنفسه، لكن أصحاب القرار في الدولة، وُجد من بينهم من ارتأى وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وفي الوقت نفسه إبعاده عن أي وظيفة تشكل حضوراً لافتاً. كان منصب مدير مركز المعلومات شاغراً، لا أحد رضي بتسلمه على الرغم من الوجاهة الثقافية والسعة الأخلاقية غير المتحازة التي يبغها على صاحبه. كانت لديهم أسبابهم، الوجاهة الثقافية تبهت مع الزمن، والقيم

الأخلاقية نفيسة في عالم لا يهتم إلا بالمادة. أما الحقيقة التي لا يستهان بها فهي، منصب دون تأثير، منصب دون مورد.

بجهل الجيران كل هذه الأمور عن جارهم الأنعزالي. بيد أن الجانب المجهول والأبرز، أنه مفكر علماني، اختار منذ زمن غير بعيد الإيمان بالعلم، والانحياز إلى جانب العقل، ونبذ الخرافات والأوهام وجميع المعتقدات التي لها علاقة بالروح، أي كل ما لا يرى أو يلمس.

لم يحترف فاتح الفكر كمهنة تجلب المال، وإنما السمعة التضالية، تحت تأثير دافع كان غليظاً من الاستقامة الأخلاقية والجدل العلمي والشغب الفكري. كان هاوياً، يهتم بالمبادئ، أحدث المبادئ، دون أن يتعش منها أو عليها، يعقد محاضرات غير دورية ويدير ندوات بلا مقابل. عُرف بمداخلاته العميقة ومعاداته للشعوية، وكان صادقاً في الدفاع عن العقلانية والدعوة لها بدافع داخلي، بحثاً عن الحقيقة، عصباً الحقائق الدامغة، كالسوت تلك الحقيقة التي كلفته فقدان زوجته.

وبالتأكيد لو علم جيرانه بما يدعو إليه، فسوف يكونون ضده، فهم لا يقرأون سوى صفحة الجرائم وما يقرأ على أسعار السيارات والعمارات من ارتفاع وانخفاض، ولا يهتمون بالأفكار المجردة، عدا أنها غير مفهومة، لا فائدة منها في الحياة اليومية. معلوماتهم عنه ما زالت على حالها، فهو الساكن الجديد، مع أنه مرّ على سكناه البناية عشر سنوات، أو الرجل الذي ماتت زوجته، مع أنه مضى على وفاتها ثلاث سنوات. وبما أنهم يعنون بالمظاهر، بدا لهم أنه ما زال محتفظاً بشبابه، يروح في منتصف ثلاثينياته، مع أنه تخطى الأربعين من عمره منذ سنوات غير قليلة.

كانت له صولات وجولات محدودة على صفحات الجرائد المحدودة أصلاً، وأصبح معروفاً ضمن دائرة صغيرة من القراء النابهيين، ومشبوهاً لدى الإدارات الحساسة لانثقاده سياسات داخلية لا يجوز الإشارة إليها. لم يمنح ولاية للسلطة، ولم يعطد معها. فلم يحاولوا شراءه لاعتقادهم بأنه سيرجهم بأرائه الجريئة، ففضلوا رشوته بمنصب، وتجاهله ما دام لا يضايقهم، وإن كان يزعم المجتمع أحياناً بتناوله على تقاليده ومعتقداته.

غير أنه من الناحية العملية، كان متمهلاً، لطيفاً الجانب الفكري على شخصيته. كما كان لطيفته الجادة التي تنفر من الاختلاط بالناس أثرها فيه وعلى اختياراته، فكان أمناً على صفته كمشرف غير تابع لأية جهة. ورفض التعاطي والحوار مع التنظيمات السياسية والمدنية والتجمعات الدينية بأنواعها المتشددة والمتعددة، وإن ربطت بهم علاقات طيبة وغير طيبة، أثبتت جدواها حينما اعتدي عليه، وعدم جدواها، إذ لم تفده بشيء.

أما محاضراته عن العلمانية، فكانت تدور وتلف حول فكرة واحدة هي فصل الدين عن الدولة. كان يشرحها ببراعة ويحيلها إلى موضوعات عميقة ذات مستوى عال، فيرتقي - من فرط تحمسه للعلمانية - بالدولة المكروهة إلى نظام يحترم الضمير، يحفظه من أن يكون ملكاً لدين أو طائفة أو مذهب، فيبقى للجميع. لاكت فكرته صدوراً لدى ناقديه المتدينين؟ فالدولة إن لم تكن لدين، فلن تكون للجميع، ستختطف وتصبح نهياً للصرع المخارين.

انصبت عدائته بالدرجة الأولى على الغيبات، لم يكن يهاجمها صراحة، أو ينفي مكانتها الروحية. كان يث ضدّها وبذلكاء دعاية إلحادية لبقّة. لم تخفّ على متابعيه وعصومته. كان متمتاً ضد

المتدينين، لا تهمة حرية ضمير ولا تعبير مخالف أو مختلف،  
 وبجهر بعدم التسليم بصحة أي شيء، وإعضائه للفحص  
 والتجربة. شعاره، لا حقيقة إلا حقيقة العلم. ولئن تباهى بذكورة أن  
 العلم نزع السحر عن العالم، فلكي يثبت أن الدين لا يقل شعرة  
 عن السحر، وليس أكثر من عذابات لا أساس لها، ولا حاجة  
 إليها.

وعندما اضطرت السلطة إلى تحذير المتقفين من إطلاق الآراء  
 المتطرفة، والتهجم على المعتقدات الدينية، وكان هنا ضمن خطة  
 عملت فيها على بذر الشقاق بين الشعب، وفي الوقت نفسه،  
 جادة في تأمين الاستقرار، نجحت في تحقيق هذا التوازن الذهني  
 المستحيل، وكان أحدهما لا يتنافى مع الآخر، بل يعتمد عليه،  
 حتى يحيل للكثير من السرائير أن الشقاق ليس عماد الاستقرار،  
 وإنما ركيزته أيضاً.

لم يأخذ هذا التحذير بعين التفهم ولا الحيطة، فتخلى عن لباثته  
 الذكورية ورفع حدة انتقاداته لأهل الدين، فمالت الكفة لأهل العلم،  
 وأعل بالتروازن، وكادت أن تثار فتنة بين المتدينين وغير المتدينين  
 على قضية فقهية عظيمة الشأن، كانت بالنسبة إلى العلمانيين  
 طريفة وتدعو للتندر. ما دفع السلطة إلى كبح جماح علمانية  
 الأستاذ. فاستدعوه إلى أحد الفروع وأفهموه بحزم أنه إذا كان  
 كافراً، فهم كفار أكثر منه. وألزموه بوقف تهجماته على الدين في  
 المحافل العامة. فقلص انتقاداته العلنية وحصرها بجلساته الخاصة،  
 التي لا يحضرها إلا مرهبوه، واكتفى بالدفاعية، أي بالدفاع عن  
 العلمانية من ناحية أنها تحفظ السلم الأهلي وتعهد للدين روحانيته.  
 فاستعاد احترام ورضا الأجهزة صاحبة القرار. واعتبروه من

المخزون الاحتياطي العقلاني لدولة غير عقلانية ولا مؤمنة، يكمل تشكيلة الأصناف المفكرة التي لا يستغنى عنها في المناظرات التلفزيونية التي تتطلب مساحكة وناكفات، وجدلاً ومصطلحات، لئلا يقال إن البلاد تفتقر إلى مُنظِّرين يتكلمون بالفصحى، ويسفون مناعاً من التفكير المنفتح، وإن كان ثقیلاً على برامج كانت بلا وزن، وشيئاً من الجدبة على حوارات الطرشان.

ومع أنه لم يُستدع إلا مرة واحدة، لنلقظه بأراه ينبغي أن يكون أكثر حنواً في الإنصاح عنها، فقد تعلم الدرس. على كل حال، بالنسبة إليهم، ما دام تحت اليد، فلا تخطر منه، ولا من إهقائه في وظيفته، بل وترجمته، بشرط ألا يشعل سوى حرائق صغيرة لا يمسر تطويقها، وإطفائها عند اللزوم.

وإذا كان جيرانه قد أحققوا بعقد صلوات طبيعية معه، فلأن امتزاجه المحكمة لم ترق لهم، ظنوا أنه يتعالى عليهم، خاصة أن هيبته الجادة تضي عليه مظهراً واجماً، من النوع الذي يتلبس المفكرين المشائمين ولا يفارق تصرفاتهم اليومية، مع أن شروده، كان لانشغاله بالتفكير بأمر عاتلة التأثير، ذات أبعاد إنسانية، حتى المشاكل البهية الهامشية، كانت حسب تحليلاته مهيئة، كأكياس القمامة التي ترمى من الشرفات، وانقطاع المياه والكهرباء لفترات طويلة، وأشغال الطرقات التي لا تنقطع.

لم تكن ملامحه مرهقة عندما تتضارب الأفكار في رأسه. كان يعتقد حاجيه فيجهد جيته، مضافاً على ملامحه العيوس، ويدنو عليه القرف، فيصبح شكله أقرب إلى أن يكون مقبباً، فسقته جيرانه، ولم يهتموا بما حصل له، ومن اعتم، فلكني بشت به.

وعندما كانوا بين فترة وأخرى، يستمدون حكايته مع المرحومة،  
 يشفقون عليه ويتعاطفون مع مأساته، وتلين مشاعرهم تجاهه  
 وشوبها الإكبار. فيحاولون التقرب منه، فيقاسمهم بحرفته، وهي  
 ليست بحرفة، وإنما مظهر اعتاده، فيفتونه من جديد.

## لماذا سبب الأستاذ قلقاً طفيفاً للدولة؟!

اعتقدت نظرة الخبير الشاب إلى الأستاذ فاتح. لم يعد مجرد شخص مفجوع الرأس بسبب امرأة، وإنما مفكر معتدى عليه. لا يهم لماذا؟

بل ونجح في إثارة فضوله كمفكر تقليدي ذي إمكانيات مستقبلية واعده في النشاط المضاد ضد الإرهاب. أدهشه تجسسه المباحث على هذه الشاكلة، وأن يصبح فجأة على علاقة بعمله وعالمه، عالم قد يثر له على دور في داخله، إذا جرى توظيفه في المكان الصحيح. لكن قبل هنا وذلك، عليه التأكد من جدية اهتمام الدولة به، رسمية أم فعلية!! دون أي تفكير بإعادة النظر في قضيته. القضية حالياً غير مهمة، الرجل هو المهم.

اتصالاته أثمرت، ولم تكن من الناحية التي عشي أن تبعه إلى الوراثة، وتضعف مولف الأستاذ فاتح، سجله الأمني لم يحتو على



فزينه من النساء، وإنما على عدد ضئيل منهن، لم يتجاوز أصابع اليد الواحدة، إحداهن زوجته. التفتيش عن امرأة في الظلام فقد أولوبته، بعدما أصبحت متوافرة في النهار، خصوصاً أن الجنس لم يعد مادة ثمينة، ولا يصلح للشهيرة، صار بضاعة غير نادرة، بعد دخول المرأة سوق العمل.

كما أن السجلات لم تخيه، أنجدته بعض المعلومات المهمة، فحصل إلى استنتاجات معقولة لم يتوقعها، وشكوك سيفة لم يستطع تفاديها، لكن بالوسع توقعها، ولا تستغرب من دولة تجهد في فتح صفحة جديدة مع المتخلفين، وتحاول استئناسهم، فبادرت نحوهم ببضغ مجازفات، كي لا تُلصق بها تهمة إهمال المفكرين غير المحسوبين عليها، واضطرت إلى معاملتهم على قدم المساواة مع مفكرها، وعدم التخلي عنهم في حال استهدفوا بالقتل، ولذمت لهم بعض الرعاية، مع التغاضي عن انتقاداتهم وأكاذيبهم ضدها، كان هذا سر الاهتمام الرسمي به... مجرد شكليات، منعاً للتفولات.

أما لماذا سبب الأستاذ قلقاً طفيفاً للدولة؟ فليس لأسباب صحيحة. الأمر معقد بعض الشيء، كان، سواء يدري أو لا يدري، واحداً من الذين يفكرون لحسابها، ويدعمها في معرض تأكيده على أخطار الأصولية. كانت خدماته مبذولة لها على نحو غير ظاهر ولا مكلف، وعسارتهم له لا مبرر لها، ولأسيما أنهم لم يشاركوا بتدجينه ولا تأهيله. ما يتبرع به مجاناً، يدفعون ثمنه للأخرين باعظاً، مع كلف النظر عن انحرافاتهم المالية وسعنتهم السيفة. أما هنا فببذائع ذاتي، حتى المنصب الذي منحوه لها، لولا جانبه الثقافي لما قبل به. كان أحد أدواتها التنظيمية، الصالحة للاستعمال في الأمور غير التنظيمية.

لم يهتم الخبير بنشاطات الأستاذ الوظيفية، ومعها المركز وما يحتويه من معلومات، ماذا تكون سوى المعلومات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والجغرافية. إلخ. أما المعلومات السرية، فغير متوفرة لديه، عدا أنها محجوبة عنه.

أيضاً، مشاغله الفكرية، ما ضرورتها؟ ما دامت عملية التفكير، لا تزيد عن ذلك اللغو المضني الغني بالحفلات والتلاعب بالألفاظ، حول الأيديولوجيات الدينية والقانون الإلهي والتجربة الأوروبية والحداثة... ما الذي تقدمه لدولة لا تجعلها الأفكار التقليدية تتقدم، ولا الرجعية تتراجع؟

لم يقل هذا عن غير ذواته، كان هو كخبير يفكر أيضاً، لكن على طريقته، وبهدف محدد، وإذا كان يحدث تأثيراً في الواقع وعلى الأرض، فبهدف عدم إحداث متغيرات، أو تعريض النظام إلى مخاضات قوية، وذلك بالعمل على اكتشاف ما يتكره الإرهابيون من أساليب جديدة. كان على سباق دائم معهم. ومن الطبيعي ألا تلتقي تهيؤات التنظير الفكري المجرد بالتخطيط العملي المضاد للإرهاب، ليس لأن أهدافهما متناقضة، وإنما بحكم الفرق بين الوسائل: الجدل والرصاص. الجدل يقتصر على الكلام، بينما ينضخم الرصاص إلى قنابل ومفجرات، وسيارات مفخخة، وأحزمة ناسفة، وسيف عاد سلولاً، أحد تطبيقاته: قطع الرؤوس.

كانت نقضاته حول الأستاذ فاتح خارج نطاق عمله. مثلما كان اهتمام الدولة به، خارج نطاق تعاطفها معه، لإبطال حجج المعارضين وجماعات حقوق الإنسان، حتى أن العريضة شديدة اللهجة، تداركها أصحابها بعد ضغوط حازمة وسريعة، وأصبحت أكثر دقة، فشطبت منها ونوع الاعتداء في وضع النهار، بسبب

الغصنة على الدرج، ولم يوجه الاتهام لقوى الظلام، لئلا يظن أحد بأنهم عادوا إلى الساحة، فنجلت ضد مجهول، واكتفي بأربعين توقيعاً. نشر الخير في الصفحات الداخلية للجرائد الصادرة اليوم، أما على المواقع الإلكترونية فلم يظهر تحت صيغة خير عاجل.

والآن، مسيرة لرئيسه الذي أصر قبل يومين على متابعة التحقيق بعد إغلاقه، وإكراماً لمخاوف المفكر المعتدى عليه؛ القرح وضع حراسة مؤقتة على بيت الأستاذ فاتح ومرافقين مسلحين، واحد صاحبي والثاني ساشي، يرشقانه لفترة محدودة من الزمن.

رئيسه وبالإصرار نفسه، طلب منه لقفلة القضية. الرفض هبط من فوق معللاً: في هذه الحالة، لن يكفينا تحويل دوريات فروع المخابرات كافة إلى حرس لحماية أمن كل من يقول كلمتين ضد الدين، لدينا جيش من الكفار، إذا كانوا يريدون الجمعية والشندق والحادهم فليتكفلوا بحماية أنفسهم.

القرار نهائي: لا عودة للمظاهر الأمنية، لئلا تثير رعب الناس.

دون شك، غيبن القرازة الأستاذ بشكل مجحف. ما زالوا مصرين على إعماله. المشكلة، أن ما جرى له يفتقر إلى لمة إرهابية. لكن ماذا لو كان فعلاً قد تعرض لهجوم إرهابي؟! طبعاً لن يعاملوه بأحسن. غير أن الدافع، ما زال قائماً، وإذا تعرضوا له ثانية، قلن بضربوه بل سيقتلونه. احتمالاً مستبعد الآن، لكنه وارد في المستقبل.

كان الأستاذ فاتح بصورته الحالية يستحق التقدير، وإن كان غير مشهور على نطاق واسع، لهذا لم يسمع به، ولولا هذه المصادفة لما تعرف إليه. ما استوقفه فعلاً، هو الجانب العلماني من

شخصيته. كان من المستحسن أن يتعامل معه بشكل أرقى. وبالنظر إلى بعيد، ليس بعيداً جداً، يخبر مادة خصبة لفضية كبيرة، نقطة الضعف فيها، أنه معروف على نطاق ضيق، لكن عند اللزوم، من الممكن توسيعه قليلاً، أو تضيقه أكثر، حسب المطلوب.

سيراه اليوم، ويصلح الأمور بينهما، هنا إذا لم يكن قد غادر المستشفى.

## برقية محمولة باليد

أدركه قبل أن يخادعها بلحظات. رأها يهتان بالخروج، الأستاذ واقف إلى جانب السرير متأبطاً ذراع السيدة هيفاء، التي انسحبت وأعلنت لهما القرفة بمجرد أن دخل، قائلة للأستاذ بأنها ستنتظره في السيارة.

لم يكن بوسعها تبرير زيارته له بعد انتهاء التحقيق. لكن من يستطيع مسايلته عن تقدير ضرورة أو عدم ضرورة ما يفعله؟ ومهما يكن، القرفة نهأت لترميم علاقة شخصية نشأت وتدهورت إلى الحضيض خلال يومين، لن يشير إلى مهمة اضطر إليها، وكان غير راض عنها، فالقضية أفلتت. سيجاري أوهامه بعض الشيء، يوضع الاعتداء في نصاب ما معقول، بعدما امتعوا عن حمايته بتحصين مسلحين.

حاول أن ينجز كل شيء على عجل، التهنئة بالشفاء، ويضع

كلمات بلا معنى، ثم يودعه إلى لقاء قريب. زاد عليها بأن شد على يده، وأبدي أسفه، معبراً العملية إجرامية، أشجعها بتفسير، كان مختلفاً.

وتقدروا أن الرجل الذي قام بالاعتداء عليك، رجل أزعج استأجره شخص يُمكن لك الحقد لأسباب لا داعي لذكرها، اعتقد أنها عسرية جداً. فضبتك انتهت عند هذا الحد، والأغلب دون عقاب.

بداية معقولة أدت إلى نهاية معقولة، طمأنت الأستاذ كما يبدو، وكسرت حاجز الرهبة لديه، بما أبداه الخبير من رحابة صدر. لكن الخبير نفسه لم يتوقع أن تنازله سيحرك في داخل الأستاذ شبهة عارمة للكلام، أحبطت طوال الأيام الماضية.

قبل أن يتكلم، استعاد الأستاذ شخصيته، ليس تلك الشخصية العادية، وإنما شخصية المفكر المتكلم الوثائق بنفسه، بعدما أحس بالفوق على المحقق الذي أعطى تفسيراً سخيفاً للاعتداء، فيأمر لتعليق عليه بالسخافة نفسها.

«ذكرتني بأستاذ جامعي، لا أظنك تعرفه، كان مشهوراً بقامته المصرومة، زعم أن سب نحوه اتباعه حمية نائية قاسية، بينما كان حسب شهود عيان نهماً أكلوا لا يحد عن اللحم والدهن. وإذا كان لم يسم، فلأن الحد كان يفري شحمه وعظمه دون هوادة».

استغرب الخبير دفع اللحم والدهن والشحم والمغظم!! كان بلا معنى، بعد طول تلجلج وانحباب. طوال اليوم الفاتت كان يحرق الكلمات من فمه جراً.

«الأستاذ الجامعي... ما به؟».

«تهمني بأنني أتعدى على التفكير».

«ما علاقته بما جرى معك؟».

«هل يعقل أن يكون الشخص الذي هاجمني منافساً جديداً، يخفي صفته الأكاديمية وراء مخاطرة إرهابية؟».

فاجأه السؤال، هل كان الأستاذ جادا؟! لكن الأستاذ أطلق ضحكة عالية:

«هذا مستحيل طبعاً، رجال العلم مهما بلغ بهم الشفوف، لا يلجأون إلى العنف، وإنما إلى الدسيسة والوثيقة».

يا للمفاجأة، الأستاذ صاحب نكتة، ولديه أسلوب في الكلام يعتمد المخاتلة العميقة والظرفية. ما شجع الشاب على الإسهام بتفسير إضافي:

«أو أن الرجل الذي اعتدى عليك، أعطاً غريبه، كان يسأل عن شخص يتوي قلبه، شبيهاً بك. ساعدت العتمة على هذا الاتيأس، عندما أتروك عطفاه فز هارباً، من حسن الحظ، لم يؤذك بشكل بالغ».

لاحظ أن الاعتداء على هذا النحو، لم يرض الأستاذ. فأكمل:

«طبعاً، هذا لا يبرح عن الواقعة صفتها الإرهابية، لدي كثير من الشكوك. أنا لن أتركك. سأعبرك من مسؤولياتي».

أراد أن يشعره بأن تخلي الدولة عنه لم يكن عادلاً، وأنه يعتقد معه

اتفاقاً شخصياً، وإن كان حالياً لا يزيد على شد أثره بوضع كلمات:

«لا أعطي عليك أنني مهمم بفضيتك. ولن أتأخر عند الحاجة عن التدخل. إذا لاحظت أهدأ براتيك، أو يلاحظك، أو أحسست بالريبة نحو أي شخص، فلا تردد عن الاتصال بي في أية ساعة نشاء، سأعطيك رقمي الخاص لحالة الضرورة».

لم يبق سوى أن ينزل معاً، ولعزبه من الألفة سبب من الأتقاء على ذراعه.

في الوقت الذي كاد أن يمد ساعده إليه، دخل الشرطي، وقال له إن أحد عناصره يسأل عنه في الخارج. كان الرسائل في المسر، يحمل برفية سلمها إليه بالهد. كانت جواباً متأخراً عن استفسار وجهه إلى أحد فروع الأمن قبل يومين. اتحن جانباً، وأخذ يقرأها على مهل.

رداً على طلبك حول وضع الأستاذ فاتح القلج. ما وردنا عنه أنه كان متديناً في السر، لفترة من الزمن لا تقل عن سنة، ولم يكن لأحد أن يعرف هذا، لولا أنه ضبط قبل أربع سنوات يحلوس الصلاة. تحققنا من أمره بوضعه تحت المراقبة، الإخباريات أكدت مواظبه على صلاة الفجر، يؤديها حاضراً في مسجد الزهراء بنزلة الإسكان في الحرة. ثم توقف عن الصلاة، ولم يشاهد في أي مكان له علاقة بأي نوع من العبادات، بعدها لوحظ أنه رفع من حدة انتقاداته ضد الجماعات المتدينة).

أحسن بالإحباط، البرقية تسلمها بعد أن وعده بالتدخل لصالحه وكاد أن يعطيه رقمه الخاص، سعة الأستاذ العلمانية غررت به.



لأول مرة بتورط بالشفقة على ضحية مخادعة. شعور فزطر به، مع أنه عاهد نفسه مراراً على استصاليه من داخله. كيف خطر له، ولو مجرد خاطرة، بأن يجعل له مكاناً ما في خطة قادمة!!

عاد إلى الغرفة وقد انقبضت ملامحه، صحيح أنه لم يعد بشيء ملموس. لكنه كان كريهاً معه بشكل زائد، فأراد أن يقلص مسحة الضحية، فلا يطمع بأكثر.

«أنت أترى بحماية نفسك، مؤقتاً اسع إلى تغيير عاداتك».

«كانت أربحيه الخيرية قد تراجعت، ومع هذا أريد سحبيها كلياً».

«لا داعي للاتصال بي، سأزورك قريباً في مركز عملك».

«وأنتى فكرة مرافقتي إلى الأسفل، استدار كي يخرج».

عند الباب استوقفه الأستاذ فاتح، أحس بأن روح المزاج والتنظيمات انقلبت دون مقدمات. لم يكن على استعداد لتقبل مزاجية الشاب قبل أن يعرف ما هي صفته، وبسأله ذلك السؤال الذي دار في ذهنه، عندما طرد المتجمعين في الغرفة، وأقصى الشرطة عن التحقيق. ظنه بداية واحداً من محققي فرع المخابرات، لكنه لم يحقق معه، بل اعتمد تحقيق الشرطة، وأخاف أسئلة لا على التعيين.

«هل أنت محقق؟».

«لا، أنا عبير من فرع مكافحة الإرهاب. هل تريد أن تسأل شيئاً آخر؟».

«اسك، بما أننا سوف نتقابل ثانية».

«أسألكم متحفظ عليها. لكن اسمي المتداول هو سليم، نادني  
..».

لم ير في تعدد الأستاذ التعرف على هويته، سوى حشوية غليظة،  
وكاد أن يسأله كي يغيظه، أما زالت تمارس عبادتك سرّاً؟!  
سيكذب لا محالة. كانت رغبته جارفة في الكشف عن حقيقته،  
لكن الوقت والموقف لا يساعدان إلا على الإصغاء إليه مرغماً.

«ما الذي تنصحنني به لتغيير عاداتي، الدوام محدد في الوظيفة  
وليس بوسعي تغييره، ما الذي أظنه؟».

«لا تفعل شيئاً، هذه الحادثة لا يعتد بها كثيراً، لا تعنها حجماً  
أكبر مما هي عليه، وبما أنك سألتني، سأنصحك، لا لزوم  
للاحباطات، ولا داعي للمخاوف».

لم يفت الأستاذ التجهيم الرهيب على ملامح الشاب، بدأ الخبير  
في الإرهاب الذي كان لطيفاً، إنما كان يتظاهر بالتودد نحوه،  
بينما الآن متوتر، يحاول بصعوبة ضبط أعصابه بالكزُّ على أسنانه،  
بفضحه تصلب عضلات فكه.

«قبل قليل...».

«أكمل الأستاذ بهتسامة ساحرة، يُذكره بما أهداه من تعاطف...  
قبل قليل... فقط».

فوجئ الخبير بسخريته، ورد عليه بسخرية أكبر، كانت أشبه  
بمزحة ليمية:

«أضف هذه الحادثة إلى أرشيفك الشخصي في بنك المعلومات».

## بنك المعلومات

حتى لو على سبيل المزاح لا اللوم، المفروض من أن يهمل بنك المعلومات واقعة اعتداء كهذه التي جرت على الفرج، لسبب جوهري، أنها لا تحيلنا إلى مأساة.

عادة يتعامل البنك مع الظواهر المهمة، لا الأحداث الصغيرة، حتى الحدث الكبير، لا يحظى بالاهتمام، إن لم يخلف قتلى وجرحى ودماء ولفظاً إعلامياً. لو أن الرجل قتله أو بالعكس، تدرج الحادثة كمعلومة، وتأخذ رقماً متسلسلاً، فإذا سجلت تكراراً لافتاً، بلغت مرتبة الظاهرة المقلقة، فتفتحهم قوائم الإحصائيات الإجرامية بكل ثقة، تسهياً لتثبيتها في ملفات يخرتها كومبيوتر ضخمة، لا يحيا إن رأيت الثور يوماً، أو لم تراه.

الأستاذ فاتح لم يول فحته اهتماماً، اللوائح المعتمدة لا تأخذ بالجرائم المخفية، وإن كانت تشير إلى جانب تُغفم عليه في عالم

الجرمة الخفيفة، ولا تعنى بأشبهها من الحوادث غير المشيرة التي يرونها أناس تعرضوا لهجوم من لصوص، ولو كانوا من أصحاب السوابق، لكنه أضاقها كمطلومة صغيرة إلى ذاكرته، والتي عبر عنها الخبير الشاب بشكل ساخر بالأرشف الشخصي. فالحادثة تعنيه مباشرة، ألم يكن ضحيتها؟



تقع إدارة بنك المعلومات في منطقة المالكي من العاصمة دمشق، وهي منطقة سكنية هادئة، مأهولة بعلية القوم من التجار الأغنياء والمسؤولين المحترمين. لم تخر الإدارة موقعها المتميز، وإنما اختير لها احتياطاً، كان البناء من الأملاك المصادرة بعد الثورة مباشرة، عندما كانت المنطقة في طور التشييد. وضعت الدولة يدها عليه لأسباب سياسية، كان مكتباً لحزب ممنوع وصف في ذلك الوقت بالرجعية.

يطل البناء على ساحة نظيفة تحيط بها محلات أنيقة ومطاعم فخمة، إلى جوارها حديقة واسعة الأرجاء بالمقارنة مع غيرها من الحدائق الصغيرة. اشتهرت بأشجارها وعشاقها وعصافيرها، وتميزت بمناشئها المتعرجة ومقاعدتها الحجرية. البناء قديم، لم يجر تجديده بمحملات الترميم والإكساء منذ سنوات طويلة، لتحافظ المنطقة السكنية على نضارتها دائمة، بالرغم من تسارع إيقاع التحديث العمراني، مع أنه مضى على إنشائها نحو نصف قرن. ولولا توارد الموظفين صباحاً وعروجهم بعد الظهر، لبا البناء بطواقمه الثلاثة مهجوراً. وقد اضطر الأستاذ فاتح بسبب الوسط الرافعي المتاعم إلى العناية بنظافة الإدارة من الداخل، طالما لم يقلع بتحديث البناء من الخارج، مع أنه طالب مراراً بتغييره

وتحجيره مدخله ليتلام مع المحيط، ولم يلق جواباً حتى الآن.

عُرفت الإدارة اختصاراً بمركز المعلومات، وأجرى عليه الأستاذ فاتح المزهد من الاختصار، فكان يشير إليه بالمركزه. لم يعلم به سوى القلة، كان مفسوراً، صلة الناس به تكاد أن تكون معدومة، فلا مراجعون أو شكاوى، ولا غرامات أو رشاوى. إذاً من أين تأتي الشهرة؟ كأنه من غير هذا العالم المنضم بالنعقبات. لم

ينظروا إليه نظرهم إلى مسؤول بارز، وإنما مجرد شاغل لمنصب، مع أن الإدارة التي يتولى تسييرها ذات سمعة جيدة، أي تسير وفق ما يرام وتقوم بعملها عبر قيام، مع أنها غير مستقلة. كانت ملحقة بمراكز تُعنى بالبحوث بعيدة المدى، تلك التي تتجاوز الحاضر إلى مستقبل يقدر بزمان لا أقل من بضعة عقود. أما لماذا هي موجودة وفي الوقت نفسه متوارية، فلأنها تقع في الظل أو في الظلام، لا سيرر لرؤيتها، وأي تسلط للأضواء عليها يخلق إشكالات لا داعي لها، فلم تكن مخولة، بإبداء الرأي، أو بإصدار تصريحات أو تعليقات.

كما أن الأستاذ فاتح لم يطنطن بوظيفته، مع أن عمله لم يكن لملء الفراغ كما يدعون، كان يقدم خدمات متعددة، لم تستغل على النحو الأمثل. فالإشراف على تجميع المعلومات عمل جبار لا يستهان به، يحتاج إلى جهود حقيقية، خاصة أن المعلومات تشمل كل شيء، ولا تستثنى مجالاً من مجالات الحياة المحلية والعالمية، من شؤون السياسة والاقتصاد والتسلح وشفوذ السياسيين إلى جنون البحر وألعاب الفيديو وورق التواليت، تُرَوِّدُ بها الجهات المرتبط بها بالدرجة الأولى، دون معرفة وجه فائدتهم الاستراتيجية منها وبالدرجة الثانية، الحكومة والصحافة، تستفيدان منها كوسيلة لإبراز معرفتهم وسعة أفقهم، مما يساعد على إثبات أمر أو دحضه، فيستغلها كلاهما لإضفاء الصلابة على إنجازاتهما الإيجابية، أو للتخفيف من صدى عثرتهما السلبية.

كان إنشاء المركز من جملة نتائج عظمى التحديث الشاملة لبني الدولة المتأكلة، لم تكن هناك إدارة شبيهة بها، ليجري تحديثها، فأشعث دفعة واحدة، أوصى بها مستشارون أجانب، كي تكون

بنكاً للمعلومات. لم يصبح حسياً مخطط له على الورق، وعانى من نوافض تفالمت لضعف إمكاناته المادية والبشرية مما لم يؤهله لتأمين ردود عاجلة على ما يردده من طلبات غزيرة، بعضها شخصي جداً، ينحو إلى التساؤل عن المفهومات الجنسية وأدوية تنشيط الناكرة ورفع مستوى الذكاء ... إلخ. كان المدير من فرط حساسية الطالب والمطلوب يتلقاها على الهاتف. وبسبب أهمية الطالب وإمكانية تأمين المطلوب، كان موظفو الإدارة يباشرون البحث فوراً، ولم يكن أكثر من تشغيل كومبيوترات توفر حجماً هائلاً من الاحتمالات المطروحة. وتوفر معها حيرة أشبه بالشلل من فرط غزارتها، ما أدى إلى استحالة الاختيار. فلم تحقق فائدة فورية، كما كان معولاً عليها. فرميت الإدارة بالعجز، وأصابها الكساح سريعاً، وتضائل التمويل المرصود لها. لكنهم حافظوا على الاستعانة بها، ولم يستغروا عنها، بعدما غدت من منجزات التحديث.

بتعامل الأستاذ فاتح مع ما يردده من معلومات بشكل مرن، فللمعلومة لديه، صفت أم كبرت، دلالة، أي أنها ليست مجرد إعلام عن شيء. تأتي قوتها كمعبر محايد عن أحوال البشر ونشاطاتهم، وتحولات الرأي العام وجرائم الدول. لم ينق بها ثقة عمياء، كانت كاشفة، وغير منزهة عن النقصان، وقد نشط، فتكذب أو تخطئ، إذ ليس بالوسع التأكد من صدقيتها بشكل يقيني، ولو انطوت على حقيقة في منتهى الواقعية، إذا قرأت بتأن، وفي حدودها الدنيا لا كنت بمعاني لا تنكر. كل معلومة تحتاج إلى مراجعة وتدقيق، وربما معالجة. ومع ذلك كان إيمانه غير الأعمى بها لا يعادله شيء آخر، إذ للمعلومة تليقات تفوق أية نوافض أو تكهنات، أو حتى تصريحات، ولو كان قائلها: «مصدراً رسماً مطلقاً».

نفسه الواسع لتأثير المعلومات، حوّل وظيفته من عمل روتيني جاف يتقاضى مقابلته راتباً شهرياً، إلى هواية مشوقة ارتقت إلى هواية أسرة. كان انتظارها وتبجح تولدها ونتائجها وتحولاتها وحفظها في البقاء أو الاستبعاد، لا يخلو من ترقب ومتعة، وأحياناً كثيرة من نفاذ صبر وشد أعصاب.

من خلالها رصد الأوضاع الحالية وما سوف تتمخض عنه من متغيرات قادمة نحو الأحسن، أو الأسوأ. لدهاؤه هذا، ناجم عن خبرة لا تكفي بقراءة المعلومة فقط، كان يتبصر فيها، فيهم أحياناً، إن لم توافقه، وبأساليب قراءة ذكية، وتحويل لا يقل عنها فطنة، بتحويلها نحو التفاؤل أو التشاؤم لاعتبارات رؤيوية، كان يتخيل نتائج فعلها، فهو أشبه بحلم في سبيله إلى التحقق.

في الأحوال العادية، كان أشبه بالعازف عليها، لا المتلاعب بها، فبلغ الفروء في أحكامه الاستباقية، مبرهنأ على صحة تقديراته، وكانت تتناول أوضاعاً داخلية، أو إقليمية تلقي بظلالها على المنطقة، وتمتد إلى البهت الأبيض وغيره من البهونات سواء الأوروبية أو الصفراء والسحراء والسوداء. واستطاع مراراً أن يبلي بلاء حسناً. فكان حجة في أمور يلقي فيها الآخرون جدالات مطولة على شاشة التلفزيون تغطي عدة حلقات متعشرة من الزمبح والبعين بغية إسكات الخصم، بينما يستطيع بحسنتين محكمتين إنهاء مناظرة الاتهامات المتبادلة.

لكن من يهتم لهذا القابع في إدارة مجهولة قد يتلعها السيان؟!

لم تطغى هواية جمع المعلومات على اهتماماته الفكرية المتأصلة المتنوعة، بل ساندت استنتاجاته الأكثر دقة. فأنخم محاضراته



بالأحكام المشقة، والأرقام الموثقة على الرغم من تجاوزاتها أو  
تقصيرها، استغلها لإضفاء الحمية على غاياته.

التوفيق لم يحالفه دائماً، كان إلهام المستمعين بالصدقية من  
فرط تكديسه للمعلومات والأرقام، يشتت انتباههم. مع أنه كان  
يؤلف بينها بالسمية وجرأة، فتخرج بحلة متجانسة بدعم بعضها  
من قبل الجمهور، أو يعرفونها شخصياً طغى لأهدافه.

لمختلف الفرقاء دون تمييز بين اتجاهاتهم. حسب قوله، كان حريصاً على استقلالته إزاء الجميع، الأصدقاء والأعداء معاً، ولا يهادن الدولة تحت أي ظرف. هذا ما حصه من الملاحظات والاستجوابات.

لكن وعلى الرغم من تشده، كانت علمانيته النوعية منتقصة بشكل فادح، فقد كان منفتحاً على الخيال بشكل سري واستتائي، خاص بشخص واحد، معتبراً هذا الخلل حقاً مشروعاً له، لا يعني سواه، ولا يمس جوهر علمانيته المدعومة بالمعلومات والأرقام، الشاملة للبشر والأديان والحكام والشعب والوطن والأقليات والحريات... عنا زوجته الراحلة.

لماذا استنى الأستاذ فاتح زوجته الراحلة من علمانيته الشاملة؟!

## الراحلة

لا يمكن فهم هذا الاستثناء، إن لم يؤخذ بالاعتبار، السبب الذي دفعه إلى عدم التخلي عن بيته القديم في الطابق الرابع، والواقع في منطقة شعبية كثيفة السكان، في نهاية بلا مصعد، وبلا خدمات، تفتقر إلى ناطور، أو امرأة تشطف الدرج!! كل هذه المنغصات، تنهارى أمام البيت المليء بتذكارات عزيزة على نفسه، لم تخل من الروعة ولا من التماسه، تكدمت طوال سبع سنوات من الأفراح والمناسبات السعيدة وأتراح من شدتها لم يميز فيها نهائياً أبيض من سلسلة أهام حبالكة السواد، أرغت بظلالها القائمة على غرفة النوم، وما برحت بعد مضي ثلاث سنوات تفوح منها رائحة الأدوية والمعقمات المعششة في الزوايا وتحت السرير، تتردد بين جدرانها أصوات الآهات وصرخات الأكم المشنجة.

أمر لن يخطر لأحد مهما كان رومانسياً، هو احتفاله الدوري

بذكرى عيد زواجه. فمثلت توفيت زوجته لم يتخلف عن الاحتفاء به، في مواعيد المحفلات، الأول من كانون الثاني، بعد أن يكون الناس قد أنهوا احتفالاتهم بقدم العام الجديد، وناسوا ملء جفونهم، ثم استيقظوا حوالي الظهر. عندئذ تبدأ استعداداته لحفله المسائي الخاص بإحياء هذه المناسبة السنوية بمجموعة من الجماليات الرقيقة، كانت المرحومة تتألف معها، براعي معالمها الكبرى، ولا يغفل عن تفاصيلها الصغرى، سواء الإضاءة الخافتة، أو الظلال المرتعشة والموسيقى الحالمية ونسمة خفيفة باردة تتلألأ من خلف الستائر، وبهاقة الفورد الجورني، وكزروس الكريستال اللامعة والشفافة، والشمعان المضي...

مع إعلان ساعة الحائط التاسعة مساءً، تستمد غرفة القعود حيويتها ورونقها، نسي كأنها تنفس، متأهبة لاستقبال الراحلة بسظاير وإن كانت متشفة، لا تقتفر إلى الحنان والمدفء. مكانها المجهود في انتظارها، بين أضواء الشموع، وصور الزفاف والنزهات والرحلات ونحف الصبي وأشغال الكنائس، وما يرافقها على الأطراف من إضافات متحركة، أو ساكنة على وشك الدخول إلى المشهد. فمن المطبخ تهف رائحة قالب الكاتو، والتلفزيون يث برامج، وعادة يكون سلسلاً للتلفزيونياً سورياً أو مسرحية كوميدية مصرية، ككبكرة الصوف تندرج إلى أن تصطدم بقائمة الترايزة، الصنارتان إلى جوار الكنية. ومن باب غرفة النوم المفتوح، تظهر علب الماكياج وزجاجات العطور الفرنسية أمام المرآة، المشوار على أهدبة التشغيل، ملبسها الداخلية والمشيدات فوق السرير، أروابها وفساتينها مكدبة معلقة وجاهزة في الخزائن، الفولارات بألوانها المتعددة، وشال الحرير الأسود والمخرم والمطرز... والأحذية، حذاء السهرة ذو الكعب العالي، والزحاف للمشاوير،

والمقصد للمناسبات ... مع لمسات مبعثرة برشافة نوحى بيد  
سنتد إليها وتختار ما تلبسه منها. وكان الراحلة لم ترحل عن  
بينها إلى غير ما رجعت.

ما كان يقوم به من ترتيبات، ليس لأن عيال زوجته يجد مرتعاً  
محصياً للظهور والتجوال بين معالم لم يقرأ عليها تغيير. لا، كان  
يعد هذا اللقاء الرومانسي، طقساً لا بد منه، يؤديه بكل عناية رغم  
عدم قناعته به، فهو لم يصادف عيالها على الإطلاق، ولم يلتق  
بها حتى في المنام. الأمر مختلف تماماً، كان من نوعية الرجال  
الذين إذا وعدوا وفوا. وتحضيراته، كانت تنفيذاً لرغبة نطقت بها  
عاشة عندما كانت بكامل صحتها، تُطمئنه إلى أنها لن تتركه  
وحيداً في العالم من بعدها، خاصة في ذكرى زواجهما، مهما تلبذ  
بها الزمن، وفي أي مكان كانت، فالتفتها مناسية تتجدد سنوياً،  
يختلي مع ذكرياته الزوجية وأيام مضت، يتخفف فيها من أحزانه،  
فكانت تبعث من جديد.

لم ترحل قبل أن تزرع في اعتقاده أنها لن تنساه في العالم الآخر،  
وأن الحياة ستبقى مستمرة بينهما طبقاً لمواعيد موقوتة ومناسبات  
محسوبة، ولن تبخل عليه بين الفينة والفينة بزيارات مفاجئة في  
الواقع لم تقم بها.

وعود تمتعت بها بلغة غير مفهومة، تمكن من ترجمتها وكان  
متأكداً من دقتها، ووثيقاً من استحالة الوفاء بها. كان يعرف  
بشكل غير قابل للنقض، أنه في حال كان هناك عالم آخر، فلن  
ينشغل مكانه بالتذكر ولا بالنسيان، وإنما بأسور لا تمت إلى  
عالمنا الأرضي صلة. كان قد أتكر العالم الآخر واعتبره خارج أي  
موضوع أو تفكير. فلم يقع تحت تأثيراته المتوهمة، وبالتالي لم

يحدث أي شيء غير عادي، ولو كان من بنات تخيلاته. ومع  
هنا كان يترك لعبة المسر الضيق المودبة إلى غرفة النوم منارة  
ليلاً، لكي تجد طريقها إليه بسهولة، هنا ما أصرت عليه، كم  
عقل النساء غريب؟!؟

في دخيلته، كان حازماً، لم يؤيد سلوكه السري، أو يدافع عنه،  
كان عاتياً على تنازلاته غير الواقعية ولا العلمية، إلى حد  
المصارحة الذاتية القاسية بأنه لم يكن علمانياً حقاً. فلم تنسج إلى  
هذه التمثيلية، أو يأخذ تلك الإجراءات التي باتت أثيرة إلى نفسه  
على محمل الجد، رغم الخطوات العملية التي حافظ عليها طوال  
السنوات الثلاث الماضية، كانت أمتة مخجلة على زهات عاطفية  
مشوية بروحانية مضللة. وكان واضحاً إزاء نفسه، ما يفعله كان  
احتراماً لذكراها العزيزة. ولقد ارتبط بهذه الرغبة، لسبب آخر  
عناده، كان يتشبث بأي أمل، ولو كان مستحيلاً، أو مضاداً  
للمنطق. ويجري على هذا الأساس حساباته بدقة، لا بهمل  
احتمالاً ورداً، وإن كان خيالياً وضعيفاً جداً، لو جاءت... وهنا  
أمر مستبعد، لما أعطأت غرفة القمود ولا النوم... طبعاً هنا لن  
يحدث، عندئذ تجده بانتظارها... هي أصلاً لن تأتي. ولتلا تتعثر  
بأية تغييرات... لم يبدل أسكنة الأشياء، مثلما بعض الإصلاحات  
التي أجريت في البيت، لم تمس غرفة القمود. هل تخطر على بال  
أحد هذه التراخي العاطفية؟

لا، لكنها تدحض سؤالاً مضاداً ومفجعاً، يتردد دائماً على سبيل  
الازدراء: إذا كان الوفاء نادراً بين الرجال في الحياة، فلم لا يكون  
معدوماً بعد الموت؟!؟

عاش فاتح قصة حبه الوحيدة مع زوجته الراحلة، والمتزم بها كما

يلتزم بذكره قيمة وسامية، وقد جعلتها زوجته مثالية بتصرفاتها اللطيفة والخبولة. اعتقد أنها تحبه مثلما أحبها. لم يعرف أن قصة حبه كانت من طرف واحد، قبل أن تصبح من طرفين. زوجته التي لم تحبه، لم تكرهه. كان الرجل الذي أنقذها من عنوسة بارد، لم تكن تزعمها، لكن سمعتها كعانس كانت تضايقها. عندما التقت به، أدهشها بعقله المنفتح، مع أنه كان وحيداً مثلها. قال لها إنه يحتاج إلى امرأة كي يحس بالعالم، فتذكرت العالم الذي قاطعته، وأرادت أن تعود إليه مسلحة برجل، فأوقعها في زواج كان سلباً بلا أولاد.

بعد تسببات عريضة زومت آمالاً في داخلها، بدت على وشك التحقق بواسطة محاولات طبية عديدة. غير أن الحقيقة المؤلمة، لم تتأخر. عائق الإنجاب المستحيل سببه هي، وليس هو، ولا علاج له. فعصف بها بأس كاد أن يدمر عش الزوجية. لكنها أنقذته برجاحة عقلها. أتوت بأنها لو تركت حياتها للشكوى، فلن تتوقف عساثرها، وتقبل صاخرة معاناة صامتة، بدت النهاية المحتومة لزواج بات بلا هدف، وضعها على شفا الضياع. لم تستمرى حالتها القانطة، إذا ضاعت نسوف تضيمه معها، اتخذت قراراً، لن تدع نفسها نهياً لحسرات أمومة مفتقدة عصبه المثال.

عادت حياتهما إلى سابق عهدهما، مع أنه لم يكرها مكره، كانت أزمتهما وحدها، ومخاوفها وحدها، وجرت بغفلة عنه. ولكي تتخلص من هذا الإيقاع الزوجي البليد، أدخلت تنوعاً شيراً على حياتهما، بتحويل البيت، وله يوم واحد من كل أسبوع، إلى ملتقى نسائي فكري رفيع المستوى.

## الملتقى النسائي

لأنت فكرة المنتدى الفكري صدى لربما لدى معارفها من النسوة. شجعها قاتح عليها، وساعدها بوضع تصور متكامل لها، انشق عنه برنامج وجدول أعمال يتناول موضوعات حساسة أدبية وفكرية متنوعة. بعد مناقشات مفضلة حلز ما طرحه على موافقتها. وسرعان ما تحلقت حولها صوبحياتها من الجامعيات السابقات، اللواتي أصبحن سيدات أعمال، موظفات، مرشدات، طبيبات، محاميات، مريات أجيال... وريبات بيوت. ألهظ الملتقى طموحاتهن، إن لم تكن الاجتماعية، فالسياسية، أو الفنية، أو الأدبية، أو على الأقل... المساواة مع الرجل، مع أن هذا الموضوع لم ينب عن نشاطاتهن الثقافية التي اعتمدت طرح قضايا راهنة عميقة، كانت تطبخ على عجل، وتناقش بقل وتزق.

استضاف الملتقى زوجها بصفته مفكراً ذا سمعة طيبة، فساهم



بهالقاء سلسلة من المحاضرات الأسبوعية حول موضوعه الأثير: العلمانية، حققت تفاعلاً طيباً، وتأثيراً ملحوظاً في السيدات المتزوجات والمطلقات والعازبات، فأضفن إلى تطلعاتهن النسوية، التحرر من الدين ونواحيه. فالدین كما تعلمته في المدارس أو رضعته مع الحليب، بضع عادات اعتدن عليها، ينهي إعادة النظر فيها؛ ما حرك نوازعهن الخفية، وفكرن قبل فوات الأوان بالتمرد على ما نشأن عليه من اعتقادات باطلة وقيم بالية مفرقة في التخلف تقمع إنسانيتهن، وتنعكس عليهن باضطرابات نفسية، تتجلى بمشئجات ونوترات واعتلاجات وتصرفات لاإرادية، أعراضها الغضب والسأم والبكاء والقرع من الزوج والأولاد، تبلغ الأوج في الإحباط مع معاد الدورة الشهرية.

استعدن الثقة بأنفسهن، لم تعد سوداويتهن وأمرجنتهن المتقلبة متاعب نفسية غامضة المنشأ، بات لها أصل وسبب، لا علاج لها، إلا في التكيف مع حياة بلا خالق، وأصبحت لديهن نظرات ونظريات في الفرد بإدارة شؤونهن وتنظيم أمورهن.

صار التمرد محل إجماع فيما بينهن، بعد أن تكشفت لهن حياة أجبرن عليها وزهقن منها، لم يُشبعن فيها عاطفياً ولا جنسياً، فمتنهن من تزوجن صغيرات، أو من أجل المال، أو اضطررون للزواج تجنباً للفضيحة، أو خشية من الوحدة والتقدم في السن... لم تكن واحدة منهن راضية عن زوجها ولا عن زواجها، حتى اللواتي تزوجن بعد قصة حب بطولية، ظهر أنها خدعة تبادلها طويلاً، فلا الحبيب حبيب، ولا الزوج سعيد.

بدت الحياة عريضة، رحبة وجذابة، مستجيبة لانطلاق أموج لا محدود، لا يخشى من عوائقه في العالم الأخر، عالم انتهزت

ركائزها، فلا جنة ولا نار، ولا رب يحاسبهن، أو ملائكة بالمرصاد لهن، أو عذاب في سعير جهنم. بينما هذا العالم من حولهن، ثابت بقوة على الرغم من دورانه حول نفسه وحول الشمس، هو الوحيد! وهذه الحياة السخيفة التي يقضين جلها بالنفقات مع زوج دائم التفر وأولاد عاتين، وبمشنها بسأم قاتل، هي الوحيدة! لا يوجد غيرها، وكل يوم يمضي، يتلاشى إلى الأبد، مثل غيره سبقه، في دنيا قد تكون ملعباً للمتعة أو مسرحاً للألام، فاختاري أيتها المرأة، أي حياة ترغين؟

في لحظة الإقدام ترددن، كانت النقلة من الفكر المحض إلى العمل المحض مرعبة غير مأمونة العواقب. بعد مناقشات حرة دارت في رؤوسهن، شكلت الشهادة الجامعية عائقاً، كانت الغيابة مستهجنة من حاملات الشهادات العالية. أضيف إليها السمعة المهنية، والمركز الاجتماعي، الأولاد والأقارب، فباتت مستحيلة، رغم الرغبة الجارفة.

غير أن المحك الحقيقي كان سرّاً، يكمن في الجانب الأعمق من الطابع الأنثوي المتقلبة التي لا يقف في وجهها استحيل، فتسترج أو لا تسترج حسبما يروق أو لا يروق لها، فتتراوحت عباراتهن طيفاً لها، فقلوبات الطبع الحزين بدت التعاسة قدراً لا فكالك منه، ومن العيب معاودة الكرة، ولو على سبيل النكاهة أو التجربة. والمتأملات، وجدن بعد طول تأمل، أن اضطهاد زوج تافه أسهل من تدليل عشيق سخيف. بينما الباردات، أملى عليهن برودهن فكرة صفيحة؛ لن يفلح الحبيب ولو اتسع له الوقت بضع سنوات، طالما الزوج أضعف طوال عقود من الزمن، ولم ينجح في بث الحرارة في أعضائهن!! والحاميات لن يخاطرن بأجسادهن بعد أن

ضبطن درجة سخونته وأصبحت ضمن المعدل الطبيعي المعتدل. أما الأسوميات، فلا فائض لديهن من الحب يمنحه لعاشق ولو كان طفلاً، أو على أبواب المراهقة. والتكيدات، إذا كان رفيق العمر رضي بنصيبه، فما الذي يجبر شاباً في أول العمر على تحمل عبوسه اللاإرادي، وثوران أعصابه الجنوني؟!

تراجعت الأغلبية (سبع عشرة امرأة)، وأقدمت الأقلية (عازبة وأرملة ومطلقتان) على التردد. ساعدتهن عباراتهن الجسدية غير المنتظمة ولا المنضبطة سواء من ناحية السخونة أو البرودة، وميوعة أمزجتهن رغم ما أصابها من غين قديم، تجلت بإقبالهن المنهم على العيش، مصحوباً بتلك الخفة واللامبالاة الملازمين للهنر الصريح من قوانين المجتمع! كان عرقها طرفة اتخذت شكل زلات جنسية، مبطنة بانتقام والهي يشفي القليل.

أطلقن على أنفسهن لقب: الرباعي المرح. هؤلاء اخترن البدء من جديد. ما جعل العلماني يظن أن دروسه فشلت في تحريض الأغلبية على كسر إيقاع حياتهن الرتيب. كما أن الأقلية المتفهمة (الرباعي المرح) كانت مخيبة، فهو لم يشجعهن على سلوكهن المنحرف هنا، كان يريد إطلاق عقولهن لا أجسادهن. لكن في العمل كانت أفكاره قد نجحت، وإن اتخذت تعبيراً طائشاً.

غير أن مغامرات الحياة الكبرى لا تبدأ في أواسط العمر، هنا ما كان متعارفاً عليه. فتوقع أن تجهض محاولاتهم. مع هنا بدأت، أو استأنفت، أو استمرت، مع ما تولفر لهن من شبان ورجال من مختلف الأعصار.

ضجت حياة الرباعي المرح بحبوبة خارقة، وجرى تنشيطها بالهالات الملازمة للفراميات المتأخرة من وصال وهجران وفراق، ما أضفى على العالم جدّة بنكهة حلوة ومطلونة ووردية أحياناً، وملتهبة غالباً، بلا أغلال عاطفية ولا موانع جنسية... وبلا كوابح، حتى أنهم لم يكبحن غرائزهن عن توجيهها نحو الاستحواذ على زوج صديقتهن المثقف، فبعد أن جرى استنزافه فكراً، عزم على استغلاله جسدياً.

لم تفت الراحلة نواها من المفضوحة الحاملة حول رجلها المفكر المهدب، لم تخش على دفاعاته الأخلاقية من الانهيار، كانت قوية، لكن الهجوم كما قدرت لن تصده القوة ولا الأخلاق، ما دام أن الشفقة سئلب دورها، عندما يهرجه بمأسبين المختلفة ودموعهن الكاذبة، هل يصمد؟ حسناً، شخصيته لا تفتقر إلى الصلابة، لكنها لا تخلو من جانب رخو، غير مضمون، وسيضطر لا محالة، لمرعاتهن لدواع برهة، علمانية الطابع.

أوفقت سلسلة المحاضرات، مع أنه لم يبق سوى الأخيرة منها، وكانت تحت عنوان «خلاصة واستنتاجات»، بحجة مضادة لجملة الاستنتاجات المتفائلة، وخلاصة متشائمة أوجزتها لزوجها، كانت تشخصاً متحيزاً وقائماً ضد بنات جنسها... لا شيء يعوق النساء عندما يردن، عن إثبات الفاحشة، بسوغتها لأنفسهن بأي مبرر، ولو كان واهياً، عندما يرغبن في رجل، لا يشتهن عنه رادع، ولا تتورعن عن ارتكاب المعاصي، يحسن أمرهن بلمح البصر.

أرجع إلى التاريخ، طالما حققنا إنجازات نشق على الذكور، وبرهن على أنهم، عندما يجد الجسد، أشد إلحاحاً وفجوراً من الرجال.

مع بداية الموسم التالي، حظرت على المحاضر دخول الملحق، أو

حتى إلقاء التحية على تلميذاته الجيات. فحول الملثى الفكرى، إلى ملثى للنسمة والقيل والقال، تلاك فيه أعراض الطليات المراهقات تحت العشرين، والفتيات الجامعات فوق العشرين، والنساء الناضجات الثلاثينيات والأربعينيات، ولم يوفرن الخمسينيات والستينيات، وجرى التشيع على الزوجات المخلصات والأمهات الرزومات. فأقدمت على تعطيل جلسات الملثى مؤقتاً، لكلا بصيها ما أصاب غيرها على ألسنتهن. احتاطت لسمعتها قبل أن يأتي دورها، فقد كانت زوجة وفيه مخلصة لزوجها.

لم يدرك رباعي النسوة المرحات نعمة التوقف المؤقت، إلا عندما لم يكنهن باسثمار المحاضرات فكراً، بل وزمناً أيضاً، فضاغن جلساتها الأتراضية، وجرى استغلالها حجة للغياب المتكرر عن منازلهن. واسترحن من أزواجهن الأشرار وأولادهن المشاقبين الصغار والكبار، تركنهم لعناية السبرلانكيات والإنفونيسيات والغلبينيات، ووفرن على أسرهن الكثير من النكد والشجار وتكسير الصحون. وانتشرن في أرجاء العاصمة، يسرحن ويسرحن في غرف البيوت المتأجرة.

بعد تعطيلها المؤقت للملثى، عاجلته بتأجيل مديد على أن يعاود أعماله في الموسم القادم. لم يكن التأجيل مديداً، كان دائماً الموسم القادم لم يأت على الإطلاق، فأغلق الملثى ولم يستعد نشاطه. كان بعض النسوة الأعضاء، كما قالت لزوجها، تحت المستوى، متخلفات، يعانين من أمراض اجتماعية بالفة الهمجية والقدم، ما قبل الحضارة والتحضراً قبل أن تكثفى المرأة برجل واحد.

الفصل الأخير لم تعش لثراه، فصدقاتها المغامرات بعد أن أطلقن  
 لأنفسهن العنان، لم تكن مغامراتهن موفقة كلها، كانت في  
 تحذره لعب عامل السن الدور الأكبر في انحطاطها، وترهل  
 الجسد الدور الأبرز في إعيائها. فعانت غرامياتهن من عيبات

تختلفان... في... في...

## جولة خاسرة مع الموت

لكن من قال إن السعادة تدوم، والهناء يستمر؟! مطلع العام الجديد، الأول من كانون الثاني، تاربخ لن ينسأ أبداً ما دام حياً. في الليلة الغائبة سهر مع زوجته بمناسبة رأس السنة الميلادية، وفي تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً تبادلوا القبلات والتمنيات بعام جديد سعيد، وذهبا إلى النوم. استيقظت زوجته صباحاً، وأعدت تعد للحفلة التالية، عيد زواجهما السابع. وكانت تسبح لهتماً خاصاً لدلائك على استمرارية علاقتهما وترسخها، بينما عيد اليوم الثالث، يذكرها بتقدمها في العمر.

عند الضحك ليست ملابسها لشكري ما يتفحص المائدة من لوازم المقبلات: بقدونس للتبول، وطحين للمعجنات، وفطر للبيتزا. نزلت من البناية وتوجهت نحو السوق، وهي تقطع الشارع إلى الرصيف المقابل، انكسر كعب حذائها العالي، فتعثرت ووقعت

على الأرض، حاولت النهوض، صدقتها سيارة مارسيدس سوداء مسرعة، لأذت بالفرار. تبرع بعض العاهرين ونقلوها غلابة عن الوعي إلى مستشفى الحواسية القريب.

استيقظ فلم يجدها، قبل يومين فكر بهدية لها بمناسبة ذكرى عيد زواجهما، كان قد أعجبه مشبك من الألماس وأنه في سوق الصاغة، لم يكن غالي الثمن كثيراً، فعزم اليوم على شرائه. لدى خروجه من البناية أصغره ولد صغير يلعب في الشارع، أن زوجته دعتهما سيارة، فاتطلق كالمجنون إلى المستشفى. وجدها مسجاة خارج غرفة الإسعاف، امرأة ذليلة ملقاة على الرصيف.

كانت قد أدخلت إلى المستشفى، وأخرجت منها. الممرض المناوب فحصها، وخاف أن تموت بين يديه، مع أن صغرها كان يعلو ويهبط بانتظام. أمر فاتح على إدخالها ثانية، خلال المشادة بينهما، حضر الطبيب المناوب، بفرك عينيه من آثار سهرة البارحة، وشوشه الممرض المناوب، فأصر بدوره على أن يعود بها زوجها إلى البيت لتموت هناك، أو ينقلها إلى مستشفى آخر. بعد صراخ وضجيج، سمح الطبيب بإدخالها إلى غرفة الإسعاف، ريثما ينقلها زوجها بسيارة أجرة. لكنه عاد مدججاً بوساطة ثقيلة، استنجد بها، عن طريق أحد معارفه، فاستنفر المستشفى وانتزع الأطباء والممرضات من بيوتهم، وأطار عبد رأس السنة من رؤوسهم.

بعد إجراء الفحوص والتحليلات، وعده الأطباء غيراً، لكن طبيباً شاباً متحرناً نصف سكران، لم يعرف بالوساطة ولا بالضجيج، تجول بين الأسرة مساء، فحص المريضة وقرأ التحليل، قال له، اسمع مني، زوجتك لن تعحو أبداً. فلم يصدق، والحة العرق



تفوح من فمه، سهرة عهد رأس السنة ما زالت تدور في رأسه، لم تنفض بعد. كان متبهجاً، الحياة مشرعة أمامه، وواعلة بشهادات التخصص والثراء وحفنة من السرحدات، وزرافات من المرضى، أغلبهم سيثني، وبعضهم سيموت، مثل هذه المسجاة، مع أنها مفتوحة العينين، كانت برأيه، أنموذجاً غير قابل للشفاء.

لم يأخذ بتشخيص الطبيب السكران، فهي لم تكن غائبة عن الوعي. كانت صاحبة، وبأسوأ الأحوال كانت بنصف وعيها، وما عليه سوى الانتظار، لتسرد نصفه الثاني. بل وكانت تتكلم، وإن عن غير تبصر، لا يفهم أحد ما تبرر به، كلماتها عمهات وغمضات وغرغرات وعريف أسنان.

بعد شهر من العلاج المديد اللامجدي، تصحوه باستشارة طبيب أعصابي من عارج المستشفى الحكومي. استدعى طبيباً أعصابياً من مستشفى خاص، فحصها وعلق على حالتها بثقة، ثمة أمل كبير. ونقلها إلى مشفاه الخاص. تحت إشرافه بذل مجموعة من الأطباء جهداً عارفاً، واستماتوا في إبقائها صامتة تتنفس نائمة بحسن، كي لا تصرف طاقتها على كلام غير مفهوم، وإن كان نطقها قد تحسن، وبدأت حسب تبدلات ملامح وجهها تحكي قصصاً، كلماتها متفاعلة وأحرفها مدغومة، أشبه بشغاف الخراف وتيق الضفادع. لم تكن تحاكي الحيوانات، كانت تسرد قصصها الحزينة بأسلوب موجه.

لم يفهم فحواها، إذ لم يظهر بجملة واحدة مفيدة ذات معنى، وإن أحسن بما كانت تقاسمه مما احتلظ عليها من ناحية الزمان والمكان، كانت تعيش في زمن لا يشبه الماضي الذي جاءت منه، وسكان أساعه لا يزيد على بياض السقف؛ لم تألف بعد ما

نراه وتسمعه. تشخيصه لحالتها، أنها لم تستوعب وضعها الحالي،  
لعلها فوجئت به.

كان كل يوم يمضي، يكلفه دفع آلاف الليرات، ما اضطره إلى  
بيع قطعة أرض ورثها عن عمته. مع الوقت راوده الموساس  
الخناس، هذا ليس علاجاً، وإنما إطالة لعذابها بالسيرومات  
والفيتامينات والمهدئات والمسكنات... كانوا يستنزفونه مالياً،  
يطلبون دفعة مقدماً، يقبضون، ثم يحفظونها بالأدوية، ويجرون  
التصوير والتحاليل، بعدها المراجعات والاستشارات... ثم دفعة  
مقدماً.

عجائب المصادفات، وربما الأقدار، سوف تفعل فعلها.

وحسبما جرى، أسهمت في الفعل ذاته، كما يبدو، وسائل الإعلام  
بقلتر مرئي ومسورة. فمثل زمن بعيد، اقتحم التلفزيون بأشكاله  
الإخبارية الصباحية والترفيهية الطريفية، والشهرجية غير اللطيفة،  
البيوت الأهلة بالسكان، من جميع الضيقات دون استثناء. ثم منذ  
زمن غير بعيد، دخل إلى الأماكن العامة كالمقاهي والبارات  
وغيرها من المحلات المظلمة والمفتوحة التي لا يتصور أن يكون  
لهذه الأجهزة مكان فيها، خصوصاً المستشفيات، فالحرص على  
راحة المرضى وسلامتهم يتطلب الهدوء الكامل والسكينة المطلقة  
وعدم التدخين. غير أن التلفزيون تسلل إليها، محملاً بالأفلام  
والمسلسلات وبرامج المسابقات ومباريات كرة القدم، مع أنها  
تؤثر الأعصاب، ونسيء إلى حالة المريض من فرط الانفعال،  
لكنها تسلي مرافقه وتسيهم همومهم وتصرف ذهن المريض عن  
الأمه. أما البرامج الدينية المتنوعة، بالرغم من أنها غير مسلية،  
وتتطلب التركيز، فلاقت إقبالاً أعلى مشاهدتها في المستشفيات،

كانت تعود بالفائدة على المرضى، أصحاب الحالات المستعصية الذين لا يرجى شفاؤهم.

وبما أنه كان علمانياً مثبوراً، يخوض معركة حياة أو موت في مستشفى مجهز بألات ضخمة كهربائية، وأدوات صغيرة، دقيقة ومعقدة، وأطباء مؤهلاتهم مستمدة من العلم وحده، لم يفتح التلفزيون إلا على البرامج العلمية والوثائقية، كان رأيه بالبرامج الدينية سلبياً، لعدم ثقته بما يروجه الدعاة حول القدرة العلاجية الربانية، ولا عندما يقومون بأداء دور تبشيري في التحريض على العمل الصالح.

صباح أحد الأيام، وكان قد دخل لتوه إلى غرفتها ليطمن إلى أنها ما زالت تنفس بالمثل بنفسه، وتشكلم باللغة الحيوانية المتروجة ذاتها، سمع صوتاً صادراً عن التلفزيون يتلو القرآن: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ كان الحقرئ يجلب سمعه في هذا الوقت المبكر من النهار الذي يخلو من الأطباء والمرضات والزور، إلى أنه إذا سأل الله شيئاً فسوف يساعده. وبما أنه لم يكن معنياً بمرض المساعدة، أخلق التلفزيون دون تهاون، شيئاً نعتته في علمانيته الله لا علاقة له بالطب. مع أنها، أي علمانيته، تراجمت حديثها وأصابها الوهن، بعد انتظام ترده على المستشفى، وانتظام وضع زوجته على حاله، ومواساة الأقرباء له بأن حياتها بين أظاف الله.

سواء اليوم نفسه، وهو في المطبخ يجلي الصحون المتراكمة، والتلفزيون مفتوح على قناة لا على التعمين، سمع الحقرئ يتلو: ﴿وَإِنَّا زَيْنَبُ الْأَعْرَابِيَّةِ أَشْتَجِبْتُ لَكُنِّي﴾، فتخيله انتهاز فرصة وجوده وحيداً في البيت، وكرر عليه نداءه الصباحي، وكان في صوته

ملائمة أشبه بالتفريع، تدحض رأيه في لا جدوى الطلب والدعاء. وإذ أعاد المقرئ الآية ثانية، بدا وكأنه يدعو إلى التجربة، وفي انتظار مبادرة منه.

دعاه شعور غريب، أخرجته من الوجود العادي، إلى وجود عارٍ من الأشياء، كان فيه خفيفاً وهشاً، وأحس أنه قابل للكسر والتهشم. لكنه صرف نظره عن الخفة والهشاشة، وارتد إلى الوجود العادي. ما زال أمامه الكسر من الجلي والمسح والتنظيف.

صباح اليوم التالي، لفتت نظره لافتة، فوق سرير زوجته، داخل إطار خشبي مزخرف نُكِبَ عليها أية كريمة ﴿وَإِذَا نَزَعْتُمْ قَبَائِرَ النَّاسِ﴾ حدثت الله باللمات هو الشافي. وأمين...؟! في المستشفى المشتق اسمها من الشفاء. فتعجب من هذه المصادفة، لأنه لم يلاحظ اللاحقة من قبل، مع أنها كانت موجودة!!

لم يؤولها من ناحية تواضع الطب المحلي أو عجزه، أو أن الأطباء يؤمنون بقدره الله العجائبي، ولا أن المستشفى تخلي مسؤوليتها من المرضى الأموات ضحايا الخطأ والإهمال وتعلقها على مشقة الله، وكان اعتمادهم عليها كبيراً من هذه الناحية. استشف من الآية، أن المستشفى عبارة عن بناء مجهز بأسرة للنوم، والإجراءات الطبية أمور شكلية، لا تعدو سوى وسائل يعمل الله من خلالها، وهو وحده المتخصص بشفاء المرضى والمعاني بلا منازع.

هذا الإلحاح الغيبي، لم يقدم إشارات، أفرطت في دلالاتها وتجلي معانيها، لم تكن برأيه سوى مصادفات روتينية، بيد أنها لم تتوقف.

ففي المساء، ظهر في التلفزيون مذيع ظنه يقدم برنامج مسابقات،

وشاب ذو وجه باسم يجلس بكل أدب مواجهته، المذبح يسأل والشاب يجيب. بعد حين ظهر أن المذبح مقدم لبرنامج ديني، والشاب داعية، خدعه بلقته الحليقة وبالله المنشأة والبنامة لم تغادر وجهه. وكان يشرح الآيات التي سمعها في اليومين الماضيين!! بينما مقدم البرنامج يشهد بين الفينة والفينة، يعلم الداعية الوفير وتبرعه بتفسير يُسر أمور العباد ولا يُعسرهما جزاء الله كل خير.

أدار فاتح رأسه عنه هارباً بسمعه نحو الجدار، لم يعد عرضة لمناوشات من الإشارات والتلميحات، وإنما إلى نصف مركز، يقوم به الداعية غير قيام، ولا يترك للمشاهدين أية حجة من سوء الفهم، كان الكثيرون منهم لا يعرفون التفسير الصحيح للآيات.

لم يكن يشرحها بشكل عام، كان يتعرض إلى حالته بالذات، ويخطبه شخصياً وكأنه مكلف بطرح هذا الموضوع الحساس مباشرة، ويطمئنه إلى نتائج المضمونة، من خلال حالة مشابهة تماماً. فمن ناحية، المرض المستعصي والطب العاجز، وفي الناحية المقابلة، الشافي الأعظم، إذاً لا شيء يبرر اليأس.

«ياك أن تقنط من رحمة الله».

كان الداعية يوبخه، وفي الآن نفسه يرفع من معنوياته. كان علي اطلاع كامل على حالته الهائسة، ويعرف ما سوف يكون سؤاله:

«هل يستجيب لي إذا دعوته؟».

ويعرف أيضاً بأن السائل ربما كان لا يصلي ولا يصوم، فيهدف

«لا تخجل، ارفع يديك يا أخي واطلب منه، لن يردك خائباً.

ثم يودف عنها بحدة:

«أنت لا تطلب من البشر، بل من رب البشر، الله الغفور السامع والكريم، لن يخجل عليك. يقول نينا: الله حي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه، أن يردهما صفراً خاليين».

فقد فاتح السيطرة على نفسه، ودب الخشوع في صدره، لم يترك له الداعية حجة، الله سخي في الغفران. جهد في منع نفسه من اليكاه، لكن الدموع طفرت من عينه غزيرة، بللت وجنته. كانت مأساة زوجته قد حضرت بكاملها، الغيبوبة والآلام والعصت والخمضيات، معها العلاج المنبجها والهدوت الرشيد،

من أجلي زوجته مع العمين، وكان عملاً مقدماً وجريماً، بل ومشهوراً، فهو لم يكن متديناً، ولا يؤمن بالأديان السماوية ولا الأرضية. قدم تازلاً جوهرياً وجدياً، فأمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وانفقا بجهد عملي، دارم على أداء الصلوات الخمس بأوقاتها، ودفع الزكاة على أصولها، وصام شهر رمضان بكامله، وعزم على الحج إلى بيت الله الحرام.

كل هذا لقاء معجزة صغيرة من الخالق، القادر على إحياء العظام وهي رميها، لم يطلب أكثر من ألا تموت زوجته التي تفانم حبه لها، وتخيل أكثر من مرق، أنها نهضت، أو ستهض، كأن شيئاً لم يكن، بينما كانت تنوي ببطء ويتحول حسنها شحوباً. لم تحسن حالتها، كانت تتأخر، ما الذي يجعلها تقاوم على الرغم من هزالها؟! هذا أن المعجزة القادمة ستحل في الثروة من مرضها، وسوف تكون متكاملة.

على فراش المرض كانت أقوى من الميتة، وهي تتحول إلى شبح على أصفر اللون ذي عيين في منتهى الألق الحزين. فجأة تسبت وانتفضت، وأعدت تصرخ من شدة الوجع، كان الألم يطحنها. تجمع الأطباء حولها مستغربين، ثم اتفوضوا عنها وهم أشد استغراباً لا أمل، وطلبوا منه نقلها إلى البيت.

غادر المستشفى مزوداً بحفنة من المسكنات والمهدئات والمعقمات، وعاشت أيامها الأخيرة بين النوم العميق والآلام المبرحة، تطلق نداءات، كانت رجاءات غير غامضة، تكهنها لم يكن صعباً، بعدما أفلحت في تركيب جملة ذات معنى، جملة مفيدة كانت مفاجئة، تمت فيها الموت، بعدما لم تكف عن طلبه.

إلى أن استيقظ ليلاً على صرخة ألم مجنونة اعتزت لها جدران غرفة النوم. تحت الضوء الزاوي كانت غارقة في عرقها ودموعها. احتضتها وبكى. كانت تشكو بصوت مطعم بفرغرة روح تتحسرج في حلقها كأنها هدبل الحمام، تستعجل مبارحتها الأرض والانطلاق إلى السماء. وقضت بقية الليل بين ذراعيه تنقلب بين الصراخ والهدبل.

في الصباح، تذكر التاريخ الذي يجب ألا يتعب عن باله أبداً. الأول من كانون الثاني، بداية العام الجديد، كان عيد زواجهما، وتاريخ وقوع الحادث المشؤوم. ألم يتصادفا في اليوم نفسه؟ إذا كان قدوم المصادفة الثالثة، وأن وقت رحيلها. وتضى لها الموت، مثلما كانت تمناء.

مسح وجهها بالماء واستجد بالله:

«اللهم أعننا على سكرات الموت».

فأعانها الله، استسلمت للموت بعد صمود سنة كاملة، وكان هذا آخر عهده بالدين.

حسب اعتقاده، الله عزله، فانقلب على الدين وحشله عجزاً مطلقاً، وأضر له عداء لا حدود له. ولام نفسه على نواظفه معه كعزاء لا يجدي، وارثكابه عيانة لا داعي لها، لم تكن إلا من أجل محبوسته، ومن يومها أصبحت حربه ضده معلنة وبلا هوادة.

وإذا كان قد آمن لبضعة أشهر، فلم يطلع على سره سوى القلة من الذين كان يصلي معهم حاضراً صلاة الصبح في جامع الزهراء



القریب، وكانوا یجهلون وجهه الآخر، كذلك المخیر الذي أخبر  
 فرع المخائرات. كان إيمانه خفياً، ثمه الياهظ، عناه كتمانہ.

عندما ارتد، عاد أكثر إلحاداً مما كان عليه. فأنكر الله واليوم  
 الآخر وكذب الرسل والأنبياء وجمد الكتب السماوية  
 والمعجزات.

## الخبير ... من هو؟

عقب عودته بعد أقل من أسبوع إلى العراق، وانتظام عمله، حركت فضوله زيارة الخبير الشاب الموعودة. فرره، لن يقابل شخصاً يتميز عنه بأنه مجهول. استعداداً له، أعضعه قبل اللقاء به، لعملية تجميع معلومات واسعة النطاق. كان الأولى بالحصول عليها، بعدها، سحرف عنه أكثر مما يحرف الخبير عن نفسه. غير أن التكم حوله كان شديداً، لم ترد عنه أية معلومة في السجلات الرسمية المتداولة. واضطر أكثر من مرة خلال تفصيلاته عنه إلى الجواب عن سؤال يتعلق بالحادثة:

«ما الذي جرى لتفضيتك، هل كانت إرهابية؟».

فيخفف من وقعها:

«كان السحرف أمل إلى اعتبارها ناجمة عن خطأ ارتكبه الفاعل».

إلى أن سأله عن أحد معارفه الذين جاؤوا ليطمئنوا عليه، وكان على صلة بكواليس السياسة، وزراعات المسؤولين التجارية والمالية، وتنافس أجهزة المخابرات. فاستغرب:

«الخير سليم!! من يكون؟!».

«هو الذي تولى الإشراف على قضيتي».

لم يعرفه، فوصفه له. عندئذ تذكره، قال له بأنه يجهل اسمه الحقيقي وعمله الرسمي، لكنهم يلقبونه بالشاب النابغة.

بعد أن أمسك بطرف الخيط، لم يقعد مكتوف اليدين، سأل عنه في معرض تبادل المعلومات مع مراكز الحل والربط العليا والسفلى. وهو أمر وارد، فمن طريق بنك المعلومات، كان الجميع يسألون عن الجميع. كان البنك سمراً اختيارياً، لكنه الوحيد، يلجأون إليه للاستطلاع، حتى من دون أن تترس الحاجة إليه، فكيف إذا مشت؟

عادة لا يدخلون بما عندهم، تلك مسؤولية وطنية، الاستفسار عن شخص يعني على الأغلب أنه ميدان سلفاً، أو تحت التحقيق، أو مهدد بالطرد أو السجن، عموماً قضيتهم ميؤوس منها، فينكثرون به، يزهدون وضعه سوياً، ولا يوفرونه من الأقارب. ومع هذا لم ينالوا من الخير الشاب، بل امتدحوه على نبوغه اللامت.

الخيط نفسه سيغوده إلى أن الشاب لم يلقب بالنابغة لشدة ذكائه، وإن كان ذكياً فعلاً، وإنما لأنه يحظى بدعم كبير من عدة جهات أمنية.

«يراعونه لأنه متشدد أكثر منهم».

فلم يكن فرارهم عبثاً بتزويده بصلاحيات واسعة في معالجة بعض القضايا، أو ككلوا إليه ما يُخشى أن يثير الثمرات الطائفية، أو الحساسيات الحزبية والترائيبات الوظيفية، لا يُكلف إلا بالثباتك منها، مما يخص أطرافاً نافذة في الدولة. فتسند إليه، لكي تأخذ العدالة مجراها.

«طبعاً، دون أن تقصد العدالة بالقاتل».

أو تبلغ الحقيقة مقصدها.

«ودون أن تقصد الحقيقة أيضاً».

وإنما لتلا يعرف أحد سير التحقيق أو يتلاعب في نتائجه. أما إصدار القرار النهائي، فيعود إليهم وحدهم.

كان الخبير سليم على قدر هذه المسؤوليات الجسام، وأحرز نجاحات لم تكن شكلية، وفصل في قضايا كانت سياسية، فإذا بها جنسية، أو عقائدية، أو مالية. فأبطل الكثير من الادعاءات والمزاعم، وأوفر صدور الكثيرين ضده.

أما عن خبراته، فقد أجرى عدة دورات في معاهد ومراكز سرية متخصصة بمكافحة الإرهاب، كانت وظيفته من نهار التعاون الأمني بين أجهزة المخابرات حول العالم، بمعزل عن الخلافات السياسية. ما أقله ليكون أحد القنوات التي ربطت المخابرات المحلية بمخابرات الدول الكبرى، وحاز على ثقتهم رغم ما أصاب التعاون فيما بعد من خلاف وتعتش وتبادل اتهامات. والآن يمثل الفئة الأكثر فاعلية ورتياعاً بالنسبة إلى الأوروبيين والأمريكان،

فناه لا تطلق، وإن قيل إنها أغلقت.

«هنا لا يتم إلا بموافقة الأطراف كلها».

وما زاد في مؤهلات الخبير الناهية، وعضد موافقه، وطمانتهم إليه، إخلاصه في عمله. كان على الرغم من انخفاض التوتر بين الدولة والإسلاميين، يطارده الجماعات الأصولية دون توقف، ليلاً ونهاراً، ويحتفلهم على الشبهة، بسيطة كانت أو تافهة.

«لا يعني هذا أنه بلا قلب، أو بقلب من حجر، قضيا الإرهاب لا تعرف بالقلوب ولا بالمشاعر، ولا مكان لها في الملاحظات وتحت القصف».

«إذا تسامح رؤسائه معه، فليس لأنه يتخانى في أداء واجبه».

«الجميع يتفانون في عملهم، أما هو فيخالي في أدائه على أكمل وجه، بل وأكثر».

«أما سر كراهته الصالح بها للإسلاميين...»

«فيحتفظ به لنفسه، بعد تجربة قاسية دمرت حياته لفترة من الزمن».

«كان يجاهر بأنه لا يرضى بأقل من القضاء عليهم، عن يكرة أيهم، ورسالهم إلى الجنة التي يطمعون بها، وقبلها الجحيم التي سيصلهم نارها».

«هذا الحقد ربما من جراء صدام قاس معهم».

وسوف يبقى قتاله معهم، كما يقول، إلى يوم الدين، أو يوم الحساب، أو يوم الحساب، أو يوم اللاشيء... حسبما يدعون ذلك اليوم.

ما توصل إليه الأستاذ فاتح، لم يكن كافياً، كان قليلاً. فيما بعد سيرك أنه كان كثيراً، وأكثر من كاف، وإن اختلف إلى التفاصيل.

## العلماني ... من هو؟

على الجانب الآخر، أجل الخبير سليم زيارته للأستاذ فاتح، وكاد أن ينساها لولا أن علم بأنهم في بنك المعلومات يسألون عنه (الأستاذ المفكر، من يكون سواه؟! ). فقرر تنفيذ وعده، وأخذ يحضر للزيارة. لم يشأ التورط بالمعطيات القليلة التي زوده بها رؤسائه، أو تلك التي اطلع عليها في البرقية، لا بد من المزيد. بالنسبة إليه، لا يحتاج إلى أن يكون لديه بنك للمعلومات للحصول عليها، لديه وسائله.

لم يطل الوقت، سرعان ما تواردت فأخذ يستعرضها ويقلبها على أوجهها، فقد كان لها أوجه:

الأستاذ فاتح مفكر محترم، لم يبع قلعه لأية جهة، مع أن يبيع الأفلام والمقول للدول الغربية والتغطية أصبح سائداً تحت عناوين درجئة، صحافة حرة، مراكز أبحاث، لجان حقوق الإنسان،

جميعات نسوية، جماعات الدفاع عن الحريات ... إلخ. ركب الموجة المضادة للإرهاب دون مقابل مجز، سوى هذه الوظيفة التي لا تغني ولا تسمن من جوع. ندد في محاضراته وكتاباته بالأصوليين وعملياتهم الانتحارية؛ هذا بشكل عام. وبشكل خاص، لم يهمل خلفياتهم الماورائية، أي ما يمكن من أسباب غير مادية وراء أفعالهم المتطرفة. فحلل بعين شخصياتهم المتشددة، واكتشف أنهم يكرهون الحياة ويمشقون الموت، ليس عشقاً محتاباً، فالذي يفجر نفسه، يستقبله الرسول عقب تنفيذ العملية مباشرة، ويأخذه إلى الجنة ليشرع في النعيم، فأكل وشرب ما لذ وطاب، ويمارس الجنس الشفاف مع مجموعة من الحوريات من ذوات الأجساد البلورية. الأستاذ فاتح لم يقصر بهم، فضحهم بأن الواحد منهم كي يذهب إلى الجنة يرسل بالعتات إلى الموت.

لم تهزه هذه المعلومات عن الأستاذ فاتح، أو تدهشه شجاعته، ربما لو قرأها غيره لتساءل، أما زال بنعم بالحياة؟! هذا كلام جراند، أما الواقع، فيقول إن الأستاذ الجريء لم يكن جريئاً، الأمان الذي وفره النظام، سمح للأطراف كلها أن تتناقش بواسطة الإنترنت مع بعضها وتكذب على بعضها وتشتبم وتتهم وتزول وتكفر بعضها... بعضاً، دون تبادل إطلاق رصاص. ساعد على ذلك، ما يفصل الداخل عن الخارج من حدود ومسافات، استغلها الأستاذ فاتح، وكانت مواتية لمواقف جفرية كهذه.

كما أن الأستاذ المفكر، لم يصف جديداً، انتحل هذه الاتهامات الرالجة، من فقهاء الأنوار الغريبة التي ما زالت تضيء من بعد قضائها المنطقة الكبرى، وترغب في تفجير أزماتها المستعصية، بتقسيم المنطقة ثالثة، بدعوى خلق شرق أوسط جديد. وكان من بعض



منجزات مستشاريهم، نظريات اعتبرها الاستشهاد هو الموت  
التحلاً، اجتاح المنطقة بفعل انتشار الأفكار الأصولية وسريان عدوى  
التطرف، كحرض إسلامي محض، نتاج دين يحض على التخلف،  
يحتمه من التمدن، ويحرض أتباعه على العنف، ولا يحثه على  
المنطق. تفسرات وجدت طريقها إلى كتابات المثقفين والصحافيين  
المحليين عشاق الحياة الحلوة على الطراز الأمريكي، كررها الأستاذ  
فاتح بشكل ملطف. فكانت حتى جرأته محسوبة.

لو كان جريئاً فعلاً، لما تجاهل هو وأمثاله، أكثر من سؤال: لماذا  
لا يتحرون، لماذا لا يكرهون الحياة، لماذا لا يحشون الموت؟  
لكان أجدى لتفسير أحقادهم وجنونهم.

أخذه طلب المعلومات عن الأستاذ فاتح بعيداً، أبعد مما يجب أن  
يتوقع، مع أن الأسئلة الأخيرة، لم تتركه، بالعكس فليحشوا الموت  
ويذهبوا إلى الجحيم. فالأمر لم يكن الحب أو الغرام، بل السلطة  
والسلط والانتقام.

أزاح ما وصله من معلومات جانباً، كلها لا تعني شيئاً، إزاء ما  
حفلت به الرقبة المحسولة بالبد. ماذا إذا كان ما أبداه الأستاذ من  
نشاط في الجرائد والمراكز الثقافية والمنتديات، مجرد غطاء  
وتسويف؟! وماذا لو كان يدعو لأفكار أقل ما يقال عنها بأنها رافضة  
للإرهاب وأسلحة السياسة وتسييس الدين، لكن في دأخله يخفي  
حقيقة مخالفة؟ حقيقة أثبتتها إحصائيات لشاهد عيان محترف، نقل  
ما رآه بحفاظيره، وإذا كان هناك بعض الزيادة، فلن تبلغ الصلاة  
يوماً، طوال أشهر عتف، عند الفجر في جامع الزهراء.

وما يسرعي الاهتمام فعلاً، أعتاده من العلمانيين لا يقلون عن

أعداه من الأصوليين. أليس الأولون من فصيلة نفسها؟ لماذا لا يتقون به؟

هل يُظن الأستاذ العلماني الإيمان ويُظهر الكفر؟ احتمال كبير، وربما أكيد، وعلى هنا علمانيته استعراضية. وحتى إذا كانت حقيقته المؤقتة، فكم مستنوم؟! ومتى سينقلب عليها، وبفضل عالماً إلى مولاه الأصولية؟ لقد فعلها كثير من اليساريين والتقدميين السابقين.

حسب الإخباريات نفسها، سرعان ما ارتد عن أصوليته، كما ادعى شهود عيان فيما بعد. في هذه الحالة، لن يختلف استعراضه اللاحق عن استعراضه السابق، إلا في تعمله ظاهرياً تصوير نفسه شهيد العلمانية المرتقب، والمستهدف الأول من قبل الأصوليين، تمثيلاً وليس فعلاً، وهو الحد الأقصى لطموحات الدنيويين، لن يتجاوزوه إلى شهادة لا تعني في أحسن أحوالها سوى الموت. بينما احتمالية لا تزيد على صدغ متورم وقليل من الدم، تذهب به الحادثة من المستشفى إلى الشهرة. لكنه قوّتها عليه، وأرسله إلى البيت.

على كل حال، كلتا الفرضيتين تحت الفحص ومدعاة للتساؤل. إذا كانت إحداهما أخطقت، فهل الأخرى في سبيلها إلى التحقق؟

## دراما متقلبة

لاقي الخير سليم بعض الصعوبة في العثور على الإدارة، لا لافتة  
تدل عليه ولا إشارة تقود العار، رغم أنه عرفتوا المسحاح للدم

العامة، يحيط سورها المنخفض بنظراته، ويتأمل الأخضر الساري على جناتها. كان تعاطفه مع اللون الأخضر، مخالطه الضعف والحياة، ويستثير ذكريات عاصفة، عاطفية ومؤلمة. فالأخضر لون الحياة، يستدعي الأصفر لون الموت والموت.

المنظر يهتز في عينه، يترجح بين الشتوي والربيعي، الشتاء آثاره مبعثرة على الأرض، بينما الشمس اللطيفة تُذكر بالربيع، فيبدو الجو معتدلاً، الأشعة الحانية تنسكب على الأشجار، تلمسها برقة وتمضي برشاقة، بينما الأغصان تتناقل مبللة بمطر الصباح، أشبه بحبات من اللؤلؤ، ترشق ومضات النور، فتنبثق شررات واهنة، تنعكس من قطرات الماء المعلقة على ذؤابات أوراق الشجر.

تذكر أنه قال ادخل، انفتحت، رأى الخبير سليم، فامتعض، لم يرغب في رؤية الشاب النابغة وهو بهذه الحالة الكئيبة. أنصفي استياحه وأبدي دهشته، ما هذه المفاجأة؟! رد سليم بأنه كان مراً بالجواري فذكر وعده له بزيارته. أظهر فاتح سروره، وطلب بواسطة الهاتف فتجاني فهوة، جاء بهما الحاجب الذي رآه سليم قبل قليل يكتس الأرض.

طرقا ما تناقلته الصحف في الفترة الأخيرة، الوضع السياسي الدولي المزاج يتقلبه على السياسة الخارجية للدولة، والاضغوط الأميركية التي أسامت إلى علاقات الدولة بدول الجوار. تسامرا وخلعا إلى أنه ما دامت أميركا تقود العالم، فغالبية العالم ضدنا!! ثم عرجا على الأزمة اللبنانية المستفحلة، واتفقا على أن حلها ليس في الداخل وإنما في الخارج. الاتفاق بينهما كاد أن يكون كاملاً.

أنصفي سليم ملياً، ولم يتكلم إلا قليلاً، كان بعيد النظر في الرجل الذي كان طريح الفراش في المستشفى، بمن من الخوف، وليس من الألم. جاء يحمل عنه توصيفاً بسيطاً، هذا الرجل عميل مزدوج، لكن ولاه الحقيقي لمن؟ هذا ما يجب أن يفصل فيه عن قرب.

لا شك بأنه يواجه موظفاً من طراز غير معروف، مهم بمهمه، ومتابع جيد لحركة السياسة الدولية. وفي الوقت نفسه شخصية مفكرة غير مألوفة، وعلى الأرجح، شخصية هي شخصيتان، واحدة تتمسك بخلف الأخرى. كان سيرهما عموماً في هذه المعادلة، دون استعمال الأساليب التقليدية في التحقيق.

حتى لو كان مفكراً، فهذا لا يمنحه أي امتياز على غيره، سوى

أنه ماهر في حساباته الدنيوية والأخروية: لا عسارة لمنافع الدنيا ولا مباحج الآخرة. تعاقد مع الله سرّاً، وأدى له الفرائض والسنن، وعندما عشي من انفضاح أمره، مارس عبادته في الخفاء. فضمن الآخرة وحسن الختام. وفي الوقت نفسه، علماني بتعبيد الشهرة وموقفاً في المعارضة، هذا لم يفته بعد، ما زال يسعى إليه.

ما الخطر الذي يشكله بشخصه مزدوجة الطابع؟

الأمر واضح، ألا يكون اكتفى بتعاقله مع الله، وارتبط بجماعة أصولية، مستغلاً من جانب آخر، دعم الدولة للعلمانيين كرأس حربة ضد الإسلاميين.

وبالعودة إلى شخصيته، إذا أعدت بحدودها التافهة الواقعة بين الجبن والشجاعة، فلا عطر داهماً. ثمة مسافة يستدعي اجتيازها عزيمة جبارة، لا يمتلكها. لكن من يوسع التأكد من بقاءه على هذه الشاكلة، يتقلب بحفر مع تقلبات الظروف السياسية؟!!

ثم انتقلا إلى الأوضاع المحلية، وناقولا المواقف الملتبسة لجماعات المعارضة. خرج الخير عن إصفائه العميق ووقف ضدها بقوة هنا ليس وقتها، ما دام العدو واحداً، لا ينبغي تشتيت الجهود في هذه المرحلة. فيما دافع فاتح عنها بقوة موافقها مشروعاً، وعلى الدولة أخذ مطالبها بالاعتبار، ما يساعد على تقوية الجبهة الداخلية. كان الاتفاق بينهما معدوماً.

الأستاذ بيدي آراءه بصراحة لا يتجرأ موظف في الدولة على إعلانها، يعتبر نفسه مثقفاً مدلاً أكثر منه موظفاً مأموراً. لن يساق إليه، ليس موظفاً يهرباً لتسامح معه، بل مثقف مشكوك بأمره، يطمح إلى أن يكون مثقفاً ذائع الصيت.

استدرك تخميناته، إذا استمر على هذا المتوال، يتسرع باستنتاجات مسبقة، فسوف يخفي عليه أهمية تتجاوز رجلاً مطلوباً بنهضة تضليل التحقيق. كان قد أربكه بالفعل، بعدما شطح أكثر من مرة خلال أقل من نصف ساعة. الأفضل، بعض الثاني، ولو أدى به إلى التنازل عما راوده حوله، قبل أن يخسب في متاعه أحيولة من تلفيقه هو لا من شطارة الآخر.

أفرك هذا متأخراً، بعد أن أصبح أسير دواما متقلبة على أكثر من وجهه لن يفصل فيها سوى التيقن من ولائه. إذا كان يعمل مع الله، فلن يقنعه العمل لحساب أية دولة، ولو كانت دولة عظمى، ولن تموزه الشجاعة والإرادة لقتل أي شخص بوصف بالكفر. وربما لا يفكر بالقتل والتدمير، لكنه عدو محتمل، حتى لو لم يكن متطرفاً، ولن يتفاسد عن تقديم خدماته إلى أية جماعة ترغب في القيام بعملية تهز أركان الدولة؛ تفجير مروح في شارع آمن، أو سوق مكظ بالناس، أو.... تانية شطح بأفكاره!!

كان الأستاذ فاتح قد نسف بمظهره الوديع تخيلاته حول الشارع الآمن والسوق المكظ والدولة المهتزة. كان التفجير المروح، هنا في رأسه، لا في هذا المكتب الهادئ جداً، المفتفر إلى شبه إرهابية. إلا إذا كانت اللوحة التي تصدرت الحائط الجانبي، نطوي على سره، بما تحمله من صور لأئمة الفكر الإنساني، ضمت إلى جانب سقراط وأفلاطون وديكارت واسينوزا... رجلاً بلحية ضخمة!!

حلق إليها، كانت صورة لماركس الذي أثار قلق الرأسمالية بنظرياته التحريضية طوال أكثر من مائة عام، كان للإرهاب خلالها سعة محسوسة ونكهة محبة وشعبية كبيرة، بروليتاريا تهب طلباً

للمدانة والسلطة، تسحق البرجوازية، نعدم رجال الحكم الياندي، ونستولي بالقوة على الدولة. مظاهرات الشباب في أوروبا ترفع صور غيفارا وماو تسي تونغ. عالم يضح بالانقلابات وحروب التحرير والمعصبات... وفي الجانب الأقصى منه، جموع هائلة تزحف ملوثة بالكتاب الأحمر... كلها، على علاقة سبقة بالدين، إن لم تكن ضده، تُبزي العلماني من أية لمة إيمان. وإذا كان متأثراً بها، فنحو تغير العالم بالقوة، والتقدم نحو الأمام، لا الرجوع نحو الخلف بضع سنوات، فكيف بأربعة عشر قرناً؟

كاد الاستطرد، أن يأخذني إلى منحى مغاير، ويرفع من حدة الدراما، لكنه أوقفها، ماركس من مخلفات الماضي اليساري للعالم، لم يعد بقوة ولا دليلاً، وإذا كان العلماني يحمل نحوه شيئاً، فلا أكثر من سودة فكرية، وصورته ليست سوى نوره ماركس. غير أن الدراما عادت إلى التفاعل.

كان الأستاذ فاتح قد استطاب الشرح بالتزودة السابقة نفسها، ومضى يدافع عما آلت إليه حال الجماعات الإسلامية، بإعطائه الأهمية لما وصفه بظاهرة جديدة، تتجلى بظهور جيل جديد من الإسلاميين، متعمق في الدين، يدعو إلى التأي عن العنف!! وبرز فتاوى وآراء فقهية، تنبذ العمليات الإرهابية، لأنها تضر سياسياً أكثر مما تنفع، فضلاً عما تشله من إسافة لسمعة الإسلام والعرب.

دراما عليه أن يخلعها.

الأستاذ يلعب ببحث ودهاء دور المفكر المحايد، بتجاهله والنعماً يشهد كل يوم أن تراجع الإسلاميين كان بسبب ما أصابهم من



ضعف شديد بعد الضربات القوية التي وجهت إليهم في معانقتهم،  
وقصفت تجمعاتهم من الجوى، وسحقت شراذمهم على الأرض،  
وحاصرتهم بتجفيف منابع تمويلهم، وقطع التبرعات عنهم،  
وملاحقة خلاياهم وتفكيكها.

المفكر المحايد يتلاعب بالحقائق، وبرذ عدم ونوع عمليات  
إرهابية جديدة في أوروبا وأميركا، ليس إلى عوامل خارجية لم  
تفلح، بل إلى أخرى داخلية، ستفلح! بالعودة إلى أصول الدين  
الحنيف!!

أن له أن يوقف عبث دراما تغلب متهافة.

## احتمال لا بد من تجريبه ذهنياً

لم يتردد، اتخذ قراره، لا خيار له في القفز عن أي مظهر للبراعة،  
والتمسك بالشك، ولو لمجرد احتمال ضئيل.

تناول فتجان القهوة، وأخذ يرشقه على مهل، كان بارداً. إلى أين  
وصل قبل القهوة؟ إلى التفجير المروع، حسناً ماذا بعده، بل ماذا  
قبله؟ سحناط الإرهابي المتكرر بالعلمانية بيضعة إجراءات، لتلا  
تناوله الشبهات. ما الذي سيلعله؟! سيقلق حادثه تبعث الشكوك  
عه، وتضعه في موقف قوي الثبتم، لا الثبتم.

احتمال لا بد من تجريبه ذهنياً، بمثابة حتى النهاية.

أوعز إلى واحد من أعوانه بالسؤال عنه في السوق، فقدم بذلك  
دليلاً على وجود الفاعل. ثم حسب الخطة، فبح له رأسه،  
مستد فوق المخرج، تأكد من سيلان بعض قطرات من الدم،

مخرج بكل هدوء، نفرض يديه، وتابع المهمة بالإبلاغ وسائل الإعلام وتجمعات المعارضة وحقوق الإنسان بما أصاب صديقهم، فوصلوا إلى المستشفى بعد وصول الجرحى بدقائق معدودات، وعلى التو باثروا مهماتهم في التشويش والضجيج وجمع التوقيح. عملية أعدت جيداً، وتوبعت جيداً، ونفذت بشكل نموذجي.

كفاءة الأستاذ في التخطيط والتنفيذ، أثبتت فاعليتها كاملة في هذه العملية البوليسية المتواضعة، وكان أكبر منها، وبالتالي سيكون أذكى في الإعداد لعمليات أكبر وأوسع وأكثر تعقيداً... على مستوى البلد والمنطقة.

قبل أن يعطيه أكثر من حقه أو أقل من البراعة، لا مفر من اختياره بصورته الحالية، الموقف مناسب كي يستخدم ما دار في ذهنه من ذراعا وحيرة وعمليات وشكوك واستلهامات، لن يستفجره إلى الإفصاح عن مكنوناته، سبأه مباشرة، دون تمهيد أو توريثات، وكان الأستاذ يقول شيئاً يحاول إقناعه به، فقاطعه بنظافة:

«هل أنت مؤمن؟».

صمت الأستاذ مدحوشاً، قابع يبرر سؤاله المطاوع:

«سمعت أن بعض العلمانيين مؤمنون، ألا يتعارض هذا مع ما يدعون إليه؟».

«لا».

«وأنت...؟».

«أنا غير مؤمن».

«ألم تراودك هذه المشاعر عندما كنت صغيراً؟»

«لقد تخلت عنها بعد أن وعيت.»

«ألم تُعد النظر بهذه المسألة بعد ذلك؟»

«بلى، قبل سنوات، تعرضت لموقف صعب، فأنثت، كانت فرصة لأجرب الله.»

«وماذا كانت النتيجة؟»

«ازرع فاتحرمز التحقيل الذي بدأ علم حين غرق، الناهفة الأحيق

«لو أنه حقق أمنيتك، ثم طلب منك شيئاً، مهما كان هذا الأمر، فهل تنفذه؟»

«نعم.»

«حتى لو طلب منك أن تقتل؟»

«سوف أقبل.»

كان هنا هو الجواب الذي انتظره، جاءه قاطعاً دون التماس. ونجح أخيراً في استدراج شخصية الإرهابي المختبئة خلف شخصية المفكر إلى الظهور، تمكن من التغلب عليه، وانكشف بكامل عتاده، قادراً على القتل، بمجرد أن يتلقى أمراً من الله... أو ممن يزعمون أنهم يتكلمون نيابة عنه! أصحاب فتاوى الجهاد، مؤولو شرائع الله ومفاسده.

أترك فائح أنه أعطاً بهذه الإجابة، ترى على أي نحو سيء، سوف يفسرها النابغة الذي بنا موتوراً؟ من المستحسن إعطاء جوابه صيغة أقل فجاجة.

«لا أعتقد بأن الله قد يوجه أمراً ظالماً كهذا دون مبررات قوية، حسب أدبياتهم الدينية، الله رحيم، وكرهيم بالمغو والمغفرة. أمر القتل، لا بد أن يكون عمراً محالاً.»

«أو ما يعتقدون أنه غيره.»

لم يتابع الحديث. نهض واقفاً. لقد ضبطه باعتراف لا يقبل النفي ولا التصحيح أو الإنكار. لن يتحير، تصنيفه أصبح واضحاً، وما سيفعله به أوضح، سيفضي عليه. وأراد قيل أن يخامر الميت به قليلاً.

«بالنسبة لهذا الموسم اللغافي، أرى أن تكون أكثر حرصاً، اعتقد أنك في خطر فعلاً، لا تريد أن أتعبك، وإنما أن أتصحك...».

ابتسم بلوم، ولم يكمل.

«هل أنا مهدد؟».

هز له رأسه، فسأله فاتح بتحفيز:

«بماذا تنصحتي؟».

«بالغاء محاضراتك».

لم ترق له النصيحة، ولا الأسلوب. كان يلمح إلى شيء لم يفهمه، فأراد أن يكون صريحاً وفجاً معاً، ويقول له بالأسلوب ذاته بأنه لا يتلقى أوامر من أحد، ولو كان الدولة.

«لا، لن ألتقيها».

«أو أجعلها شهراً أو شهرين».

«ولن أزوجها».

ردّ بإصرار. ولم يفته بأنه أصبح موضع شك، هؤلاء يشكون بأسمائهم وأبائهم. وتذكر بسخرية مؤسبة أن حياته غير الآمنة، باتت في خطر من جهتين.

والأبكي، كان ضحية وأصبح متعباً.

## تشابه غير متعمد

قبل أن يصحو من أنكاره المضطربة، سمع نقرأ على الباب، ظنه رجوع. وكان قد عاد إلي وقتته أمام النافذة يطل على منظر فارقته الغيوم، وتداعى مدلهماً بالاضطرار الكاسح، كان مهياً له أن يبعث الأمل، لكن في ظرف غير هذا.

التفت خلفه، عند الباب وفتت فتاة في حوالي العشرين من عمرها. تذكر أنها الموظفة الجديدة التي تم تعيينها قبل أسبوع في قسم المراسلات، وصادفها قبل يومين، أتتد رأها عطفاً، وأثارت في داخله قلقاً عابراً لم يدر كنهه، ربما لأنها محجبة. في هذه المرة يراها عن قرب. كيف دخلت؟ ربما أذن لها بالدخول وهو مشغول الأفكار.

عقد حاجبيه، ورمقها بنظرة متسائلة فائرة، فابتسمت، كأن يرفقاً توهج من عينها ولسعة أسنانها. تعثر في مكانه، دون أن يخطر

خطوة واحدة، وكاد أن يقع، لولا أنه استند يده إلى الخزانة، مما أعاد إلى ذاكرته، المرة الأولى المطلقة التي وقع عليها بصره في المسر المؤدي إلى المصعد.

أيقن أن روحاً لطيفة حلت في الغرفة، وما عليه سوى أن يهتف ويتأمل بخشوع هذا الحضور المنغم بالجمال والنور والسكينة، تمتزج كلها، بعضها ومع بعضها، وتمتد تشكيلها ذاتياً على نحو راقع يهوج بالألوان السائلة، ويتهادى ببطء، يحددها إيقاع عضي، يُنظم مساحات الفراغ، ومعايير الانسجام بين الهواء والأشياء. وإذا تلاسه ترفق قلبه، حتى تكاد أن تمزقه. كانت الدموع على وشك أن تطفئ من عينه.

بصعوبة تمكن من الوصول إلى الكرسي خلف الطاولة، جلس وهرب بنظراته إلى الدوسيهات المفتوحة على أختيار تصاعد حوادث المرور وارتفاع تكاليف المعيشة وجنون الأسعار... ألقى نظرة إلى الأرقام، كانت تتصاغر وتبهت دونما تفسير ما يجري برهافة يخرجها من دائرة التأثير ويطل فاعليتها. وإذا تنحلت إلى نقاط سوداء، تبخر وتتساقط من الورق الأبيض إلى فراغ بلا لون.

لثة ما أعاد رسم المراثيات أمامه.

كانت هي أو ظلها أو انتظارها المشوب بالحيرة مخيماً على المكان، واستحوذ عليه، ساحة الرؤية اتشغلت بها، يرافقها نغم خافت يتهادى بحنين غامض وأسر هيمن على سمعه كلية. ترددت أنفاسها، فأترك مصدر النغم. كانت قد منحت المشهد موسيقاه العذبة. لم يشعر بالحبور، كان يعاني من روعة حالة وقف عاجزاً إزاءها.



سأته عن أمر إحصائية لمعدلات البطالة في القطر.

فأعاده سؤالها إلى العالم الذي غادره.

أخذ ملهوجاً يبحث عن الإحصائية التي طلبتها. كانت على الطاولة أمامه، لكنه لم يجدها، مع أنه عثر على إحصائيات وجدول وبيانات كان قد أضعها، كارتفاع الفين الياباني أمام الصلوات الآسيوية، وانخفاض الدولار لزاء اليورو، وتزايد معدلات الاحتيال... ربما كان الآن يتعرض إلى عملية احتيال رقيقة جداً! وقع المصنف من يده وانقرطت الأوراق، لم يميز هذه من تلك. امتزجت في عينه العناوين بالأرقام، واختلطت الخطوط الطالعة بالثالثة.

كاد أن يجدها، لكن ما سيطر عليه، جعل يحته بلا فائدة، حتى لو وقع بصره على الإحصائية المطلوبة فلن يراها. رفع رأسه قاتلاً:

«سأجدها وأرسلها إليك».

شكرته وانفتحت صوب الباب. هتف بها مدعوراً، وقد لمح شيئاً على ملامحها:

«انتظري».

لم يقل شيئاً. بقيت يده مرفوعة، يستقيها واقفة أمامه. يتأملها مدحوراً. ظنت أنه نسي نفسه هكذا صامتاً. فاندحشت.

كان المنديل ذو اللون الرمادي الفاتح الذي التفت حول رقبتها وغطى شعرها وأذنيها، قد أبرز جيبتاً كالمرمر، وأضياء عيين عسيتين، ظللتها أهدابها الطويلة، بينما تخضبت بشرة عديها

البيضاء بلون برتقالي، كانت الشفتان مرسومتين ببراعة منقطة النظر.

تظاهر بأنه يريد أن يقول لها شيئاً حول الإحصائية المطلوبة، فتخطت الكلمات في ذهنه. كان الفم الذي لم يجد وصفاً له سوى أنه رسم ببراعة منقطة النظر، يكاد يكون فم زوجته الراحلة، بل وكان لها الجين ذاته. أما العينان فكانتا بالوساعة نفسها.

قال لها وهو يرتعش:

«اعفوني، أنت تشبهين شخصاً عزيزاً عليّ فقدته».

أحست بمدى تأثره، فارتبكت. أومأت برأسها عجلة، وكأنها تقول له أن لا يد لها في ذلك الشبه وهذا الحزن. تراجعت صوب الباب وخرجت.

بعد قليل، لم ينظر إلى هذا المشهد المؤثر، بالمنظار نفسه.

استعادته بحيرة شديدة. ما الذي أسيفه عليها، أو تصوره، ما الذي عطل محاكمته القدية لتعظم بشكل بطلاوة وسحر، وصيره فرسة سهلة لانتزاع أعينى!!

المستبين، أنه كاد أن يبكي، لأن بعصره وقع على موظفة في المركز، ماذا تكون غير فتاة محجبة، أي متديعة، أي محتشمة، أي متحفظة، أي محافظة، أي ... كم باستطاعته أن يفرق بهذه الدأى، مختلف أنواع التموت البرهنة العائدة للمجانب الإنساني السويوه بالفضائل المتنوعة، والعبودية لأوامر كائن مشوار عن الأنظار.

كان التشابه الحاصل بين الفتاة الموظفة وزوجته الراحلة، هو الذي جعله يتهور إلى حد تجاوز فيه الحدود الموصية لرجل عاقل لا يجوز أن يطيش صوابه لمجرد توارد ملامح بين فتاة علي قيد الحياة وامرأته الحبيبة المتوفاة، ولا يعطي الحزن لأي امرأة ولو كانت تشبهها، أن يثير كوامن أحزانه.

كان انجذابه الصاعق، عذبة لا يسوغها مقدار كاف من الإعجاب الجنسي أو الجمالي. فالفتاة بجسمها النحيل لم تكن شهية، فلا بهروزات مشرق، أو تكويرات موحية، حتى أن البيروز الوحيد كان منفراً، فملأ عرتها السمينة اللافقة غير متناسفة مع جذعها النحيل. والملامح التي أطارت عقله كانت عادية، لا تسترعي النظرة الفم كان مرسوماً على عجل، وإن رآه مرسوماً براعة، كما أن العين اليسرى يشوبها باض في زاوية الحدقة.

دهته غصة، تذكر أنه مهدد بالقتل، وتذكر أن عبيراً ناهضة على قدر عال من التخصص في الإرهاب، أظهر ريمته منه. فأحس بأنه عاد إلى صوابه بنظافة بشعة، وعاجله دون إندار كراهية مضاعفة نحو الفتاة المحجبة، لم يحتمل ما عطر له عنها. كان مجرد أنها تشبه الراحلة مساساً بذكرى زوجته، ثم ما هذا المنديل القبيح الذي كانت ترتديه، هل يعقل أن ملامحها الترتت بلامح امرأته، ولو للحظات!!

تناول الهاتف واتصل بمدير الشؤون الإدارية وطلب منه نقل الموظفة الجديدة إلى «البراد»، المصطلح المتعارف عليه داخل المركز للمستودع في المقوم غير المزود بأي نوع من التدفئة، حيث تختزن غرفة الرطبة ما تصدره وزارات وإدارات ومؤسسات الدولة من قرارات وأوامر وتعليمات لم تعد تعني شيئاً حتى لمرسلها،

ربما يجري تصنيفها، ثم إدخالها إلى كوسبيوتر مهبور، ترقد فيه رقدتها الأخيرة. يُكلف بهذا العمل الخفيف هؤلاء الذين تأتي بهم الوساطات، فيودعون في البراد، بنية تطفئهم. قد يداومون بضعة أسابيع، ثم لا يداومون، بأنون نهاية الشهر ليقبضوا رواتبهم، ربما تعمل وساطاتهم على نقلهم إلى مكان آخر.

نحت الأرض، ستعمر عملاً سلاً لا يقبها برد الشتاء، ولا حر الصيف، هنا إذا بقيت للصيف. كانت مثل من سبقها، صادف قدمها في الشتاء، وستذهب قبل نهايته. لم يُدغ القبر بالبراد عيشاً، كان يؤدي عمله على أكمل وجه في هذا الفصل، ويؤدي أيضاً المعنى المرصود له؛ تجميد كل من يرسل إليه.

بعد اليوم لن تطرق عليه الباب، ولن يراها في دهاليز المركز وسريره وطوائفه العالية، عالم البراد منقطع الصلة عن عالم المركز.

أحس برغبة جارفة في تنفيث ما احتفن في داخله من غضب وفي ذهنه من تخيلات. لم يشعر بالارتياح. كان بحاجة إلى من يسمع له دون أن نخالجه الظنون السيئة. هل هو مهتد؟ ربما. هنا أمر عليه ألا ينساه، وألا ينسى أنه فرط بهذه الميزة بسبب انجازه لرب رحيم، كريم بالعبء والمفطرة، وأن أمر القتل لا بد أن يكون خيراً خالصاً. لماذا تبرع بهذا التفسير؟ ما أتراه أصلاً بمقاصد الله؟

عطرت له عيفاء، اليوم هي في إجازة، لن ينتظر إلى المساء ليזורها. نظر إلى ساعته، قاربت الواحدة ظهراً. الآن عيفاء تغلي ركوة القهوة الثالثة، قد يدركها ويشرب معها فنجان قهونه الثاني.

«لقد رأيتها».

قالها متصفاً بالدعشة، وحبس أنفاسه، ليرى تأثير ما قاله على ملامحها. استدارت هيفاء نحوه متسائلة، وهي ممسكة بالركوة تصب القهوة في الفنجان. ما الطرفاة في أن يرى امرأة؟ فلم تشاركه دعشته، أكد:

«كأنني قابلتها اليوم وجهاً لوجه».

«من هي؟».

تبه إلى حماقة تأكيده، فاستدرك:

«تخيلت للمحطات أنني رأيت المرحومة».

لم يكن في روايته لحدث اليوم أمر غير عادي، حتى في انطلاء الشبه عليه، المستغرب نقته على الموظفة المحجبة، وإصراره على تحميلها المسؤولية.

«يستحيل أن تشبهها».

«لا تبالغ، لا ذنب للمسكينة».

ضميره لم يوبخ، ولديه العنبر، الفتاة التي أرسلها إلى القبول، موظفة بلا تجربة ولا خبرة ولا ثقافة، تحمل شهادة الثانوية العامة، وهي شهادة الحصول عليها يعتمد على الحفظ فريباً لا تشغيل الدماغ. فلتعتبر إرسالها إلى القبول فترة تدريب، يحتاج العمل فيه إلى خبرة منزلية متوفرة لديها، الترتيب والتوضيب والتصنيف ونفض الغبار. وإذا ضرب صفحاً عن هذا كله، فلا يمكنه التفاوضي عن أنها متدربة تدبناً تقليدياً يخلو من بذرة الشك اللماح.

عند... أن الوفاء للراحلة لا يسمح باستمرار حالة تشابه نسيء إليها. ثم قطعاً للتخيلات والأوهام، استعمل مراحلاته الوظيفية كي لا يقع بصره عليها.

ولا تتكلم عن الوفاء، حتى أنت الذي تدعيه، عنيت ذكراها مرات ومرات؟.

لوحت يدها مستنكرة، مع ابتسامة لم تخف العديد من الشواهد التي كتبت خيانه لزوجته، واحداها معها هي بالذات.

كانت هيفاء على اطلاع واف على مغامرات صديقها العلماني العفيف، المحاضر السابق في الملتقى النسائي الفكري.

## مغامرات العلماني

بدأ العلماني عياناته للراحة بعد وفاتها بضعة أسابيع، وتستر عليها بتابع أساليب صيبانية ساذجة. ففرواته التي تتم تحت جناح الظلام، اضطرت له لدى ذهابه للقاء إحداهن إلى اللف والدوران بين الأزقة، متلعياً من الأنظار، ومنهرياً من تعبهاته بالإخلاص. ومهما حاور نفسه وناورها، بغية تأجيل مواعده أو إلقائه، يفلح في الوصول، ويعتذر عن تأخره بحجة المواصلات. لجأ إلى هذه الحيل المكشوفة حسب ادعائه احتراماً لذكرى زوجته، فلم يكن ونحاً.

ما الذي دفعه إلى عقد صلوات حميمة مع النساء، المنقرت إلى الثبات؟ كان إحساسه بالتساوت العاطفي، وشعوره بأنه يتحول إلى شيء جاف أشبه بالمستحاثات، قد انعكس على قواه الجنسية، فقارقه الرغبة، وظن أنه أصيب بالعنة. جرب وتأكد من سلامته،

دون أن تزيله حالة التبلد. حصل على الارتياح الجنسي، ولم يحصل على ما ارتجاه من عاطفة. بعدها حركة حافظ تعدى الفضول، إلى استراق منعة محفوفة بالإثم والذنب، منعة لم تُخلص للشفة، وإنما للعقاب والتكيل بالنفس، كشفت له عالم المرأة، ولم يكن عالماً موحداً، كان متعدداً، وارتد عليه وبالأحرار. اكتشافاته لم تكن جديداً سوى إسقاطه المرة تلو المرة، على نحو متتبع، والمآل نفسه.

ولماذا انحصرت مفاسدهم بالرباعي المرح؟ ببساطة لأنهن متوفرات، ولم يكن موقفاً، لم تكن المواظف بالنسبة إليهن، سوى أنها الجماع لا أكثر ولا أقل. ما سبب تعارضاً بينهما، كان ما يطلبه من الجنس أقل ومن العاطفة أكثر. وما يتفق، العكس تماماً.

اختلاف المعايير ووجهات النظر، كان سبب عذلاته، وليس قلة خبرة من تلقاه على أيديهن وفي أحضانهن، فقد أعفاه عن نسوة مشردات، اجتهدن في إطلاقه من أسر الجنس الزوجي المنزلي، المحدود الأفق والأساليب، اعترافاً بفضل تعاليمه، وتسهلاً لديونه عليهن، ألم يجتهد بتحريرهن من العيب والحرام، وشجعهن على وثية، أحرزن فيها نجاحاً؟

كانت مؤهلاتهن متتازة، قد تجاوزن سقف الطبع المثالي، وفي المرحلة الشائكة منه، لم يتقدم كثيراً في السن التي تتدهور فيها قدرتهن، ما اضطرهن إلى تكبد عناء إضافي نجاحه. حافظن على قدر معقول من الجمال، لم يكن من النوع الطبيعي الخالص، أسهمت فيه عمليات التجميل بنصيب وافٍ، سواء بالإصلاحات الجزئية أو الترميم الخفيف. فسرتها بأنهن كلما كبرن أصبحن



أحلى وأحلى، فلم يقمن بتعديلات جفيرة، العمر لا يتسع، عفا  
أنها مكلفة. لم ينقصهن الإغراء، غير أن سحره لم يكن كافياً  
ليفوده إلى الفراش، وسائلهن الأخرى كانت أجدى وأقصر.

كدمن تجاربهن بين اللازواج والزواج، ولم تكن مما يُعتمد به،  
لكن بضع سوايق أعقبت تحررهن التاريخي، عرّضت عن سنوات  
طويلة وعجاف من ماضٍ بالقد. احتفين بالجنس الخالي من العقد،  
مع إضافات شخصية، اختصن بها العلماني الذي كان طغلاً  
غضاً في مجاهل الجسد السخي، وسنحه كعرفان بالجميل،  
إحساساً بالأمومة، الرائي والخالي من الغش والمنفعة، وإن كان  
مصطنعاً.

لم تكن براعتهم في التعامل معه، إلا بحكم كون الأولى عازبة  
عن جدوة، والثانية أرملة بلا فجيعة، أما المطلقتان فعن مزاج  
برجوازي، اتخذن الجماع على أنه كسر لرهاب الوحدة مع رجل  
مهذب يخشى العزلة، مع أن للتهذب سليات، لكن تفوق عليها  
لجاليته التي لا تنكر، في نغم العلاقة، متى أردن لا متى يشاء.  
وحتى تلك السليات، كالحفر الرجولي من أوضاع جنسية بأهاها  
الذكور العوام المستفضون بفحولاتهم، تغلين عليها، وانقاد صاغراً  
إلهم، وإلى ما عطر لهن من حنلقات شهوية، شطرت أفانها من  
غياهب الجنون اللقيذ. وإذ تستعاد تبدو كأنها نسلت نارها  
ونيراتها من جحيم الانحطاط الحيواني. كان مكر الجسد أقوى  
من أن يقاومه الحياء المتأصل، فلم يكتفين بالإشباع وإنما  
بالتخمة، كان أكثر من قضاء حاجة، ترفه بلا حدود، لا بهم إن  
سفته الألفة الطويلة أو القصيرة أو الاستلطاف القوي أو العابر.  
لكن يستحسن بعض الميل نحو الرجل المتوفر.

توافرت في العلماني ملامح شيقة، تفضلها المرأة عموماً، مظهره الخشن، أسلوب تودده اللطيف، دمايته، ثقافته المتنوعة، ذلاقة لسانه، حنكة الفكرية، وهي صفة لا تستدعي الحنكة الحياتية، فمعرض للخدمة، عندما اشبهت عليهن هذه بهن. كان تصرفاته المكونة والملجومة عن الفعل أنموذجاً للحرمان الجنسي والتعطش إلى المرأة. فكانت المبادأة من طرفهن غيرية مع إحساس بالواجب. ومن طرفه معرفية مع إحساس بالتفكير، لكن لم يتصوره على الإطلاق أن يكون رغم حاكه المتأخرة بهذا التصلب الزائد، فلم يتجاوب كما ينبغي، أو يتعلم كما أوحى لهن.

بدأت علاقاته مع صديقات المرحومة دون مبادأة من جانبه؛ تلميحاته التحيات الناشطات في السلقى الفكري، وقع اختيارهن عليه عن سابق تصور وتصميم، بعد أن حوَّمن حوله سابقاً، وبسن منه لاحقاً. خلال المحاضرات لشحن له مراراً عن استعدادهن للقيام بمغامرة رشيقة وسريعة لها صلة بالموضوع نفسه، العلمانية، مع خطوة إلى الأمام، تتجسد نتائجها عملياً بين طرفين راشدتين. في ذلك الوقت، لم يخطر له أن يكون لمحاضراته النظرية هذا الوقع الجهني المنفلت من عقال الأفكار الرصينة، أو أنه أصبح شخصاً من الصنف الرجالي المرغوب فيه على نطاق نسائي متنوع، متقارب في العمر والنزوات. كان المناخ والمكان والزمان حسب اعتقاده لا يلائم تلك التطلعات، فالجو الثقافي السائد في السلقى ينذ النوايا الخيانية للسيدات التواقات إلى المعرفة. عنا خضوعه للمرأة الشديدة من زوجة تعتبر الوفاء والعفة أمرين لا يتقسان. كما لم يسمح له الوقت بحكم وظيفته بالغياب عن البيت إلا لسبب معلوم. لكن الموت سمح لهن بتحريرات كانت في منتهى الكرم.

في ذلك الظرف الأليم الذي أعقب وفاتها، أثبتن أنهن يغم  
 الصدقات المخلصات، كثر إلى جواره في السراء، واليوم معه في  
 الضراء، فتحملن مسؤولياتهن تجاه الرجل الذي فقد زوجته عنوة،  
 ومعها أصفاد الزوجية. بات حر الجسد، فأضاف إلى ملامحه  
 العلمانية، جاذبية كأرمل حزين. لم يتخلين عما ربه موتها عليهن  
 من التزامات نجاحه، برعاية كانت مضاعفة. فشهدت تلك الفترة  
 عجقة عليه، من دعوة إلى عشاء أو سهرة في بيوتهن، أو في  
 مكان عافت الإضاءة، أو يدعون أنفسهن إلى فجان شاي أو قهوة  
 في بيته.

انتهج لقاءه معهن خطوات متدرجة ومتشابهة. بعد تبادل  
 ذكرياتهما الرصينة عن الملتقى، ونشيط أحزاتهما المشتركة حول  
 الصدقة الوفية والزوجة المتفانية (رحمها الله)، مع أن طلبهن  
 الرحمة لها لم يكن مستأخراً من الناحية العلمانية، غير أن التعابير  
 الساترة تبقى ساترة على الألسن وسارية المفعول في التعازي، ولا  
 يدل عنها. ومثلها تمنياتهن له بالسولان، وإجابته التلقائية بالبقاء  
 على العهد مع المرحومة، دون أن يدريين عقب الخطوة الأولى،  
 أنها تشكل تضارباً فيما بينها، ما يعيق الخطوة التالية. فالتنبيات  
 تنتهي بهما إلى الفراش، في حين تذهب تلقائته المخلصة التواها  
 إلى ضروب من الجدول العبي مع رجل لا يعرف أن البقاء على  
 العهد كلمة تقال في المناسبات العاطفية القصوى، دون العمل  
 بها، خاصة مع الأسوات!! وبالمودة إلى السلوان، لم يدرك حتى  
 في الفراش، أن العملية الجنسية هي السلوان بالذات، وتجرى  
 بطبيعتها حكفاً، بين الفين عاقلين، ينحان إليه مباشرة، أي إلى  
 الجماع السلي، دون عنفات لا موجب لها.

اعتقد العلماني أن لدى شريكته العابرة القفزة على الحلول محل  
الراحلة المثيثة، ولو لزم من محدود، فاشترط الحنان والدفء،  
وطالب بهما كمقدمة رومانسية لازمة، أو كمشهد يراوح عنده، لا  
يتقدم خطوة بعده إلا بشق الأنفس.

رومانسية كانت مضادة للواقعية الجسدية بشق صحتها، لا سيما  
وقد اعتقدن أنه من الممكن تفادي هذه المبرحة العاطفية، بتقبلها  
على الهامش، وعلى أن تكون جزءاً يضاف إلى الجماع، قد يسبقه  
قليلاً وليس كثيراً، على ألا يطول، فيؤدي بالطرف الثاني إلى  
التوتر، وألا يستغرق الطرف الأول الحنين أو اشتعال التنهلات،  
ويمكن رفقاً بوضعه، ممارسة هذه المشاعر خلال الاحتدام  
الجنسي بنكتهم وعلى حدة. وحسب مهارته، قد يتلازمان  
ويتفصلان، أو يتفصلان، فيتقدم أحدهما على الآخر. وإذا كان  
لا بد من إعطاء الرومانسية حقها في التعبير دون قيود، فبالخيال،  
بتأجيلها إلى ما بعد، مع الفهرة والسجارة.

لا يعني هنا أن العلماني لم يبذل جهده في العملية الثانية، وسواء  
شارك فيها بكلية أو بتصفه، لم يكن على مستوى الموقف الذي  
توقعه وطال انتظاره من له. ورغم نظائره بالانغماس في صميم  
مجرىات الحدث الجنسي المستع، كان عدم تركيزه يفضح تردده  
الحيوان. اعتقدن من فرط حسن نواياهن، أنه عفيف، طاهر القلب،  
بريء، محجول، بلا تجربة، وماذا أيضاً...؟! فساعدته. من طرفه،  
أهدى تعاوناً مشيراً، خلق ملامحه الخارجية والداخلية وتجول عارياً،  
نمدد وترسخ، نزل وطلع، ششم ونخر، شهق وزفر ... ثم حزن  
وسكن!! لم الوجع؟ تحابل كان من أصول لعبة أتقنها لأنه اضطر  
إليها، ولم يكن قادراً على الاستمرار فيها بالحمة نفسها. فكان

بجامع، دون أن يتأكد بأنه بجامع، مع أن جميع الدلائل من الاعتلاء والانبطاح إلى الإهلاج والإنزال، تشير إلى أن الجماع حصل.

حسب زعمه، كان ينكحهن، وحسب زعمهن، كأنهن لم ينكحن.

الأسوأ أنه لم يشر بهذا التفاوت بين الجماع وعدم الجماع، ولم يسع لتعويض ما يتفحصه حسب رأيهن من إحساس ومعرفة وتروية وجرأة. مع أنهن أسجن على الأرحل الجاحد عنابة جسدية فائقة، وتحملن ضرراً من سفاخته المرفقة، والتخاذل غير المفهوم، لتفكر تخطي الأربعين، عميق في التنظير، وسطي في الواقع، تتعامل مع النظريات ولا يفكر بتطبيقاتها على السرير. ومن دون ندم، طردنه من حياتهن.

ومع هذا كان محظوظاً، واحتفظ بعلاقة جيدة مع هيفاء، الصديقة الأقرب لزوجته، ولم تكن عضواً في الرباعي المرح. كانت من النوع المتأمل السامر، طاحت بها السخرية إلى حد الاعتقاد بالنفس، فأفرطت بالتأمل ورضيت به، بهجره وبجره، سرت عليه عيوبه، بداعي الشفقة بأنواعها المعنوية والعاطفية والجنسية. كان مثل زوجها السابق يرغب في المجامعة، لكن بشكلها البسيط، وأساليها غير المعقدة، مصحوبة بالكثير من اللغو وأحياناً الدعوى. ما المشكلة، ما دام لكل رجل طريقة؟ وعدها أنه سيكون صديقاً دون إشكالات، فنقبلته وإن شكل عبأ عليها أعذته على عاتقها للسب إياه، تعهدنا للراحلة بأن ترعاه في غيابها، وكأنها ستعود يوماً ما وتحاسبها. مع أن زوجته قصدت مواساته لا مشاركته الفرائض، لكن للضرورة أحكاماً لم تخطر لها، فالمواساة تستلزم

التفارب والتلاصق لا التباعد والتناثر، ما اضطرهما إلى الاضطرغام على الصوفا عدة مرات، ثم لضيق المكان ذهبا إلى الفراش، وفوق الفراش أصبحت هيفاء بالخيفة، ولامت نفسها على خبطة ارتكبتها دون مقابل مجز. وتدمت مرتين على الوعد وحشها به.

مع الأيام، تجاوزت إحباطها، واعتادت على الأمر العلماني باشكاله المتعبة، وأصبح صديقاً حميماً أحسن منه عشيقاً مرضياً، لا يخلو من بعض الحزناها، لم يكن يسأل أو يتدخل في ما لا يعنيه، ليست له طلبات خاصة، يساعدها في تحضير المائدة، يكتفي بالقليل من أي شيء، وجوده أشبه بعدم وجوده. زيارته تُشرها مثلما تُشره بالراحة وتمنحهما فسحة للتفكير والنهوض، فيفرقان في هذه المتعة للذائق أو ساعات.

كانت سيئاته القليلة جيدة كحسنته الكثيرة، لم يكن تقبل الظل في الجنس، بل خفيفاً، سرعان ما يبدأ وسرعان ما ينتهي. لم تؤبه على تعمله، رغم أنه كان أحياناً يتركها في بداية مشوارها، ما أتاح لها فرصة اكتشاف شيء يخصها ولم تكن تعرفه عن نفسها، أن احتضان الرجل للمرأة، أو توسدها صدره، أو إراحة رأسها على ركبته، وانحماض العينين خلال عناق طويل، أروح للنفس من المضاجعة وأمتع. كانت بحاجة هي أيضاً إلى الحنان، وفي غنى عما هو غير قائم عليه. ما جعل علاقتهم نموذجية.

بل وأصبحت تشتاق إليه عندما يغيب. اعتاد أن يزورها مرتين في الأسبوع، يجلس صامتاً وعلى وجهه تعبير روحاني لطيف، كمن ألقى عن ظهره أفعال الدنيا المادية على عتبة بابها قبل أن يدخل. يدعها تتكلم، وكان لديها الكثير من الكلام. يهضي إليها شارباً عنها مجرد إحساسها أنه يستمع إليها، مهما كان كنه هذا

الاستماع أو اللاستماع، بشفي جروحاً تتجدد من يوم لآخر في زمن كان مجدداً وبسر نحو لا أفتق. حتى اعتقدت أن هذا الرجل خلق لها، والأفضل ألا يفري، حتى لا يحررها هذه المتعة، أو يحملها المزهد من المشاق. وأحياناً يخطر لها أنها لم تستمزه إلا لأنه قليل الكلام وقليل الحركة.

وبرأيه، أن ما جعل علاقتها به أكثر من نموذجية، عدم اتساق شخصيته، كانت غير محبوكة الأطراف، ثمة جانب منها قالت، لا يمكن التحكم به، ولا تحديد إلى أين يمكن أن يتسرب، ولا بأي شكل متطرف يتظاهر. كان التناقض الذي يحف بشخصيته، يُشكل الأمان الخفي لهذا النشئت الذي يرتع فيه ولا يعاني منه، يتبدى في الأعطاء التي يرتكبها عن غير قصد، وفي الميلان نحو نوازع هو ضدها، وربما كانت تلك النوازع هي حقيقته. لم يضبط تصرفاته إلى ما يتسجم مع أفكاره، كان اتحرافه عنها يجري تحت وهم الحفاظ على عدم الانتقاص من شخصيته، التي تبدو حتى بالنسبة إليه غامضة، لم يحاول الكشف عنها. لذلك وجد لديها الانسجام الذي انفصله مع الآخرين، وحرية البوح بأكثر الأفكار سخافة، وبأشد التهيبات غرابة دون أن يخشى انتقاداً، أو استهجاناً.

كانا من أجيال متقاربة، جمعتهما في خرات سابقة، قبل أن يتعرف إليهما، هموم مشتركة، لومية ووطنية واشتراكية. أما اليوم فتجمع بينهما العلمانية، وإن كانت هيفاء من هذه الناحية، أكثر تساهلاً منه في أمور الشعرفة والخرافات، لم تتخل عن هويتها في ترامة الفتيان، كانت نجد في دماغه إشارات وبشارات، وقد تسير على هداهما. من ناحية أخرى، كانت أكثر علمانية منه، لم تعتقد

يوماً يعود أحد من الموت، أو تصدق أن عاقلاً يأمل بمثل هذه المعجزة. فلم تصدق تلك المجاملة العاطفية لزوجته التي بعد صباغتها كل سنة. أما خشية من أن تضبطه زوجته في موقف مشين، فمجرد إحساس بالخجل. كانت متأكدة، أنها لو عادت، سرتسي بين أحضانها، ولن يكف عن الاعتذار والبيكاء.



«ما الذي تقولينه؟»

«أقول، حتى للعلمانيين أو هامهم!».

لم يتوقع أن يكون تعليقها بهذا الاستخفاف. مع أنها بعد قليل ستلهي بقراءة فتجانها وفتجانها، وتلقي بتوقعاتها مازحة لكنها جادة، وبلا ريب سوف تشبأ له بيوم عاصف بعد أن اتهمت بارتكاب جرم حفر بنقل الفتاة المسحجة إلى القبور.

«حلقي إلى الفتجان جيداً، سوف ترين أنني لن أعود ثانية إلى هنا».

خرج غاضباً وشبهه بضحكة من قلبها.



## حسين المرید والحارس والتلميذ

كيف نسي أمراً ينبغي ألا ينساه فعلاً؟

كان من الأفضل عوضاً عن حرده وما تشدق به، تحذير هيفاء ألا تأتي لعنفه أو تتصل به، حرصاً على حياتها وسعته. لم يعد مستهدفاً من الإرهابيين الأصوليين فقط، بل ومشهوراً من فرع مكافحة الإرهاب أيضاً. لا يريد أذنتها، سيضعونها على القاتمين، بالإضافة إلى الفضيحة، قد يقتلونه في فراشها، ولن يوفروها من الذبح، إذا عرفوا بملاكتهما غير الشرعية.

شعر بالضيق، حياته تقيدت، للخبير النابغة لم يكن على مستوى نبوغه، ولم يخطر له فكرة ذكية واحدة يحافظ بها على حياته، لذاكى بطرح تلميحات مرهبة وأسئلة لا داعي لها، ونصحه بالتوقف عن محاضراته، وقد نصحه فيما بعد، بالاعتفاء تماماً، وعدم ممارسة أي نشاط وظيفي أو اجتماعي.

فكر والغاء محاضراته التي يحل موعدها غداً. غير أن الفكرة كانت جبانة، ربما لم يقصد المعتدي بضربه سوى تأديبه، على ماذا؟! لم يستبعد قيام زوج مخدوع من رواب فترة مغامراته النسائية الطائشة، علم متأخراً بما وقع خلف ظهره، فتصرف بما تعلمه عليه أحفاده الزوجية، فاتقم حسب زعمه لشرفه المهدهور.

لكن في هذه الأيام، الشرف ليس مسوغاً قوياً للضرب والقتل، ما دام الأزواج لا يغارون على زوجاتهم، يعتقدون أنهم غير صالحات للخيانة بدوافع غرامية، ليس لمناعة جهود الإخلاص القديمة، بل لأن الغرام لم يعد يحرك مشاعرهم، توفهن أكبر إلى التمتع المشاعرات، والتصرفات الكيدية، تنجساً عن تشجعاتهن العصبية. إلا إذا كان الزوج عاشقاً، مثلما كان هو مهروساً بزوجته. عندئذ، لن يكتفى بصفح غريمه صفتين، بل سيرفضه بقدميه، ويلتوس على رأسه، هنا إن لم يقتله شر قتلة.

أما إذا كان ما تعرض له عملية إرهابية، تحمل رسالة تحذيرية، فالأسوأ حدث.

لن يحاول أن يكون بطلاً، أو يتدع بطولات. احتياطاً، سيحتشد على نفسه ويتباحث مع صديقه حسن حول ما ينبغي اتخاذه من إجراءات أمنية خلال المحاضرة. اتصل به وتواعفا على اللقاء بعد الظهر، الساعة الرابعة في حديقة السكي.

لم يكن حسين صديقاً بالمعنى المتعارف عليه. كان واحداً من تابعيه الأوفياء، بمعنى أن التكامل بينهما معدوم، فلا ندية ولا سواسية. وإذا كان فاتح هو الأستاذ، فحسين هو التلميذ. وكلمة

صداقة الدالة على التآلف والرفاقية، لا تنبها حقها، فالألفة السائفة بينهما، ألفة منقوصة غير صافية، من جراء الخضوع الثاني للأول. أما الرفاقية، فلم تكن أكثر من مرافقة الأستاذ إلى المراكز الثقافية لضرورات تنظيم الندوات، من ترتيب للكراسي، واعتبار صلاحية عمل الميكروفونات، وإحلال للهدوء، وسيطرة على الشغب، والتصدي لكل من نسول له نفسه الاعتداء على المحاضر.

كان احترام حسين للأستاذ كاملاً، بينما لم يُكرِّم الأستاذ لتلميذه الحجم نفسه من الاحترام، وإنما أقل، وإن كان وبشكل خاص يحترقه، كواحد من مرهديه الكثيرين الأقرب إليه. اكتسب هذه المنحة لإخلاصه له وإيمانه بقولاته حتى دون أن يستوعبها.

مذ التحق به، كان حسين على ثقة بأنه اعتراف الحقيقة نفسها. فإذا كان الأستاذ على حق، فهو على حق، ويمكنه السير وراءه مغمض العينين، كان الهادي إلى الصواب. وبما أن الأستاذ يعمل دون هواده على نشر الحقيقة، ويتحرش بأعدائها وينال منهم، بات وكأنه مكلف بالفرد عنه وعن أفكاره. فاستبسل في حمايته، واضطر إلى استعمال يديه وأحياناً قدميه سواء في الدفاع أو الهجوم، إذا استدعى الأمر.

كان من مرهديه الأشداء، وكأنه من سنن الطبيعة أن يكون التابع قوي المراسم، طويلاً جسماً مقبول العضلات. كان تميزه بهذه المواصفات فعلاً، خاصة مع قابليتها للانتقال إلى العمل فوراً بكامل كفاءتها القتالية. ومن المفارقة، أن إحدى صورها الأكثر جلاء، كانت خاتمة، تبدي عندما ينحني على الأستاذ وهو في طريقه لاعتلاء المنصة، ويهمس في أذنه بشيء ما. حينئذ يمثل

الرجل الطويل القامة المحتلن الجسم والمرضى الكتفين، وهو يتصاغر أمام رجل، يبدو بالمقارنة معه، قصير القامة وضيق الكتفين، أرفع تعبير عن مدى سطوة الفكر رغم ضعفه وهشاشته، على القوة رغم جبروتها وهتكها.

في الموعد الذي ضربه له في حديقة السبكي، اجتمع الأستاذ بدره شخص تلميذه الذي يحسن الإصغاء والتلقي، ولا يُشغل عقله. وكان ملائماً بالقائه في الهواء الطلق، بصوت منخفض، وكأنه يتحدث مع نفسه. شجعه تلميذه الوفي المتحضر على إرساله وسط أجواء أسبغ الأثير عليها لسة شفافة من السكون مستمدة من صمت الطبيعة الملاصقة والمحيطة بهما. كانا في قلبها الأخضر، أي ما يدعى بأحضان الطبيعة، بنض النظر عن فقرها، اجتمعت فيها العناصر الأساسية التي لا يستغنى عنها من ورود وأزهار وأشواك وحشائش وشمائل وحمص وهروب متعرجة، ومقاعد خشبية تفرغ طولانية وبركة مياه آسنة، وأربع بطات، مع عدد من الأشجار التخينة والسامقة تبعثت في الأرجاء الدانية والقصبة، وامتدت إلى ما وراء سور الحديقة، بأشجار غير سامقة وأقل نخانة، انتصبت على الرصيف، خلفها أبنية غير عالية من عدة طوابق من حجر، ليست واضحة للعيان، أشبه بسد باعت بلا معالم، فالعصر مدُّ النظر على العناصر السابقة.

دون عجل إلى همسات العشاق الجالسين بحياء على الكراسي يتبادلون القرام بالنظرات أكثر من الكلمات، إلى جوارهم موظفون متقاعدون انحنت ظهورهم، لا يحولون بصرهم الكليل عن بقعة نصبة من الحديقة لا يرونها، وآباء متدمرون، وأسنان تشغلن بلف السنديشات وإرسالها مع علب الكولا إلى أطفالهن المنشبين بالمراجيح والزحطات، مع تنبهات حازمة، لا تراشق بالرمال ولا شتائم بذممة.

جميعهم استغلوا هذا اليوم المعتدل الحرارة من أيام الشتاء. يوم هارب من فصل محير لا هو بالصيف ولا بالخريف أو الربيع، أنفح تسامح الطقس بالرغم من قرصة البرد الخفيفة، بتحقيق انفراج تروحي عن النفس للجالسين واللاعبين والخاملين والراكضين على السواء، وبعضهم تمتع بالنوم والتره في الأحلام. فجلسهم في سره.

عندما تلقى حسين اتصال الأستاذ الهاتفي تعجب، حديقة السبكي !! لماذا يروى له مواعده في الحدائق مثل المشردين، والجلوس في زاوية منعزلة؟ لرتياد الحدائق بقليل من مهانته الفكرية. لا ينبغي أن يكون يستناول الأبخار، في مكان مفتوح لمن هب ودب. بعد حادثة الاعتداء عليه، الحديقة ستجعله مكشوفاً في العراء... يستناول الأيدي. وفي هذا خطر كبير لا يؤمن منه على حياته.

تبثى حسين التفسير الإرهابي للحادثة. من سيحمد إلى إلقاء الأستاذ غير الرجعيين الأصوليين؟ لا أعداء له سواهم، نضاله الفكري مشهود به ضدهم، لم يفرهم على الدوام من انتقاداته

الشديدة وسخراته الأشد. وعلى هذا الحرص واجب.

لم يختار الأستاذ الحديقة اعتباطاً، ولا امتثالاً لمزاجه الميال إلى الأجواء الراحبة المساعدة على سرحان أفكاره في الفضاء ومنه يهرج نازلاً إلى الأشجار والخصائل، يسكن إليها ما يمنحه حيوية، تسري في شرايين ذهنه. اليوم، لم تكن مسألة مزاج، بقدر الحاجة إلى دفقة من اللون المريح لروحه المرهقة. فقد كان في حالة انقباض، يعاني عسراً في التفكير.

لم يتمتع باللون الأخضر، ولم يفلح معه شم الهواء. كان متقاداً لحدس آخر طلى عليه، بأن هذا المنظر الجميل، لا حدود لروحه، ووجوده القريب منه فرصة قد لا تتكرر ثانية، وإذا تكررت فبعد زمن طويل! الظهور في مكان عام، بلا سقف ولا جدران.

بدأ الأستاذ بالكلام، ومن جملة ما قاله كاستهلال، أنه مهما بلغ الحرء من رشد، وكان العقل وسيلته إلى المعرفة، قد نزل به العاطفة زلة لا يفتنرها لنفسه، تاجمة عن بقايا رغبة مترسبة من الماضي في داخله، زلة لا تستثني الناضجين عقلياً، ولا الذين قطعوا شوطاً لا بأس به في الحياة، ومعهم هؤلاء الذين يكادون أن يفتنروها. نسيباً، لا تستمر تأثيراتها السلبية طويلاً. توقف الأستاذ، ما علاقة هنا بما يريد قوله؟! كانت الأنسة المحجبة قد برزت فجأة، وزجت به في سياق، لا صلة له بما يريد قوله.

ظن حسين أنه المقصود بهذا الكلام، والأستاذ يريد توجيهه نحو طريق خال من البقايا الرغوية المترسبة في أعماقه، لئلا يرتكب خطأ سببه مخلفات من الماضي. وهي حسب أسطواناته المعهودة، تترد إلى حكايات الطفولة التي تحض على طاعة الوالدين العمياء

والامتنان لهما، وما ترسخ من دروس الديانة في المرحلة الابتدائية، وما سمعه من عظات تخويفية يلقىها الدعاة في الراديو والتلفزيون، ولا تنتهي بخطابات المشايخ في المساجد يوم الجمعة. فوافقته، وظن أن الدرس الخصوصي انتهى.

لم يكن يريد الأستاذ انتقاد مظاهر التدين، لكنها لازمة لا يستطيع تجنبها، يتطرق إليها بمناسبة ومن غير مناسبة. ثمة ظرف الآن لا يساعد على الالتزام بها، هناك تهديد لحياته، وإجراءات ينبغي مناقشة كيفية وضعها موضع التنفيذ.

التفت صوبه، وأحس بالحرج منه، حين يحمل نحوه تقديراً، يُغفقه الحرية في إطلاق مخاوفه. لا ينبغي أن تهتز صورته في عينه، ولا مفر من التظاهر أمامه بالشجاعة، أو اللامبالاة.

«بالنسبة للمحاضرة غداً، وصلتني معلومة من مصدر أممي مطلع، نقول بأن جماعة من المشايخين ينوون التسلل إلى القاعة. وقد نصحتي المصدر بحراسة الأشخاص الجدد».

غضب حين بحماسة:

«نحن مستعدون لهم».

فيبه فاتح:

«إنهم إرهابيون وسلاحون».

«ونحن سلاحون».

فيبه ثانية:

«أنا، سلاحون بالمسدسات، وليس بالعصي والجزازير».

حتى الآن لم يقل ما يريد، بينما كان عليه أن يقول له مباشرة، إن ما سبحدث يتعدى المشاجرة واقفال الفوضى إلى القضاء عليه.

«يريدون اغتالي».

تعمد وصف العملية المستهدف بها بالاغتيال، وليس بجرمة نكراء. الفرق كبير، الجريمة تصيب أي شخص، سواء كانت قدراته متميزة أو غير متميزة، في حين يتناول الاغتيال الشخصيات السياسية المرموقة والمفكرين المناهضين حصراً. أحس بالارتياح بعد أن رفع مستوى العملية من جريمة شائعة، إلى إسكات صوت الحقيقة بالرصاص.

ولقد عثر التحدي الذي بنا على وجهه عن صلاته، واعتيابه على مواجهة الأخطار، وعدم اهتمامه بالموت الذي يترصده. حسين يادله بصلابة مماثلة، بالنسبة إليه لم تعد الإجراءات المطلوب اتخاذها أكثر من دعوة طال انتظارها للاشتباك المسلح مع الإرهابيين.



## مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس

اتخذ مكانه فوق المنصة، وأجال بصره بين الحضور، لم ينظر إلى الصف الأمامي، كانوا كالمعتاد من معارفه ومؤيديه. شمل نظراته الصفوف الخلفية، لم يلمح وجهاً غير مألوف، أو تسلفت نظره حركة غريبة، أغلبهم من رواد المحاضرات الثقافية من الصحافيين ومحترفي الأدب والناشطين في جمعيات مدنية وطلاب الجامعة وبعض الفتيات والنساء... القاعة على غير المعتاد، تكاد أن تكون مستقلة، ربما بسبب ما نشر عن الحادثة، وما دار حول شخصه من أقاويل.

وقف حسين عند المدخل، يتفحص الفاعلين تارة، وتارة أخرى بعيد تفحص الجالسين، يعاونه عدة شبان من رفائه استطعمهم معه من حارته، ينتظرون إشارة منه كي يتنفضوا على أي شخص غير مرغوب فيه. لم يلمح حسين ما يربيه مظهره أو ملامحه.

الأشخاص عاديون، حتى أن اثنين أو ثلاثة منهم أخذوا غفوة، ربما تبدأ المحاضرة.

عادة يقرأ فاتح محاضراته بتؤدة، واليوم بالتؤدة نفسها بصوت خافت كأنه قادم من مكان بعيد، يتسلل منخفضاً، يملو على مهل، قلباً قليلاً، يشتد، فيشد الأسراع إليه، إذا بلعلع، يأخذ طابع مارش عسكري، يصعد إلى الطبقات العليا، ويهبط فجأة إلى الطبقات الدنيا، يتناوب بينها حسب ضرورات التنبيه والإثارة. عندما يصل إلى فكرة هامة، ويرغب في التركيز عليها، يترث، يأخذ نفساً، ينتصب برأسه ويقرأ من الذاكرة، ينتقل بعينه في أنحاء القاعة محدقاً إليهم، يعني أن يطبع ما يقوله في عقولهم! هنا ما يجب أن يعوه، وكان المحاضرة لن تلبغ مراتبها من دونه. ولا ينسى بين الفينة والفينة، أن يلقي بنظره الثانية إليهم، ليطمئن على حسن متابعتهم، فيضبطهم بهيولي الأنفاس، مما يعطيه دفعة من الرضا ونفحة من الزهوا كما حاله وحالهم الآن.

والله لم يخول أحداً الكلام عنه.

استنتاج سفته تلميحات غير مهادنة نالت ممن يزعمون بأنهم يتكلمون نياحة عن الله والأنبياء والأمة والبشر. كان فرصة ليضع أساليهم في تأويل الغايات الربانية، لتحقيق مصالح دينية.

اختطف نظرة إلى الصف الأمامي، فبرز قبائه صديق المدرسة الذي زاره في المستشفى، جالساً يعني إليه، بملامح طفولية واجمة، تدل على أنه لا يوافق على كل حرف ينطق به، فأحس كمن ضبط بالحرم المشهود. لن يراعي وجوده، ما هو في سبيله، أمر يتجاوز الصداقة، صداقة قديمة، لا تعني الكثير بعد زمن تغير

فيه العالم، وتغير معه. لا شيء يجمع بينهما، وما أكثر ما يفرقهما.

لحظة، كانت كافية لنشوبه وتعطله. كان قد قرر أن يرتجل سؤالاً منفتحاً. ولكي لا يثني الجمهور بانتظار ما لثح إليه بفواصل من الصمت ثم أخاعه، انتقل دون تمهيد إلى الفقرة التالية، لم يقرأ من أوراقه، الفكرة الأساسية جاهزة في ذهنه، لا يكتمل التمهيد إليها إلا بالإشارة إلى المد الأصولي المطلوب التصدي له في العالم والمنطقة والبلد، وقد يكون على بعد خطوات من المركز الثقافي، وربما داخل هذه القاعة، حيث هو جالس يقرأ أمام جمهور صامت ومنصت.

لم يلتفت حول الفكرة كما يروق له أحياناً، دخل في صلبها مباشرة. بعد قليل، شرد بصره إلى الزاوية القصية من القاعة؛ استلفته شكلٌ بغوص وبطفو، متوتر غير واضح التقاطيع، يهتز فوق سفد في الجانب الأيمن من الصف الأخير، أثار في داخله صورة لشيء يتحفز للقفز، أو يتهاى للهروب... لم يستطع تحديده معالمة، إن كان لرجل أو امرأة. كانت الإضاءة هناك معطلة أو خافتة جداً. لم يسبب له قلقاً، ثمة ما هو أهم من شيء غارق في العتمة ولا معالم له.

اطمأن، الحضور منساقون إليه، حان أوان طرح القضية التعليمية التربوية التي سيستند إليها في محاضراته؛ معركة القوانين المدرسية التي احتلمت في فرنسا القرن التاسع عشر:

... بعد حروب دهنية دموية أغرقت البلاد بالمجازر زمناً طويلاً، قررت الجمهورية الفرنسية إنشاء مدرسة ابتدائية مجانية، مفتوحة للجميع. الهدف من تعميمها في أرجاء الجمهورية، أن يجلس

جنباً إلى جنب على مقعد واحد، أحفاد أولئك الذين أشعلوا الحرائق، وجزوا بعضهم بعضاً إلى المقاصل والمشاتي، وتقاتلوا في الشوارع وأمام المدارس، أسالوا السماء ودحرجوا الرؤوس وعلقوها في الساحات وبوابات الكنائس.

مدرسة لن يُعنى المعلمون فيها بحرفة ما إذا كان آباء الطلبة هم كاثوليك أو بروتستانت، يهود أو مسلمون، عقلانيون أو ملاحقة، أو يؤمنون بكائن نسي، ولا الإساءة إلى معتقداتهم. إنهم كلهم مهما كانت انتماءاتهم طلبة علم متساوون، يتلقون على المقاعد نفسها دون تمييز، احترام حرية التفكير والتسامح وحب القريب. هنا ما ينبغي أن تقوم عليه الأخوة المدرسية، وما سوف يهيئ للأخوة الكبرى للأمة.

عندئذ، باغت جمهوره بصوته العميق الذي لا يخلو من تشبيل مؤثر، وهي حركة يتفنها، إذ قفز إلى الطبقة الأعلى قليلاً، وقد تهدج صوته، لاح كأنه يلغهم بهجوم بدأ على حين غرة:

استقبل أتصار الفكر الحر مشروع المدرسة المفتوحة بحماسة، لكنه حوّر بضرارة من قبل اليمين الذي أشعل معركة عنيفة، فالبابوات والأساقفة وأصحاب المذاهب ورجال السياسة والصحافيون الرجعيون، اتهموا الجمهورية بأنها تريد اقتلاع المسيحية من فرنسا. علنا ما سوف تلحقه بالوطن من كوارث اجتماعية، إذ «مدرسة بدون رب» ليست سوى مدرسة للمجرمة والكفر، يتخرج منها عصاة من الأقاليم والمصوح واليهابا والخارجين على القانون. لن يعود الطلبة، شباب المستقبل، منافسين عن الوطن، بل طامعوناً ووباء ولعنة على البلاد.

«وأعطى القسامة لأنفسهم الحق بالتكلم باسم الله!!».

هنا ما أراد التأكيد عليه، استعان به كمقدمة تعني المسيحية وحلها، معركة مضي عليها الزمن، يُضرب بها المثل فقط، بعد قليل ستعني غيرها من الأديان. لم تخف على الحاضرين، لا سيما صديقه الذي اعتصرت وجهه الطفولي أمارات الحق والتبرم. فتجاوز فاتح ما أراد قوله على أن يعود إليه، واستعاض عنه مؤقتاً بإشارة لا تعني القولة من التصغير:

«... لن يند كون حرية الفكر عادة أساسية في الدستور، إذا حرمتنا فعلاً دون تراجع على تلقينها للصغار ونشقتهم عليها من المدرسة الابتدائية، فسوف نحصد نتائجها الفعلية في المنزل والعمل والشارع».

أثارت استحسان أغلبية الجالسين. فعزم على التوغل قليلاً في الموضوع الشائك، ما ينطبق على المسيحية ينطبق على الإسلام، فرصة حان وقتها، الجمهور ينتظرها، ولم يكن غافلاً عما يمكن أن ينجم عنها من إثارة، وإن كان سيخفف من حدتها.

غير أن الشكل المتوتر الذي اتخذ مكانه في أقصى القاعة، ارتد ليستأثر باهتمامه، فهو لم يكف عن التارجيح، ويخطئه بسماجة ووقاحة، فوجد نفسه يتوه عن القرعة والفكرة. وعزم القسم الأول من المحاضرة بسؤال:

«هل أعطى الله سره لأحد!!».

أحس بنفسه مضطرباً، لم يفعل سوى أنه حاصر حول الفكرة نفسها، بسؤال سبقي دون جواب، إن لم يتقدم تلك الخطوة التي

شتر بلا ريب نقمة من سخطهم غداً، إن لم يكن اليوم ليلاً.

فاجأه أن اضطرابه أثر في بصره، تبين له أن الشكل المتوتر لم يكن متوتراً، ولا يتأرجح أو يتحرك يمنة ولا يسرة، وإنما نظره هو الذي يهتز. لم يستطع كتمان انزعاجه الذي تقاوم مما كان يتراءى له وحده، الشكل رابض هناك لا يتزحزح من مكانه ولا عن مرمى عينه، فحول بصره عنه، وجهه مستعجلاً ما يريد قوله، وكان يفضل أن يكون تلميحاً، لكنه جاء صريحاً.

.. ثمة محاولات لا تفتقر لإعادة المجتمع إلى الورداء، محاولات نجري على قدم وساق سرّاً وجهراً، حلقات من الأخوات الفاعليات الإسلاميات، ينتشرن في البيوت والمساجد والمدارس، يعملن بالعلن على عناية بنات جنسهن، أما خفية، فلا يُعلم على ماذا!

تلكأ قليلاً عن المتابعة، لاحظ أن المتوازي في العتمة، قد تصلب نصفه الأعلى، واشترأت هامته، ولسعت في داخله فجواتان، المفترض أن تكونا عينين لهذا الشكل. كانتا رغم بريقهما عميقتين ومظلمتين.

... تنظيم في حقيقته سري، يقتصر على النساء، بحجة أنهن لا يحيدن الاعتلاط. اقتحمن معازل المرأة في بيتها وشاركنها في تربية أولادها، وتسلطن إلى غرفة نومها، وتطفطن على أدق خصوصياتها.

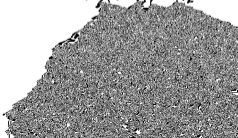
كان الشكل الأخذ بالشكل ثانية، في عتمة لم تعد كثيفة، ينحو إلى أن يكون رجلاً، لا امرأة، متخندقاً إلى جوار الحائط، يعكر الترابط بين أفكاره ويشتت انتباهه بارتعاشات وارتجافات. هل ما

زال بصره بهتز، فارتعش في عينه الرجل وارتجف!!

... داعيات اعتمدن لباساً موحداً المعطف الكحلي، والمنديل الكحلي، الجوارب السميكة، والحذاء الأسود من دون كعب. الوجه دونما تبرج، لا حمرة لا بومرة ولا تشذب حواجب.. هل نحن لزاء أخوية، أعضاؤها يتعرف بعضهم إلى بعض بواسطة اللباس، أشبه بحاسونية محلية، لا يمدمن إشارات وموتيف ومخططات سرية!!

لم بعد وثقاً مما براه. وكأنه يرشقه بشعاع مظلم، صادر من عينه المشعين عليه، أشبه بأنه يتوعدده، كان يتحسس صدره، ثم يدس يده داخل... ما الذي يلمسه؟ ستره... جاكيت؟ ويُخرج شيئاً يلمع، خنجر معقوف، ثم سدس كاتم للصوت!! توفزت أعصابه من هذا التهديد السافر، لا لن يتراجع أو يردد، سيدي صلاة أكبر:

...أليس في هذا عبودية للمرأة، بحجبتها مرتين، الأولى في بيتها والثانية خلف الحجاب؟ يقولون إنهم يعلمون الأطفال الأخلاق الحسنة والصدق، والأمانة، والأدب، واحترام الوالدين. في الواقع يعلمونهم الخضوع والانصياع والتقليد.



... ويقوم التفقه لديهم على الاستهانة بالعقل والمنطق، والإيمان الأعمى بالخرافات، وتقديس الكتب الصفراء والماضي والسلف الصالح والطالح...

غير أن المفاجأة دعت من الصف الأمامي، عندما نهض رفيق المدعوة من مقعده، محدثاً جلية خفيفة، وغادر القاعة احتجاجاً وهو يهز رأسه. أعاده منظره بلحظة واحدة، بضعة عقود إلى الوراء، ولم يكن لأحد سواء أن يدرك ما كانت تعنيه ملامحه الآن، كانت تنطق بالجملة التي يحلو له تكرارها: أنا أعرف الكثير. ما أريد التعبير عنه وبالضبط، هو توجيه اللوم إليه على تنطعه لموضوع يجهله. تماسك وتابع يهدوء ورباطة جأش. كان صديقه قد ترك في نفسه أثراً متبقياً.

ارتد ببصره إلى الرجل في مؤخرة القاعة. مد يده، ودون أن يتنبه أحد، سحب بخفة ورقة أمامه وكتب عليها بضع كلمات. التفت إلى حسين الواقف خلفه، على بعد خطوات، وأشار له، فجلب له كأس ماء، وبسرعة خاطفة، حصل التبادل بين الورقة والماء، وتابع الكلام بصوت بات أكثر قوة وحدة:

... أما فقهِهم الأكثر باطنية، فلن ندركه إلا عندما تُواجه في يوم غير بعيد، بالأحزمة الناسفة والانتحاريات العزيموات والقاتلات البائسات، والمجنونات كارهات الحياة.

وكرّة عليه، أرسل الرجل إليه بحركة، دلاليتها لا تخطئ، عندما دس يده ثانية داخل جاكته، وأخرج شيئاً. فاستطرد حاشقاً:

هذا هو المجتمع الذي يريدونه ويعملون على بنائه، مجتمع تقاتل فئاته، وسحجوبة أجناسه وأديانه ومذاهبه وطوائفه بعضها عن بعض.



نوجه حسين نحو الرجل ورفقته الثقلان من الرجال، اقتربوا منه وشكلوا حاجزاً مواجهته. سيبدأون معه بضع كلمات، ثم يفتشونه، ويتزعمون منه سلاحه بالقوة لو حاول مقاومتهم. استعداد هديوه، بعد أن شئت الرجل انتباهه وأفكاره وانحرف به عن الموضوع والهدف منه، واسترجع سياق المحاضرة، قبل أن يفقد الرابط بين ما قاله وما سبقه.

... كما علينا ألا ننسى تجربة في التعليم المخلط أثبتت نجاحها في سورية، ينبغي أن تعمل الدولة على انتشارها، بتعميمها على جميع مدارس القطر، إذ لا معنى لأن يكون للمدارس جنس، مدارس للإناث ومدارس للذكور!! مثلما لا معنى لأن يكون للمدارس دين!!

سرعان ما رأى حسين مع رجاله يفضون حصارهم بهديوه!! فاستغرب ليس لأنهم لم ينفقوا على الرجل، أو يجزوه من مقعده إلى خارج القاعة، بل لأن حسين انحنى له باحترام قبل أن يتسحب من أمامه، وكأنه يعترف منه!! فعلا بهوته، والغضب يخلي على ملامحه:

من هنا، من هذا المكان، ننادي بكل وضوح، بمدرسة حرة، مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس.

وأدهشه النداء الذي ارتجله، جاء غير الملحظة!!



اعتصر الأستاذ فاتح المناقشات بعد انتهاء المحاضرة، وتفاذى الأسئلة المطروحة، وسارع إلى النزول من المنصة، اتدس بين

زحام الحاضرين، وهو يتمتم معتقراً بمشاكله ويؤجل إجاباته إلى اللقاء القادم. التفت صوب مكان الرجل فلم يجد له أثراً، لكنه رأى حسين يتقدم نحوه، ويتحى به.

«كدنا أن نعلق معه، من حسن الحظ أتى عرفة».

«من كان؟».

«الخير الذي حقق معك في المستشفى».

التفت فرأى سليم يتقدم نحوه مبسماً.

## تعقيب على المحاضرة

أهدى سليم إعجابيه بالمحاضرة، كانت حاذقة وشجاعة.

ولكن مفككة قليلاً.

ولم يتوقف بعدها عن إيراد ملاحظاته عليها؛ المقدمة كانت طويلة، لم تراع التسلسل، الفكرة لا تعود إلى الفكرة التي تليها، نحتاج إلى بعض السلاسة، والكثير من الشأني والقليل من الحماسة... مع ذلك كانت موقفة.

والقد انتزعت عن جدارة تصنيف الحضور.

غض فاتح النظر عن انتقاداته، كانت في محلها، لم يقل له بأنه سب ما أصاب المحاضرة من خلل وتعثر، والأهم غياب الثقل الجدلي، حتى أصبحت تصلح للتبهيج، أكثر منها دعوة إلى

التفكير. لكنه أضح عما شوشه خلالهما:

«وما الذي كنت تخرجه من جيبك؟».

«نظم. أردت تسجيل بعض الأفكار، لكنني لم ألتحق».

«ولوحث لي بذلك».

«كي تخفف من حماسك».

خرجنا من المركز الثقافي، بتشيان على الرصيف، لاح في نهايته الجسر المؤدي إلى الجامعة. لم يرافقهما حسين، ما دام الأستاذ برفقة رجل الأمن فهو بأمان. الجو صاف والقمر طالع، لا يتفران بأعداء ولا أشرار، حركة الناس في الشارع، لا يعيقها تراحم مرور السيارات. الرصيف يمور بالتشان والصبياها سافرات ومتحجبات يتمشين معاً ومتفرقات، المنديل والمعطف جنباً إلى جنب مع الزنود والصدور العارية والسرر المكشوفة. هرج ملون بأضواء الإعلانات وواجهات المحلات المضية على الرصيف المقابل.

أحس بالإحباط والتوتر، المشهد الشباني وإن كان مختلطاً، ينفي الدعوة التي رفعها قبل قليل. ماذا لو كان يخلق حرباً لا يهبر لها؟! تذكر صديقه ذا الوجه الطفولي، فتوتر ثانية، لام نفسه، لم يراع مشاعره السرحفة، ما الذي جاء به اليوم، هل لجيده إلى طقولة بريئة، تسكن إلى الدهن وغالية من النزاع؟ ما أجمله من زمن، لكنه ذهب إلى غير ما عوده.

دعاه إلى كافتيريا قريبة، فاعتذر سليم بأنه لا يظهر في هذا النوع من الأمكنة العامة لأسباب أمنية؛ عمله لا يسمح له أن يكون معروفاً. فاقترح فاتح الجلوس في حديقة ساحة المدفع، وكانا قد اقتربا منها، جذبه إليها الأضرار الغامق المتطاوول من خلف

السور، المشرب بكل عنفوان، موحياً بلبل بطيء الحركة، يختلف عن الليل سريع الحركة في الشارع. قد يتيح له البرد الخفيف المنعش، تبريد روحه الهالجة، وإراحة أعصابه المتوترة.

وافق سليم، لكنه تردد قليلاً، كانت الحدائق رغم رحابها واتصالها بالفضاء وتماسها المباشر مع الطبيعة، جحراً مواتياً للجواسيس، يضرعون فيها مواعيدهم ويتبادلون الحفائب والأسرار. مكان من الصعوبة ضبطه، فلا أجهزة تنصت ولا مراقبة عن كثب، وإن كانت تؤمن الرصد الجيد من بعيد، والتشديد نحو الهدف تماماً دون خسائر بشرية جانبية، مع إمكانية الهرب السريع. وعلى الرغم من مساوئه، يتميز عن الكافيتريات بالهدوء والهواء النقي، فلا ضجيج ولا دخان، أو موسيقى صاعبة وأغانٍ هابطة.

لم تنكشف لهم الحديقة كلها. كانت جنباتها الفضية ساقطة في العتمة، والرواد الظاهرون للعيان فلالل، بينما الآخرون تجنّبوا الجلوس بحرسى من الأضواء العالية، وبنوا مثل خيالات، فلم تتوضح أشكالهم ولا ملامحهم، فيما إذا كانوا والفن أو جالسين أو مستلقين على العشب بأوضاع لائقة، أو غير لائقة.

تقدما في المشى المستقيم، واختاروا مقعداً تحت عمود النور. جلس فاتح بكل اتزان، وتوجه بنظرته إلى خارج الحديقة وأعلى قليلاً، نحو النجوم. وأجال سليم بصره بين الظلال، لم يفته تماثيل الخمائل، وإطلالة المتولرين من بينها الذين تفحصوا القادمين الجدد، ثم تراجعوا برؤوسهم. كانوا في شغل عنهم.

بعد قليل، رمقه سليم بنظرات متشككة وغير ودودة. لم يكن

يخصه وحده بهذه النظرة، كان يستعين بها ليعبر عن استنكاره، الآن تعبر عن استهائه بالأصناف المفكرة، فهو لا يثق بهم، دونما تمييز بينهم، مع أنه كان يفكر مثلهم وأكثر، لكن الموضوعات مختلفة، والأهداف أكثر اختلافاً، أما الوسائل فمختلفة جداً، فينسا يستنون إلى تحطيم الطمأنينة الداعية للشعب، يعمل على إعادتها إليهم وبثها من جديد. ولم يكن بالأمر السهل.

خفص فاتح بصره، لم ينصرف إلى التأمل، اللون الأخضر لم يشجعه، لاج زتياً كامداً. لكن وعلى الرغم من عدم تجاوب الطبيعة معه، أحس بالفخر إذ أنجز خطوة مهمة في هذه المحاضرة، كان النداء المرتجل الذي أطلقه عين الصواب، ويصح أن يكون شعاراً يُرفع ويتداول في وسائل الإعلام.

سلمم فكر في الشعار نفسه، مدرسة حرة!! مدرسة بلا دين ولا جنس!! لماذا ينحو هذا الحريص على الحياة إلى أن يبدو متاخلاً انتحارياً!! سواء كانت معركة أم لعبة، فهي تفوق قدراته، قد يحقق بعض النجاح، ويحصد بعضاً من الشهرة، بينما يقع على الآخرين، وهو منهم، إطفاء ما ينجم عنها من حرائق. أما دفع الثمن، فعلى الشعب الغافل، مجازر وضحايا. وهو أمر لا يعترض عليه، وليس ضده، ما دام يصب في الصالح العام. إذا كان يعمل بهذا الهدف، فقد أصاب رغم أنه أخطأ.

والقد بالغت باستفزائك مشاعر الناس العاديين.

والم أقصد هذا، إلا إذا كان إيقاظ الإنسان في داخلهم يعني استفزازهم. ينبغي أن يحوا العالم بلا أكاذيب، أريد دفعهم إلى التفكير في خياراتهم بعيداً عن استئثارهم للدين والتقاليد وسفاهم

## المجتمع البالية.

يدفعهم إلى التفكير؟ عباراتهم معروفة؛ الله وجماعته على الأرض. هل الشجاعة التي أبدعها تغطية جديدة أم نموه إضافي لمآرب محض شخصية؟ أيهم هو، طالب الشهرة الوقح، أم المفكر نصير النظر، والمعرض للضيء؟

لم يعلق، عشي أن يعيده إلى تلك الدراما المتقلبة. تركه يتابع الكلام:

«الهدف هو التصالح بين العقل والدين، وهي عملية سيخسر الدين فيها مواضعه لحساب العقل. هنا على المدى الطويل. لكن حالياً ينبغي إيجاد صيغة للتفاهم معهم.»

لم يرنح سليم لهذا التبدل السريع المائل نحو التراخي، على المنبر صعد الأستاذ موافقه بدعوة صارمة، وتصلب إلى حد التعنت. هل هنا ما يدعونه بنشوة المتأثر؟ وهنا في الحقيقة، بعد مرور أقل من نصف ساعة، تنكر لما أبداه من جرأة، وسبعها بطرح آراء استسلامية، وتساهل إلى حد الانبطاح بالدعوة لتفاهم لا جدوى منه، لن يقبل به الطرف الآخر، هؤلاء لا يتراجعون خطوة واحدة.

«عملية لا بد منها، تشكل تعاقباً جديداً بين الدولة والأمة.»

«هؤلاء لا ينفخ معهم إلا الحسم.»

«لا بأس بالشدّة، لكن مع الحوار.»

«أمة عيار واحد، أكثر فاعلية مما تلف وتدمر من حوله، هناك إجراءات قاسية قد نقول عنها إنها إجرامية بحق، لكنها على

مستوى أعمالهم الإرهابية، أنا أحببها، تجرئت من قبل، ولا بديل لها.

وكانت الإجراءات الشجيرة والشجيلة بحاجة إلى توضيح.

والفرض أن إخباره وصلنا عن وجود عملية إرهابية في حي خاص بالسكان. ما الذي سيحدث؟ حسب افتراضك، علينا السعي للتفاهم معهم، أي مناشدتهم بمكبرات الصوت بالاستسلام والخروج رافعي الأيدي. هم لن يقبلوا. إذاً فلتفاوض معهم، وهي عملية طويلة وشاقة، وسامرة مهما حاولنا تسريعها، ستكون بطيئة جداً، لا تحسب بالأيام وإنما بالساعات والدقائق، مع الحرص الشديد على أنه ليس بوسعنا إغفال أنهم كالمعتاد قاموا باعتطاف بعض الرهائن المدنيين، ويهددوننا بقتلهم، ويستغلون جهودنا لإنقاذهم، فنخضع لابتزازهم، نقوم الدنيا ولا نقعد، يحبس العالم أنفاسه، يؤيد ويشجب ويستكر، ليس رافة بنا ولا بهم. قد يعرض المساعدة، أو ينصح بالنحلي بالصبر، أو الضرب بيد من حديد. أخيراً كل ما سوف يفعله أنه سيحصى تنازلاتنا، ومن ثم قتلنا وقتلاهم... ما رأيك؟!.

لم يدل فاتح برأيه، لم يكن من هؤلاء، ولا يقبل أن يكون من أولئك. حافظ على صمته، مؤثراً إبقاء كلماته نظيفة من القتل والدم.

سأقول لك، لو كان الأمر عائداً إلي، فسوف أتفادى عملية مرهقة نتائجها معروفة، إلى عملية مختصرة وناجعة. لن أستعين بقوات خاصة مدربة على المناهضات والاقترحات، سأطوق الحي بقوات كبيرة من الجيش، وأزرع الأرض المحيطة بالأسلاك



الشائكة والأرقام، لن أستعطفهم، ولن أتبادل معهم إطلاق  
المرصاع، وإذا كان ثمة مفاوضات فمن أجل كسب الوقت،  
وإخلاء المكان من السكان. عندما أستكمل استعداداتي، سأبدأ  
على الفور بقصف الحي بالمناجيع والذبابات، وإذا استدعى الأمر،  
بالبطارات، لا فرق إن كان عشوائياً أو منهجاً. لا تسألني عن  
الضحايا الأبرياء، أو غير الأبرياء. فليخذ الله من يشاء منهم، هنا  
يتبع على عاتقه وليس على عاتقي. أنا لن أوفر أحداً، من لم يقتل  
بفعل القصف، سيدفن تحت أنقاض الحجر السخري فيه، أو يقتل  
وهو يحاول الفرار، لن أقبل باستسلام أحد، لماذا؟! قل لي، هل  
تضمن عدم تحوله بلمح البصر إلى قبيلة بشرية؟ أحياناً ينجو  
بعضهم، لكن لوقت قصير، ليس لعرضهم على محكمة ميدانية،  
وإنما ربما يتم تجميع بقعة أشخاص ليعدموا معاً. وسأراعي ألا  
تخلف العملية جرحى ومشوهين أو مشردين. ولكي تختم بشكل  
مثالي، البدء فوراً بتحويل الحي إلى مسرح عبارة عن سفيرة  
جماعية، تُسوى بالأرض، ويشاد فوقها شيء له علاقة بالحياة،  
سيناء، مسرح، أو ملهى.

لم ينجراً فاتح على فتح فمه بكلمة. كان يصفي إلى ما بدأ أنه  
أنشودة رُتلت بجمالية قاسية، وسلكت طريقها إلى ليل بدأ يوغل  
في السواد. لم تنته الأنشودة، تابعت مجراها، وكأن لها مجرى  
في مسالك الرعب.

«سأحكى لك قصة عن حادثة حقيقية وقعت في مدينة لا بد أنك  
تعرفها، وقد تقع في أية مدينة أخرى. انطبعت في ذهن قس في  
حوالي العاشرة من عمره، أهدته المصادفة عن يده في ذلك اليوم،  
كان يدرس عند صديق له في حارة مجاورة، فتأخر، لم تكن

الأحوال في المدينة آمنة، كانت تنشر بوقوع صدامات، يخاف عليه أبوه، فأذن له بالبقاء لدى صديقه.

في الليل، أُطلق نفيр الجهاد، أو الانتفاضة أو الثورة، أو الفتنه، سها ما شئت. لعللت الندابات من مكبرات الصوت في مأذن المساجد: اطردوا الكفرة، اقلوا الملحدين. اتحم المقاتلون مخافر الشرطة ونهبوا مخازن السلاح، وهاجموا منازل المسؤولين والقادة الحزبيين وأقربائهم ومعارفهم. خلال ليلة واحدة، قتل الإسلاميون كل من وقع بين أيديهم من الحزبيين، وبعضهم ذبحوا في أسرتهم مع زوجاتهم وأطفالهم.

في الصباح حاول الفنى العودة إلى بيته، لم يتمكن، إطلاق النار لم يتوقف، لكنه شهد بأمر عينيه عصاهات المقاتلين يتجولون في

عندما كبر، حرم على نفسه زيارة قبر أبيه بعدما عرف بأن العظام قد انتزعت من هياكل أخرى، كانت لجثث مسحوقة مجهولة الهوية، ترى لمن؟! هل كانت لهؤلاء الذين سحلوه ثم سحلوا، أم للمسحولين من أمثاله؟ كانت للذين لم يطالب بهم أحد.

لم يشف غليله، هم انتقموا، أما هو فلم يتقم.

الأضواء في العالي، حجزتها طبقة كثيفة من الغبار الصلب، يرح فيها الهوام، وما تحتها يسبح في سواد حالك، لا يترك للضوء منفذاً، الأخضر الزهني أصبح قاتماً، وأصبح لوناً دائماً على الأرض والحشائش والأشجار والخمائل والمعقائد والرجال والنساء والعشاق والنجوم والقصر في السماء.

«ألا تريد معرفة من كان هذا القبي؟»

فاتح لم يرغب في أن يعرف.

«إنه أنا».

نهض، وتمشى على مقربة منه. وسرعان ما ارتد إليه قائلاً:

«أخاف أن رسائي وصلت إليك».

رد فاتح بحماسة مهوراً عليه:

«كانت مصيبة وطني بأكملها».

لم يجلس، غاضباً وتركه وحيداً في ظلام، أخذ يشدد في ليل تقم.

## اشبه باختطاف

هل كان سليم مكلفاً بإبلاغه رسالة من الدولة، اتخذت طابعاً شخصياً مفاجئاً؟ حسناً لقد أجابه عنها بمسومية وطنية تُرضي رؤسائه. أم هي رسالة بوح ذاتي، عثر عنها بمونولوج مأساوي سرد فيه فصلاً من طفولة حُرِّجت بالدماء وشوهت بأشلاء الجشت؟ المولم أن المحاضرة والليل أتارا مواجهه، وأطلقا ما اعتزل في داخله من حقد على الذين ذبحوا عائلته ومثلوا بأبيه. أكثر من عشرين عاماً لم تفلح في محو هذه الجريمة الكروية، لا على نحو مسائل السجل بالسجل، أو بالتسامح والنسيان.

غير أن الهدف من الرسالة، لم يتطابق مع ما تهباً له.

بعد الظهر من اليوم التالي، وكان نازلاً من بيته ليستقل سيارة تاكسي من الشارع، اعترضه رجلان خرجا من سيارة واقفة على الرصيف، وطلبا منه مرافقتهما. رفض الصعود قبل أن يعرف إلى

أين سيذهبان به. قال الأول وهو يضع يده على كتفه، بأنهما غير مخلولين بالإجابة عن أي سؤال. توقع لو انتزع، أنه سيجره إلى السيارة رغماً عنه، ما دام الثاني تحفز لمهاجمته. فدخل صاعراً وجلس في المقعد الخلفي. وبينما جلس الأول إلى جولره، اتخذ الثاني مكانه وراء المقود.

بعد أن انتزع من الشارع، أتوك أنه سيقاد إلى مكان مجهول، ليعاني عدة أيام من حالة اختطاف سخيفة ومضجرة، فالرجلان حسب هيتلها لم يكونا من الأصوليين، لا لحي وخناجر، ولا مسلسات وقنابل. كما أنهما حسبنا لاحظ، لم يسما بالرحمن ولم يتوكلا على الله عندما انطلقت بهم السيارة. لو كانا من رجال المخابرات، لأعلنا صفتها حسب الأوامر الجديدة، أو لصفه الأول ورفسه الثاني، حسب التقليد القديم. لكنهما أبدا لابالاة طبيعية، ولم يجريا أي تمويه على العملية، أو يضرباه على أم رأسه ليخس عليه، أو على الأقل لم تُعصب عيناه، كأنهما من هواة الإجرام. لا بد في نهاية المشوار، سيواجهان حماسة اختطافهم لموظف فدته راتبه الشهري.

السيارة بعد أن اخترقت سوق العزة، تابعت طريقها إلى ساحة مستشفى المواساة. أحس بالقلق إلى أين سيضيان به، إلى جبل المهاجرين ١٩ وتخييل مأواه، مفارة مظلمة وخفافيش وعناكب. لكنها تابعت صوب ساحة الجمارك، دارت حولها، ثم إلى ساحة الأمويين، فتبخر شعوره بالقلق، لو كان مختطفاً، لما اتجهت السيارة إلى وسط المدينة، لترضح مرغمة للشرطة والإشارات الحمراء والاختناقات المرورية.

كان في حالة أشبه بالاختطاف، سنجلي على غيره، لكنه لم

بتوقع، بعد أن قطعت على مهل جسر الرئيس، واجتازت موقف  
فكتوريا في شارع بورسعيد، أن تعطف إلى اليسار وتلف ساحة  
السبع بحرات، لتنتهي رحلتها في شارع ٢٩ أهلر عند مطعم أبو  
كمال. ثم أن يقوده الرجلان إلى داخل المطعم!!

صعد معهما إلى الطابق العلوي، وإذا وقع نظره على شخص  
يجلس وحيداً، يخرج من شبه حالة اعتناق، إلى شبه حالة  
صدمة. كان الخبير سليم قد أنهى لثوبه طعام غداءه. تجشأ بصوت  
مرتفع، على أثرها احتفت ملامح وجهه.

بدا غير اليوم المنجهم مختلفاً عن غير البارحة الحزين. استقبله  
برسمية ولؤم، واعتذر عن مصافحته، لم يغسل يديه بعد. وطلب  
من النادل الشاي لشخصين. بينما عاد الرجلان إلى السيارة في  
الخارج.

لم يحتج على طريقة استدعائه المستهجنة. ضمن أن هذا الأسلوب  
كان مقصوداً، ليشره السيد الخبير بأنه ليس كما بدا له في  
الأسس مكسور الفولاذ، وإنما شخص أعر قوي الشكيمة، لديه من  
السلطة ما يمكنه من جلبه إليه ساعة يشاء، وإلى أي مكان، ولو  
كان إلى مطعم، ليس مدعواً إلى الغداء، وإنما إلى كأس شاي  
فقط. الحركة التالية، أخذ الخبير دون لباقة ولا فوق، ينكش  
أسنانه بعود خشبي صغير، ويتف بقايا الطعام بوقاحة لا يمرر لها  
سوى إقحامه بأنه يمثل جهة مباح لها تجاوز آداب المائدة،  
والاستخفاف بالناس.

حلل الخبير، ولم يكن بحاجة إلى تعليل، أن تقلص عضلات  
وجهه كان من تشنج القولون. فبعد تناوله الباسماشكات، انتهى

قرصاً من الكبة المشوية، لم يحرم نفسه منه، رغم أنه كان ثقيلاً على معدته. أخرج من جيبه ظرفي دواء، الأول عمائر تساعد على الهضم، والثاني مضاد للتشنج. ابتلع حبتين، ورفقه بنظرة حادة. فجاهبه فاتح بعد تأكده بأنه لم يكن سبب الآلام، وسأله عن سبب استدعائه. فأجابه بقرص:

«الإجراء بعض التصحيحات».

«لو سألتني الحضور لكان أفضل».

«ثمة ما تطلب السرعة. أولاً، لتلا ثُقراً رسالتني البارحة على غير ما تُراد منها. ثانياً، التركيز على مضمونها بعيداً عن ذكرها في المشجونة بالفضاء، لا أعرف في أن تكون الضميمة فجواها

كان خبيراً في الإرهاب، لا يجوز له الاطلاع على ما يحيش في داخله من أفكار، متعمداً الأسلوب نفسه، الإرهاب. البارحة تأثر لما أصابه في طفولته، أما اليوم فلن يخفى له تصرفه الطائش، فحيث القديمة لا تبرر له إهانة الآخرين.

بكل هدوء أعصاب رد على اتهام غير لائق به، فهو ليس انتهازياً ليلعب على الحبلين، ويعرف الجميع بأنه كان يتأى بنفسه عن الأطراف جميعاً، فلم يتزلف للدولة أو يتقرب لجهة، تحت أي ظرف. عبر عن موقفه باختصار:

«أزيد المصالحة، تحت مبدأ عدم استخدام السياسة تحت غطاء الدين. أما الاستئصال، فهو القتل والاجتثاث والإبادة، ولهذا أنا...»

لاحظ ما ظهر من استنكار على وجه الخير. فاستدرك:

«بصراحة لست الآن في ودد تخلا قرار قاطع بشأنهما».

لم يقل له بأن الجدل سيفتح سجلات قديمة، كلاهما يعرفانها، ولا يستحسن إثارتها في مطعم نفوس فيه روائح السمن والدهن، وعلى مرمى البصر صحون الفاصولياء والبامياء والرز المغفل... وجاطات الفواكه الرطبة.

«المكان غير ملائم».

«من الضروري معرفة رأيك».

فحاول أن يكون متوازناً في إجابته:



«حالياً، لا أعتقد بإمكانية المصالحة، الأوضاع غير ناضجة، كما لا أريد نهائياً فكرة الاستعصال. وأي قرار يجرم بأحدنا، يحتاج إلى مراجعة جريئة، ومناقشات طويلة...».

قاطعه سليم محفراً:

«نائب، هذه خطوط حمراء، لا تُراجع ولا تُناقش.».

فلجسه على التو، وأحس بالخطر، ربما مثل خطأ أحمر دون أن يدري. ما هو؟ ما هي حدوده؟ هل القرب منه لم تجاوزه؟!.

كانت لديه أكثر من تجربة مع الخطوط الحمراء، في تلك التسيبات التي يطلقها من فروع الأمن المختلفة، عن ملامسته لها، وكانت تردّه تعقيباً على تناوله أحياناً للأحداث الجارية، لكي يتلايم معها، وألا يسير عكسها. لم يكن يتفرد عليها، يتجاهلها فقط. كانت غير مقنونة ولا مُجدولة، أو حتى مكتوبة، مجرد عناوين عريضة، تتنازع تحتها التكهينات مع الحقائق، ويتعرض من يخالفها إلى غضب السلطة.

«لن أناقشها، الأمر محسوم بالنسبة إلي، أنا لا أؤدع في سياسة الدولة.».

«هذه ليست سياسة، ولا تعني الدولة فقط، إنها مصلحة الناس والبلد.».

«عند اللزوم، لن أتصل من واجباتي.».

هو أيضاً، وضع له حداً، ما دام سيقوم بواجباته.

وعليك أن تثبت حسن نواياك دونما لف أو دوران، ومن غير  
تحايلات فكرية، وإلا اضطررنا إلى التعامل معك بأسلوب  
مختلف.

لم يفه أنه باعتدافه السمج هنا أعطاه فكرة مسطحة عن الأسلوب  
المختلف.

ولا أظن الدولة ستحتاج إلى ذلك. في الماضي، لم أكن على  
اتفاق تام معها، ولا مستقلاً عنها. علاقتنا تعرضت للسد والجزر،  
كنت إلى جانبها تارة ومواجهتها تارة أخرى. وكانت الأمور جيدة  
هكذا.

هنا السؤال لن يكون، لقد استغل البعض مواقف شبيهة لإطلاق  
أراء معادية للدولة، بدعوى حرية التعبير.

وأرشدك أن تعرف أنني كمفكر علماني، وجدت نفسي غالباً والنفاً  
إلى جانبها أرد عنها سهام مفكري قرون الانحطاط الظلامية. وهنا  
ما جعلني محسوباً عليها من طرف، وغير محسوب عليها من  
طرف آخر. ولم يضرهم هذا الأمر. بالنسبة للمستقبل سأتحمل  
مسؤولياتي الفكرية، رغم عدم تطابق توجهاتنا تماماً.

«بوسعنا إيجاد صيغة تعمل بها معاً، نراعي فيها مصلحة البلد».

وافقه فأتبع، مع أنه كان متيقناً من أن مصلحة البلد شيء غائم  
جداً، باستطاعة الخير التلويح به لسحق أي خلاف مع الآخرين.  
لكن لا بد من تهدئة الموقف بينهما، الواضح أنه حتى لو كانا  
على وفاق كامل، فإن ما يريد فرغ مكانة الإرهاب، على تضاد  
مع علمانيته التي مهما رغبت وأزهدت، لا تؤمن بالاستعمال.

نجح بتفادي الاصطدام معه، واتخذ الحديث منحى أقل تصلباً وأكثر انفتاحاً، الدواء المضاد للتشنج أدى مفعوله، فاسترخت أعصاب الخبير، وأخذ يكشف أوراقه. لم يكن اللقاء لتحذيره أو تبيئه، كان بخصوص مفاوضات مع الجماعات الإسلامية، كانت جارية ثم توقفت، وقد تُستأنف قريباً.

«مفاوضات!! ما علاقي بها!!».

«المشاركة فيها بجهد وطني إيجابي».

أي أن يبذل جهده مستقبلاً، عندما يحين الوقت، بواسطة المقالات والمحاضرات بالتحذير من الثقة بالإسلاميين، باستعادة أفعالهم الإجرامية في العقود السابقة، طبعاً بأساليب متعددة غير مباشرة، سينفقان على عطوطها العامة الهدف منها دفع المفاوضات إلى الأمام أو إلى الخلف.

«حسبنا برعي وفدنا المفاوض».

«سأتعاون مع الدولة ضد كل ما يهدد البلد».

كان تعهده مؤقتاً وربما ينتهي اجتماعه معه، ومن ثم يستفهم عن فحوى المفاوضات التي برزت فجأة على أنها محور التطورات الأخيرة، وأن هناك إجراءات معلقة عليها، ومطلوب منه المساعدة فيها. لم يكن على جهل تام بها، فهي لم تكن سرية للغاية، وحسب علمه لم تتوقف كي تستأنف، الكثيرون نظروا إليها على أنها أقرب إلى الشائعة منها إلى الحفيضة. كانت لديه معلومات ترجح أنها أكثر من شائعة، والدولة لم تحدد بعد غايتها النهائية منها. حالياً وكما يبدو، تهدف وبشكل مرحلي إلى استئصال

الإسلاميين بالتفويض عن طرفين لإسداء مصالحته معهم. ولن تتورع عن الانقلاب عليهم إذا لم تسر الأمور كما ترغب.

مؤكداً، لن يأخذ بتعليمات مبنية على تقديرات، تبدو شخصية، ولن يتدفع مع الخير في أي اتجاه، ويزايد على المنولة ويتعنت في أمر خاضع لتوقيت لا يحدده سواها. إذا كان لدى الخير معطيات يحمل بموجبها، فهو بحكم إدراكه لمركز المعلومات يستطيع الحصول عليها نفسها بسهولة، ويتفوق عليه، بالمقدرة على تحليلها وتوقع العرارد منها. لذلك من الغباء أن ينشئ السيد الخير بما يعتقد سوابغاً، ويملي عليه ما يفعله، لمجرد أن يبرغه بحز اجتهاداته المدروسة.

تابع الاستماع إليه على مضض، غير أن الخير غير الحديث وأخذ يمدح ما يقدمه المطعم من وجبات تحتوي على تشكيلة كبيرة من الطبخ المنزلي.

«تعجز أي ست بيت عن مناقشتها».

والأوجاع المرهقة لكل صنف. ثم وكأن بخاراً ما أتخم به معدته ضرب وترأ في رأسه، أقعده عن التركيز، وجعله يتألم، حتى أن الملاحظة التي أنهى بها حديثه، بدت خارجة من شطط البخار وكأخه. ومع هذا لفت انتباهه:

«من حسن حظك أن جرائد اليوم لم تنشر شيئاً عن محاضرتك».

وبشيء أشبه بالحدس، لم يستطع إلا أن يربط بين هذه الملاحظة العارفة، والرسالة شديدة اللهجة، والتعاون القادم!!

## الصدق يتظاهر بأنه يأكل

ومع أنه انشغل بما سمعه، وهو يغادر المطعم برفقة الخبير لم يحجب عنه وجه رجل لم تبين ملامحه، لمحبه جالساً، رأسه غاطس في زهدية سلطة الخضار، تميزه من مؤخره رأسه، ثم من غصلة شعره الشاب قليلاً، فتصور على الفور ملامحه الطفولية.

عند الرصيف، عرض عليه السيد الخبير أن يوصله إلى بيته. اختفى منه بأنه سيستم فرصة وجوده على مقربة من شارع الصالحية لينزور صديقاً. وارتد راجعاً إلى المطعم.

وما هذه المصادفة؟!.

قالها متعجباً لصديقه الذي كان قبل قليل يتظاهر بأنه يأكل، لا بد أنه رآه وتجاهله، لا يلومني على ذلك، ما زال غير واضح عن المحاضرة، وما سمعه فيها من آراء أطلت صوابه، فاحتج عليها، بإعلان حرده.

والا، ليست مصادفة.

تخلفت صديقه، بأن اللقاء متعمد من جهته. لم يكن يكذب، ملامحه الطفولية تؤكد صدقه!! فقد حصل على عنوانه، وقصد زيارته في بيته، ليقول له رأيه في ما أعلنه من أفكار طائشة. في المطلعة المؤدية إلى بنايته، وأنه مع رجلين متفرين مظهرهما يدعو للرمية، التخاذ إلى سيارة، فلتحق بهم إلى المطعم. اضطر أن يطلب وجبة طعام، ويحاط في تناولها، لكي يطمئن عليه.

والم أشعر بالراحة إلا عندما لاحظت بأن حديثك الذي احتد معه، قد عاد إلى مجراه الطبيعي.

أكبر فاتح في صديقه خوفاً عليه، وعزم، ما دام الأمر بينهما، أن يصلح ما أنشدته المحاضرة ويحضر عما أبداه من آراء سواء كانت طائشة أو فاسدة أو متحررة. الصداقة الآن هي الأهم، لو تمكن من الفصل بينها وبين آرائه، لحافظت صداقتكما على برائتها القديمة خالية من الدين والعلم معاً.

صديقه لم يكن مستعجلاً على الاعتذار، ولا تصفية الحساب بينهما، كان اهتمامه منصباً على أمر آخر. اقترب بكرسيه من قائل:

وما جعلني غير مطمئن، هو معرفتي بما كان يدور حديثكما حوله.

فأطلق فاتح ضحكة عالية:

ولا تكهن، أنا نفسي لم أتوضعه.

رد عليه صديقه بانتمائه اليهودية، ولقال بثقة:

«أنا أعرف الكثير».

فاستعاد فاتح شخصية صديقه عندما كان طفلاً عليهما في المدرسة الابتدائية، لا يباريه أحد بما في جميعه من أسرار طرفية. وكانت لا تزيد على معرفته بمعالم اندثرت أو مجهولة لرفاقه الصبيان، كسوق الخيل والزيت والمونطة... وعانات كخنان الجمر ك والبطيخ والمزعفرجية، ونهر قوبن... ومطرح ما ضيع الفرد ابنه!! هنا كان في الماضي. أما اليوم فني ما يدعيه، امتحان لن ينجح فيه:

«ما الذي تعرفه؟».

«ما يجري من اتصالات بين الدولة والإسلاميين».

لم يسقط في الامتحان، ولم تدعشه معرفته، المفاوضات السرية غير سرية. فظاهر بأن الخير عادي:

«حيفا لو تسر مصالحه».

«لكن الدولة تتصرف كأن الحرب لم تتوقف».

كان صديقه على حق، رغم الهدنة الطويلة، التي قاربت عقوداً ثلاثة، ما زال الكثيرون منهم في السجون، والغارون ملاحقون ومنوعون من العودة، ومن ينكشف اتسابه إلى جماعة إسلامية مشرقة يتعرض للمحاكمة، وقد تصل عقوبته إلى الإعدام. وانقذ:

«هنا ما يجعلها شائكة».

«ولا يدي الطرفان مرونة».

«لا أتوقع خيراً منها، ما دام الإسلاميون يرفعون شعارات: الإسلام دين ودولة، والإسلام هو الحل، والسلطة تصير على إبقاء الدين تحت الرقابة وداخل جدران المسجد، لا يتخطاه إلى خارجه. بصراحة لا حل في الأنف».

كانت معلومتها عنها متفاربة وأرأيتها حولها غير متوافقة تماماً. كان ما يجعل المفاوضات عسيرة، أن من يدورها حلقة ضيقة جداً لا تتعدى بضعة مسؤولين أميين، ينظرون إليها من الناحية الأمنية فقط، ويحفظون حيالها، إن لم يكونوا ضدها، دون أن يُطلعوا عليها أمداً، تبدأ وتتهي وتوقف في الكواليس، وإذا ظهرت فلكي تُنفي جملة وتفصيلاً.

علق فاتح قائلًا:

«حال المفاوضات هذه أفضل من سابقتها، على الأقل لم تفشل بعد، ورغم تعثرها تحقق بعض التقدم».

«الدولة تبني شئ صفوفهم، يحصر نشاطهم ضمن إطار لا يتعدونه، الأقتصر على المبادات، وممارسة سياسة دون فقه وشرعية. يعملون لهم مشروع اتفاق سيحدد مع بعض قادتهم وليس كلهم».

«هل أنت متأكد أن الاتصالات تجري مع بعضهم؟».

«نعم، وعلى أن يتخذ كل من يريد العودة إلى البلد، بأنموذج أمن، مشلول الفعل والرأي».

«وما أتركك؟».



«من يعرف الدولة لا يجهل كيف تفكر وتعمل».

ربما كان على صلة بالطرف الآخر، أو ... ووجد نفسه يسأله:

«هل أنت منهم؟».

«لا، وإنما أعرف بعض الأشياء عما يجري».

«أنت تعرف الكثير».

قالها صاغراً، ومعترفاً بينه وبين نفسه بأن ما يعرفه صديقه كان أكثر من الكثير.

خرجا من المطعم، طالعتهما الأضواء على الرصيف المقابل ورياح باردة. أحكم فاتح اللقحة حول عنقه، بينما ززر صديقه معطفه ورفع يافته. فكر قبل أن يصانحه مودعاً أن يعتذر له عن المحاضرة، لكن صديقه سبقه:

«يا أخي، تُخرج الله من المدرسة كي تُدخل الفحشاء إليها!!».

فوجئ بهجومه العاد، فلم يهتكت:

«يا صديقي، الإيمان ليس علماً ليتعلمه الأولاد في المدرسة، إنه شعور وإحساس وتسلم في داخل النفس».

«الدين يهدي البشر إلى الأخلاق ويحمي من الفساد. ما الذي يضايقكم في الدعوة إلى تهذيب النفس، والحث على الخير، والتعاون على البر والتقوى، وأداء الأمانة، وتحريم الظلم ورد المظالم...؟».

«تريد أن يبنى الدين ديناً والسياسة سياسة».

«وما يضربكم في النهي عن المنكرات، أو يؤذيكم في ستر العورات؟».

«والفضائل والأعلاق لا تعزى إلى الله وحده».

«وهل تعزى إلى البشر؟».

«مثلاً يسمي الإنسان إلى الشر، يسمي إلى الخير. والمعتقدات، جميع المعتقدات، ينهي إيمانها عند باب المدرسة، وعدم السماح لها بالدخول. قد يكره الطالب زميله لأنه يحمل متضاداً مختلفاً».

«جعلتم الوطن بلا رب، واليوم جاء دور المدرسة!!».

«لا تستغرب، الكون كله بلا رب».

«تريدون قتل الله؟».

«هل نريد ألا يدفننا إلى القتال».

«هل تتركون ما تفعلونه، إنكم تترعون الله من ضمائر الناس».

«هنا عالم بلا إله».

«كان من العبث أن يقول له بأن خالق الكون لم يخلق الكون ومن العبث الخضوع له، إذ لا سلطة فوق سلطة البشر، ومن يدعون إلى سلطة الله المطلقة، فلكي يجتروها لأنفسهم».

«الله فكرة، ليست حكراً عليكم وحدكم».

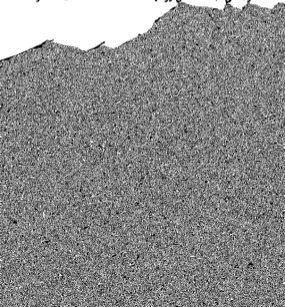
«احتفت ملاسحة الطفولية، ورفقه بنظرة أسفة، راثياً له، وهو يكاد أن يبكي. فتح فمه يريد أن يقول شيئاً، لكنه لم يقله. أدار ظهره إليه، ومضى في الشارع».

## العلماني يتخيل

خطرت لفتاح عدة أفكار، كانت متناقضة، ليست حول الله، وإنما حول صديقه، زعمت ما توصل إليه وحيرته من جديد. ما الذي يمنع صديق الطفولة من أن يكون مرسل الجماعات الإسلامية المتشددة إليه، مثلما كان الخبير مبعوث الدولة، كلاهما أبلغاه بما يريدونه منه. لم يظمن إلى هذه الفكرة من ناحية صديقه، وإن كان تداعي نقاشهما حول الله، امتحاناً سقط فيه، وبناء عليه، سيُصنف في غانة من لا يرجى هدايتهم ولا رجاء منهم. نقاش استدعت المحاضرة فقط، في الوقت الذي أراد صديقه تحذيره بحسن نية من عدم التورط مع الدولة. لكنه أفسد النصيحة والموقف.

راح يتمشى دونما هدف، الليل بهبط، والظلام ينتشر، المحلات تغلق أبوابها، لسعة البرد، وجد نفسه يتخذ طريقه تلقائياً إلى بيت هيفاء.

هيفاء لم تكن في البيت. الأنوار مطفأة في غرفة القعود المطلة على الشارع. وقف في العتمة، ينتظرها على الرصيف. لاحظ بضع شجيرات جرداء، تجاهلها سابقاً، فاستأنس بها، اهتمامه ينصب غالباً على مجموعات أكبر، أطول وأثخن من الأشجار، كانت أقدم على لفت نظره بظلالها الوارفة. استند إلى جذع واحدة منها، وراق له أن يعبر عن هذا الموقف الشجي بتعبير وجداني، بأنه نحس روحها العاتية مثلما نحس مشاعره



لم يسكت، إلا بسبب ما أخذ يدور في رأسه حول الخطوط الحمراء ومحاضرات فكرية تدعو إلى الاستئصال لا المصالحة، كلها على صلة بمفاوضات حقيقية منكم عليها تجري بين أجهزة الأمن والقيادات الإسلامية من خلال قنوات سرية.

«برأيك، ما الذي فكت حتى اعتبروه خطأ أحمر؟».

«هنا أسلوبهم في الكلام».

تأثرت المفاوضات استفراها، حدث كبير بهذا الحجم، أضفى الحرارة على مساء بارد، وبث الحيوية في مشهد كبير، لم يكن على مفاصل العلماني، فيها فيه ضيقاً، رغم ما احتضن نفسه به من أهمية، لمجرد كونه تلقى تيبهاً روتينياً.

لم يستطرد، الربط بينه وبين المفاوضات كان مكتوباً، لا يعتمد الخط المستقيم. من هو حتى تعقد الصلة بينهما؟! في حينها لم يتجرأ على مناقشة الخبير، لكن ما امتنع معه، لا مانع من إثارته مع هيفاء، بعد أن زوده صديقه بمعلومات إضافية عن مفاوضات مع بعض، وليس جميع القيادات الإسلامية بغية شق صفوفها. فأطلق لأنكاره العنان مخترقاً الخطوط الحمراء.

«إذا كان صحيحاً ما قيل عن تقارب في وجهات النظر بين الطرفين!! فالموقف الحالي برأيي، يحلي عليهم عدم عرقلتها بدعوات مشاغبة، كالتي أطلقناها في المحاضرة، قد يتخذها الإسلاميون حجة على أن الدولة تدفعهم نحو اعتبارات صعبة لا طاقة لهم عليها».

لاحظ علامات الاستغراب على وجهها، فسر لها:

«التلويح بمدرسة مختلطة وحظر دروس الدبابة؛ لا يمكن السكوت عليه بالنسبة للإسلاميين، ومن شأنه إثقال المباحثات بينهما».

«لا تحشر نفسك بينهم».

لم يصغ إليها، تابع يقول:

«ولا يمكنهم الاعتراض عليها، إلا بانسحابهم من المفاوضات. إذا كانت الدولة تريد المصالحة فلا ينبغي إثارتها في هذا التوقيت. لكن...».

«لكن... ماذا؟».

«إذا كان الهدف هو الاستئصال، فالتصعيد مطلوب لإخراج الطرف الثاني، بدفعه إلى تنازلات غير قادر عليها، لو قبل بها، فسوف يكون رسالته».

وعلى هذا، آراؤه لا غير عليها، ولا تتعارض مع مواقف الدولة، بل وأكثر واقعية منها.

«لست مخطئاً، أنا في المجال الأمن».

«لا تصطع شيئاً من لا شيء»، أنت لا تهتمهم من قريب ولا من بعيد».

«الدولة تبني توظيفي على هامش برنامجها التفاوضي، كي أقدم لهم مادة يختلفون عليها، سيسعون إلى تجنيدي، على أن أكون متجنباً معها خطوة بخطوة».

لم ترق لها مضاعفات أفكاره، بعد أن أضاف إليها قدرأ عملياً لا

بأس به من الإثارة، وتخيل أنه سيلعب دوراً رئيساً في مفاوضات يكون سندهم فيها!! نرى إلى أي حد يجوز له أن يتخيل؟! قالت سائرة:

«إذا، لقد بانتظار تعليماتهم».

«لا تتفاطلي، هذه المفاوضات كالتي سبقتها، ستصل إلى طريق مسدود».

«هنا مرهون بوصولهم إليه».

«على التوام يصلون، فهم سيرون على الطريق المسدود نفسه، لن تتوفر لهم صيغة يتعمرون بها الإسلاميين، كما أن الإسلاميين، لن يجدوا سوراً ليقلوا بها».

«كانت النهاية التي أوصل نفسه إليها معقولة. وإذا كانت سائرته، فلنكي بحس أنها استمعت إليه وشاركته الرأي».

«ما الذي سفعله بأفكارك الجريئة؟».

«سأطرح غيرها أقل جرأة، وأكثر واقعية، لدي الكثير».

«أليس في هذا تراجع؟».

«لن أعمل لحسابهم».

«دركت أنها أعطت بحرشها به، لا ينبغي أن نستمرجه إلى أوهام النضال، بكفي. فاستمركت:

«لماذا لا تبيع نفسك... وتأكل؟».

ظنت أنها وضعت نقطة النهاية النائية. لكنه تابع التحليل وياشر  
بالطعام معاً:

«ليس حرصاً على حياتي، بل حرصاً على صدقتي. لن أطرغ اليوم  
شيئاً أتصل به غداً. التهدئة الآن هي الأفضل».



النشر، بل وبلغت به الوقاحة اعتبار ما فعله من حسن حظه!!

كادت أن تضحك، ليس بسبب المنع، بل بسبب الحظ. هل هنا الرجل محظوظ!!

نظرت إليه بحنان، هذا الغافل الذي لم يفتخر عن التحليل والتأويل والتأليف، لو كان محظوظاً، لانتبه إلى أن بيت القصيدة، فيما جرى وما سيجري، ربما في مكان آخر. ومهما كان فقد شغل بالها. فبينما أسكت ظنونه، أشعل ظنونها.

لم يكن هناك طريقة لإسكاته سوى أن تُشغل التلفزيون، وتجلس إلى جواره على الصوفا. تميل عليه، تميل عليها. يسند رأسه إلى صدرها، تمسد شعره الكثيف، الشيب يسري فيه، تحزن عليه. رجل وحيد مريض بالتفكير.

رأته كما رأته يوماً، رجلاً بلا امرأة، مثلما هي امرأة بلا رجل.

## الدعوة تأخذ مجراها

لا، لم يكن محفوظاً، الحظ الذي حالفه، تخلى عنه بعد أقل من أسبوع. إذا كان هذا ما يقصده الخير بالحظ.

طالع غير المحاضرة بالبنط المريض على الصفحات الأولى للجراند اليومية. واحتل المقال حولها، القسم الفكري من الصفحات الداخلية، العنوان كان الشعار نفسه: «مدرسة بلا دين، مدرسة بلا جنس». تضمن تلخيصاً مركزاً لها، وإلى جانب صورته على طول الصفحة؛ واقفاً على المنبر، مشرباً برأسه، رافعاً قبضته، ومطلقاً لحجرته العنان. يبدو فيها وكأنه واحد من المسؤولين الحزبيين قبل عقدين من الزمن، في اجتماع جماهيري حاشد، يهدد الإمبراليين بالموت الزؤام.

بالنسبة إليه، الحظ أتخفه بضربة موقفة، مع أنه لا يؤمن به!!

لقد انتصر، خطة الخير فشلت، لا سبيل لمصاصرة الأفكار، ولا إلى محاصرتها، حقائق التغيير لا محالة، ستجد طريقها إلى العنق والبشر.

عضده المنظر الذي أطل عليه من نافذة مكبته، كان على مستوى المفاجأة، بهيجاً مشرقاً وواعداً الحديقة مشبعة بالأخضر... ومزهرة أيضاً الأيام المشمسة الساهقة عجلت بإتضاع باقة من النباتات، تناثرت ألوانها برشاقة عيمن عليها اللون الأخضر المنعش والأكثر بعناً للأمل، منه إحساساً بالسرور مضاعفاً.

اتصل بهيفاء وأعلمها بالاختتام الذي لاقته محاضرتي في الصحف المحلية. لقد سجل فوزاً، لا يد له فيه فوزاً حقيقياً، ولكي لا يلتبس بالحظ الذي تأتي به المصادفات العمياء، وإن كان كثير الشبه به، قال ضاحكاً:

وأما بالنسبة إلينا نحن العلمانيين فهأتينا من الصحافة، السلطة الرابعة.

للوهلة الأولى، وتحت تأثير فرحة، اعتقدت هيفاء بفعل تحليلاته

يستمع إليها سوى بضع عشرات من الناس؟

لم تشجعه، ما يأتي من الصحافة مشوه، سواء كان الحظ أو غيره. لا يمكن الاطمئنان إليه، ولا التعويل عليه. الأفضل كي لا يستمر الصحافيون المحاضرة على نحو استفزازي، أن يتصل بتدريي التحرير، ويؤكد عليهم عدم التوسع بالأنكار المطروحة، وألا تعرض على النقاش، أو إجراء استطلاع في الرأي حولها.

استكر اقتراحها، وقال بثقة:

«إذا ساعدتني الظروف، سأقود حملة توير حفيظة».

استعت عن نقل هواجسها إليه، ما تخوفت منه بشكل غامض قبل أيام، بدأ بالتحرك على السطح اليوم. فلم تشأ إحيائه، أو تعكير فرجه.

راودته الفكرة نفسها، لكن دون مخاوف، وأخبرها بما يتوقفه:

«سيعرضني في حسابهم».

لن يدعهم يفاخروه. عدا أن تجيده لن يضره، إذا لم يتناض مع أفكاره، على ألا يكون مطية لهم. بوسعهم خلال أيام معرفة توجهاتهم، من خلال مواقفهم من دعوتهم العلمانية، في حال لم نخدمهم، فسوف يعملون على التعتم عليها وتطويق تداعياتها، بعدم تناولها وتعميمها، مع توقي طرح مواضيع على قرارها، أو على صلة بها. وقد ياندرون كخطوة سريعة وسعاكسة، إلى إعطاء الأوامر بالآ تتخطى حدود الدولة السياسية، بمنح المرسلين الصحافيين من نقل فحواها إلى صحفهم تحت طائلة المسؤولية.

لكنها تخطت الحدود!!

في اليوم التالي نشرت بعض الجرائد الصادرة في بيروت والخليج عبراً عن مفكر سوري جريء يدعو في اجتماع عام إلى فرض الاختلاط عنوة في المدارس، وحظر تدريس مادة الديانة! جرى التعقيب على الخبر بتحليلات مقتضبة، أسفطت عن المفكر جرأته، دعوة تفق ورايعها أجهزة الدولة الأمنية والحزبية والتعليمية، ولا يمكن لمفكر مهما كانت قيمته الأكاديمية، التورط بطرح مثل هذه الفكرة المثيرة للخلاف والجدل والغضب الشعبي، إلا بعد أخذ موافقتها، وهو إن لم يكن ناطقاً باسم الدولة، فسلفوس منها.

وعلى الرغم من شبهة التنسيق مع الدولة، أحس بالفخر. فهو لم يُنتسب معها، ولم يخلق منها أية إشارة تأييد أو استحسان، ولا يستبعد أن تطلب منه الكف عن دعوته، لأنه لم يستمزج رأيه، فهي وحدها تختار التوقيت المناسب. لن ينصاع إليها، وإذا احتاج الأمر، فسبحووس معركة على جبهتين، ضد الدولة، وضد القوى الرجعية بسخلف أنواعها، خاصة الإرهابيين، على التأكيد لن يفلت منهم عبر كهذا.

ومع أنه مفكر واقعي، سرح به الخيال والنضال، إلى توقعات قسمة، تضيق وحصار، دون أن تتاح له معركة متكافئة تقتصر على صفحات الجرائد، وقد لا يحظى باستعمال القلم، سيرمونه في السجن أو بالرصاص، ما دام هو الطرف الأضعف والأهزل. لكن مع الوقت سيؤازره الكثيرون وملتحقون به. كانت معنوياته عالية.

سرعان ما هوى به الخيال إلى الواقع، وكان راكداً وسخيفاً لم يبلغ أدنى درجات تخيلاته النضالية؛ لم تحرك الدولة ساكناً، لا إيجاباً ولا سلباً. وهي الدولة نفسها الفاترة على معالجة هذه

الإشكالات بسحقها قبل أن تطل الفتنة برأسها، أو بالنسخ فيها حتى لا تبقى ولا تثر. بعد أيام دلّ صحتها علي تواطؤها مع دعوتها التي بدأت تتفاعل ببطء، وتحصد اهتماماً ضئيلاً، على صفحات الجرائد المحلية، وإن كان على حياء، في أكثر من مقال، حيث الاختلاط بالتوسع فيه بخطوات تدريجية في مدارس الفطر، والتخفيف من حصص مادة الديانة في المناهج الدراسية، أو جعلها اختيارية.

وكان الواقع مربكاً أيضاً، ففي غياب أي تفاهم أو عدم تفاهم مع الدولة، لا يستطيع تبين طريقه، فهبطت محتوياته واعتصم بالصمت. عشي أن يكونوا حائقين عليه، بعد أن رمى لهم بقضية ليس هنا وقتها!! من يلري كيف يفكرون في مثل هذه الأزمات، هنا إذا كانت هناك أزمة؟ لكنه حدس بأنهم لو كانوا غير راضين عنه، فلن يرددوا في إبلاغه. ومهما يكن، أحس بالحيرة، هل كان تصرفه ضد توجهات الدولة؟ لو كان ضلعا فسوف يبدو وكأنه يلعب من وراء ظهرها.

وإذ تذكر الخبر الشاب أحس بالخرج، فعفا أنه الجزء الظاهر من الدولة، يبدو كمن عدده، وتحده على الرغم من تحذيره له، قد يظن أنه خلف انتشار الخبر، بينما هو بريء من نشره. فاتصل به وأطلعه على الخبر المصمم، ونفى أية علاقة له بنشره في الداخل أو بانتشاره في الخارج، وما أعقبها من ذبول طفيف، وأكد له أنه لا يتنكر لدعوته، ويتحمل مسؤوليتها كاملة، وعلى استعداد للدفاع عنها. ما أدهشه أن الخبر قاطعه، ورد عليه بلا مبالاة، ويبدو من واقع خبرته:

«لا تهتم».

فلم يهتم، الدولة نفسها غير مهتمة. وإذا اهتم بها المستبدون من جماعات إسلامية وغيرها، فهذا شأنهم، ومحصور في المساجد لن يتعداها، وقد يمتد إلى الصحف الخاصة على أساس الرأي والرأي الآخر. أما الإرهابيون، فلا مكان لهم، فهم لا يعتقدون بالرأي الآخر، ولن يدخلوا مجالاً هم غير قادرين عليه، فقدرتهم على المناقشة السليمة معدومة، وثقافتهم الدينية ضعيفة. وإذا فكروا بالانحصار منه، فسوف يكشفون أنفسهم.

حطرت هيفاء:

«لا تس أنك مستهدف».

فقال لها صححاً:

«لو كنت مستهدفاً، لذهبت على العرج».

«لم يكن هذا رأيك».

والإرهابيون لا يقتلون بشباب السهرة، إنهم أعداء للأناقة الغربية، لديهم أزياءهم التقليدية التي لا يتخلون عنها، حتى لو كانوا هم وراء حادثة العرج، فلم يزد إرهابهم على صدام بسيط، فز رجلهم على أثرها عارياً.

ارتفعت معنوياته ثانية، هذه المرة على أرض الواقع، بعد أن استكشف ساحة المعركة؛ كانت شبه خالية، وشبه آمنة، يستطيع أن يخطر فيها بكل ثقة. غير أنه كان من جهة أخرى في ظلام؛ إذ لا أخبار عن المفاوضات!!

هذه الثقة لم تدمر أكثر من يومين. لم يتوقع على الإطلاق، أن يتفاعل الأعداء والرد في الصحف ويتوسع خلال فترة قصيرة من

الزمن ويحتل مساحات واسعة بعدما تداعى مفكرون من الدرجة الثانية وسياسيون من الدرجتين الثالثة والرابعة، ومنهم حزبون قدماء يجددون قوائم الفكرية، وحزبون جدد ينشدون مكاناً على صفحات الجرائد المحلية إلى مناقشة دعوة أصبحت قضية شائكة، سواء بأخذ جانبها أو بدحضها. ويعلم أن أغلبهم لا يكتبون إلا بأوامر وحسب التعليمات، لم تستفزه من قبل مقالات أشد جرأة، ما دامت الأوامر إصالتها. بينما التعليمات الآن بشأنه، كما يبدو، التركيز عليه!! حاول استعادة زمام المبادرة، بإرسال رد يتضمن تصحيحاً لبعض ما لحق بدعوتك من تشويه، جرى تجاهله. اتصل بهم، فدعوا بأنهم لم يتسلموه، أرسله ثانية، فأهمل.

عندئذ تذكر متأخراً، أن دعوتك لم تلق استجابة إلا بعد إلقاء المحاضرة بنحو أسرع، هناك من أثارها في هذا التوقيت بالذات، وأعد لها الاستقبال المناسب!!

قال لهيئاته قبل أن تبه مخاوفها:

«أعشى أنها ليست فرصة، بل كمين».



## الدعوة تتفاهم إلى حرب مواقع

كحين... وربما ما هو أشد وأدهى، نالت بواتره بسرعة! فالنقاشات انتقلت إلى المواقع الإلكترونية بأنواعها الفكرية الليبرالية والمحافظة، وامتدت إلى مواقع الترفيه والمنوعات، وهيمنت على غرف المردشة. حصدت إلبالاً بالغاً، دون أن تغفل اسمه من التداول، استعبدت معها مواقفه القديمة لغير المهادنة، وألصقت به، إعلاء لشأنه وتقديراً لأهميته، مشاغبات فكرية وطروحات جديدة.

سجلات سيفته بأشواط، وعلفته ورايعها، حتى أحس بأن أيادي خفية، ترشح دعوته، لیس إلى معركة فكرية خالصة، تنسج لأراء مختلفة، وإنما إلى نداء هائل للوقوع والتأثير، الهدف من تروجه إطلاق حرب شاملة شارك فيها علمانيون موتورون، وعقلانيون متهورون، وأنصاف عقلانيين، ولا دينيون عيشاء، وإباحيون أوغاد، ومعهم حاقنون على العرب والإسلام. أسهموا بفتح جبهات، لا

تكتفي بإبعاد الدين عن المدرسة، وإنما باستبدال مادة الديانة بمادة الترية الجنسية تحديداً، ما استفز المواقع الإلكترونية الدينية، ففتحت صفحاتها لهجوم معاكس على الملاحقة السفلة أذنان الطواغيت أعداء الإسلام! استهل بقصف ثقل، كان فاتح على رأس من أصابهم فثاقفه التكفيرية.

الحملة والحملة المضادة، فاقنا توقعاته، فاتصل بسليم ثانية، ليستطلع رأيه، وليرى ذمته تجاه حرب المواقع، وما تشهده من إقبال شديد على رفع لواء دعوة أسىء فهمها، واستغلت بحيث أصبحت الدعوة دعوات لا طاقة له على تحملها، فكيف بالندفاع عنها؟! فكان جواب الخير حاضراً، من وقع عبرته الإلكترونية:

والقد اعتدنا على هذه الصرعات الإعلامية، سرعان ما تأخذ حدها وتقف عندها.

ولكنهم تجاوزوا الحدود المعقولة، هدفى ألا تكون العثمانية عامل فرقة.

ولا تشغل بالك بهم.

أرهد تصويب موافقي فحسب.

ولا تتدخل حالياً، ألم تر أن العثمانيين العاقلين ترفضوا عنها.

والأنكى أنهم اعتبروها إحدى الأعيه.

إلى أي حد أخطأ التفسير؟! بون شاسع بين ما فكر فيه، وما تداعى عنه، وما بات يلوح في الأفق. فالدولة التي تراقب وتمنع وتسمح وتعاقب، لم ترسل أية إشارة. إلا إنا كان الخير النابغة بصفتها مثلاً لها أبلغه بالخير اليقين، وجل ما نصحه به القنصر

على منعه من الرد، وكان ما يدور لا يدور في الفضاء الذي يملؤها، ولم يمتد إلى الأرض التي يقف عليها كلاهما.

على الأغلب، لم يخطئ التفسير، وإنما أخطأ الرقم الذي اتصل به، لماذا يستشير خبيراً في الإرهاب، بينما المطلوب خبير في القضايا الاجتماعية والفكرية، هناك أناس في الفروع الأمنية، أو فروع بحالها، تهتم بهذه الأمور، كان على صلة معقولة بهم، تسمح له بالاستفسار منهم عن قضايا هي من اختصاصهم.

اتصل بأحد معارفه هناك، فحواله إلى آخر، والآخر إلى آخر، حتى وصل إلى الأخير المختص بالإرهاب والفكر والدين والمجتمع. أصنى إليه ثم قال له بأن قضيتك بكامل تفرعاتها وتفاصيلها الصغيرة والكبيرة عائدة إلى الخير سليم.

فأعاده من حيث بدأ، إلى النابغة، الذي لا يعطي قضيتك وقتاً كافياً، كان غائباً عنها كلية، لم يساعده برأي أو فعل، طوال مدة تصاعدها المتسارع، وانهال الانتقادات والتهجمات والتجريبات عليه، ولم يلتفت إلى معاناته. بل طلب منه البقاء مكتوف اليدين مكسب الفم، يمثل دور الحاضر الغائب دوماً الحاضر بتفويده ما لم يفتله، والغائب بوصفه المتهم المتوارى. حتى أنه عندما طلب منه التدخل لدى الجرائد لكي تسمح له بنشر ردوده، رفض بحجة فوات وقتها، مع أن المعركة ما زالت مستمرة، تضرم نيرانها وتطلق شررها وحسمها، كيفما توجهت.

بلغت ألفصاحا لدى المواقع الإلكترونية التي أخذت على عاتقها تأجيج قضيتك بمنابعتها من يوم إلى يوم، بإقتناها تصدر واجهاتها، وتسخرها كلما بردت. فكانت خير الأسوع الحالي، مثلما كانت

غير الأسبوع السابق، والأغلب عبر الأسبوع القادم! إلى أن باتت:  
الخبر الأكثر قراءة... والأكثر طباعة... والأكثر حفظاً... والأكثر  
إرسالاً بالبريد الإلكتروني. والأسوأ... الأكثر إثارة للتعليقات.

تعليقات كانت بالعشرات وفي بعض المواقع تجاوزت المائة بعدة  
عقبات، أغلبها سباب وشتم تكفيرية:

(تبع الله وجهك أيها الزنديق. كيف تتجرأ على الدين الحنيف؟).

(أبشر يا طاغر، مأواك جهنم وبئس المصير).

(لعنة الله عليك، فاسق وتدعو للإلحاد، انتظر برهان ربك).

وعلى هذا المنوال من التعوت المكفرة، تنوعت في غرف  
الردشة، وشملت التعوت البذيئة في مواقع أخرى، بسلسلة تبدأ  
بإين الشرموطة ولا تنتهي بأني القحبة. القائمة الملعونة الفاحشة  
التي يأنف منها المتدينون ولا يستخدمونها في تنفير غضبهم،  
وهي من الأنواع التي تجري على ألسنة العوام الجهيلة، وبعض  
العلمانيين بمختلف تدرجاتهم العلمانية، العقلانية وغير العقلانية،  
فهم لا يراعون التهذيب في شؤونهم كافة، يعتبرونه من  
المجاملات الاجتماعية، والتحايلات اليرجوزية، فيستعملون  
العبارات النابية عندما يضيقون بخصومهم وأولادهم وزوجاتهم  
وأنفسهم، ويتناشطون بها فيما بينهم على سبيل رفع الكلفة بين  
الأصدقاء. هل يعقل أن يؤازر العلمانيون المتدينين؟!!

جلبت حيفاء اتباعه إلى مصدرها:

ولا تظلمهم، إنها من فركة رجال المخابرات.

«لكنهم ليسوا علمانيين».

«وهل هم متدينون؟».

لم يفكر بالتعليق ولو باسم مستعار، الدفاع السليم يفقد حججه في معصية أقل ما يقال فيها، إنها مستنقع اعتلط فيه الحابل بالنابل.

مستنقع كان ضجيجاً مرعباً، يراد له ألا ينتهي، إلا بانفجار... وكل ما يجري فيه انحراف عن سياقه، الدعوة التي خرجت عن نطاقها، طريقة تناولها في الصحف، تسريبها إلى الخارج، اتخاذها حجماً مرعباً في الفضاء الإلكتروني، عناوينها اللافتة والمثيرة، الإقبال الشديد... والدولة ساهرة في نومها، والخبير سائر في لاهياله!!

هاتف سليم، والنفس منه منيراً برفع مستوى المعركة، ويخلص ما أصاب قضيت من إسفاف. منيراً راقياً، يفضح من خلاله مكيدة مشبوهة، وينفي دعوة باتت عرضة للتوهيل والتجريح والشهير. علق سليم بسخرية:

«كل هذا معاً».

«شأنهم طال العرض والشرف».

حضره سليم من اعتبار شأنهم طريقة متقاربة في الشارع على سبيل المزاح، وكأنها تمت للحقيقة بصلة.

«من سيصدق ما يتحدثك به، هل أنت غولاد!!».

ونصحته بعدم الرد:

«لا أظنك ساذجاً، فيها يعني تأكيدها. بينما هي بمجملها لا تزيد عن قفاعة صابون ستلاشى خلال أيام قليلة».

«هناك من يستفيد منها».

«هذه القضاها مرشحة لتسوت في أرضها، إن لم تنهأ لها التربة المناسبة».

غير أنها لم تمت، وكان التربة المناسبة قد عُييت، واشكر لها التوقيت المناسب، والأنصار المفرور بهم، وعملاء يرفعون درجة حرارتها، لا يدعونها تخمد للحظة واحدة!! بينما الأحق الذي أشمل قبلها، قد قلت منه زمانها.

بعدما استنفدوا مئات الشتائم مئات السمات، وأصبح اسمه نلراً على علم، طرأ على التعليقات تصعيد، كان آخر المطاف؛ نداء موحد يستصرخ أصحابه أولي الأمر، أو رجال النخوة والسرورة (من يكونون غير الإرهابيين؟) الاقتصاس من المرند الكافر:

(انصروا الإسلام بدمع هذا الزنديق المارق).

(أخرسوه وأجركم على الله).

(من لنا برأس هذا العظمي العاهر).

(لا تدعوا الشمس تشرق على الخنديع الماكي).

أجمعت الأغلبية العظمى من كُتّاب التعليقات على قتله، دون تمييز بين المتدينين ومدعي التدين والمتدينين بالفطرة، ومعهم عابثون أنغال تكفروا بالدين المقاتل، ربما كانوا علمانيين مهملين

وهم غير علمانيين، أو عقلانيين أو غاداً وهم لا عقلانيون.

فقال سليم غاضباً:

«أما أن لك أن تدرك الخطر الذي سأعرض له؟».

وعلما اعتبر من قبل الشتائم طريفة، وجد التهديدات سخيفة.

«الجمعية لا تقتل أحداً. كل ما في الأمر، أنهم يريدون إرهابك.  
هل أنت خائف؟».

«إنه تحريض سافر، قد يؤثر في أحد المهوسين المتدينين، ويدفعه  
إلى قتل». «إلى قتل».

«لو كان هناك من يصدق هذا الهراء المبهوث في الكثير من  
المواقع، لامتلات الشوارع بالبحث، ولسالت السماء كالأنهار».

لكن التعليق الذي أطار صوابه كان:

(اسحلوا الكافر الملعون، ليكون عبرة لمن احتسب).

فارتد إلى سليم غاضباً، يُشعره بقصر نظره، ومدى استهتاره  
بحياته:

«إنهم يريدون سحلي».

يستنهض بشكواه ذاكرة الخبير الذي شغل أبوه، هل هناك أبلغ  
من هذا التحريض في تصور ما يلقفه الدعوة إلى قتل من هيجان  
مسعور، وما آل إليه التساهل مع قفاعة صابون تتضخم وتنتفخ  
وتأبى التلاشي؟

فرد سليم بانزعاج:

«التاريخ لا يعيد نفسه».

وأغلق الهاتف في وجهه، وكأنه لا يستحق شرف السجل والتسجيل  
بجته، وتعليقها على عمود كهرباء.



## عرض بالحماية

منذ أخذت التهديدات تنهال عليه، مرفقة بالشتائم واللعنات، أخذ حفره. ما دام أنهم لا يراعون الحد الأدنى من التهذيب والتعقل، فليترقع الأسوأ، إن لم يتراجع جهاراً عن آرائه، ويشكر لها. لا رادع سيوقف المعلقين المجهولين ذوي الأسماء المستعارة عن التعدي عليه، ولن يشفي غليلهم أن يرتد عاصفاً ملغوماً مدحوراً. الحال واضح وقريب، سيجعلون منه أمثلة لغيره من المارقين السفلة.

لم يكن يبالغ في تخميناته ولا في أوهامه، التعليقات لا تكف عن التهيج، وأعلنت في المزيد من الانحطاط، والدعوات الهستيرية تطب في التمثيل به، فمن قطع يديه وقدميه ولسانه وعصيته، إلى تشويه وجهه وفقره عينيه.

وكان لهيفاء تأثير فعال مضاد للقلق، نصحته بتجاهل ما يكتب

«لا ترهب أعصابك، الحملة ضحك لن تتصاعد إلى أكثر مما وصلت إليه».

«إلى أي حد أنا قاتل على تحملها؟».

«ستجتر نفسها لفترة من الزمن، حتى يتعبوا منها، أو تحل قضية أخرى محلها».

ومع هذا واجه ما قد يصيبه على نحو باتس وشجاع:

«ترى ما الأكثر من القتل؟».

حاولت أن تقنعه بأن قصته بلغت ذروتها، خاصة بعد الدهشة إلى سحله.

«على الأقل، اتج بحياتك من الوسواس».

نصيحة هيفاء، وجدت تجاوباً لديه، ما المبرر للموت كمنافاً بالوسواس القتال؟ إن كان ثمة داع للموت، فليس دون موقف مؤثر، يقدم فيه أنموذجاً مشرفاً للأجيال القادمة.

«لا تنهروا، الأجيال القادمة محجوزة لهم».

غير أن بحث ارتياحه الجزئي، كان لأسباب عملية، استقاها من أخبار ترده يوماً، لم يطلع عليها فقط، وإنما أعرضها للتحليل: الخلاصة ما يسمى إليه المحرضون لن يتحقق، لماذا؟ الإرهابيون الشعاليون يقتله، مشغولون عنه وعن غيره من المفكرين بقضايا ليست فكرية ولا تصورية، وإنما لوجيستية، محددة بتجنيد المزيد من العناصر المقاتلة، وتدريبهم في مناطق نائية داخل البلد، أو في معسكرات خارجة بالبلدان المجاورة، وتأمين مخازن احتياطية للخلايا النائمة، وما يلزمها من تموين،

وتدبير مصائر للتحويل والعتاد والسلاح والتموين... والمدد العقائدي التكفيري.

أين قضية النافذة هذه، من طموحاتهم التي تتعدى البلد وتنتشر في العالم كله، مهمات يلزم لتحقيقها زمن وصبر واستمرارية، وإيمان لا يتطرق إليه الشك، وعتاد لا يتورطه الملل، وعزيمة جبارة لا تعرف الكلل، والأهم التخفي، هل يفضحون تنظيماتهم بقضية يوسعها الانتظار؟ حالياً لا أعرف عليه منهم. وحتى عندما يصبحون جاهزين للحرب والطمأن، ستجاوز قضيتهم على الأغلب، قضية أخرى، أهم بكثير وذات مردود أكبر.

«مثلاً، ستكون الدولة عندهم، وليس أنا».

وإذا كان ثمة من خطر حقيقي، فهو فادم من هذه الكفة الغامضة الجماهير، أي الشعب الذي يحتوي على ما هبّ ودبّ من أنواع البشر؛ فاضلون، محتالون، طيبو القلب، لصوم، أشرار، فقراء... إلخ، بجمعهم شيء واحد، غيرتهم على عقائدهم، يخرج منهم رجل أو أكثر، يترصد من مكان إلى مكان، يراقب تحركاته، ثم يعترضه عند منعطف ما، أو يباغته من خلفه في الشارع، يصرخ «الله أكبر»، ويضد عنجروه في صدره أو ظهره.

«رجل استحوذت عليه فكرة قلبي تقريباً من الله، لا تربطه علاقة بأي جماعة أو تنظيم، لا يحتاج إلى تمويل ولا عتاد، تكفيه أداة معدنية بسيطة، سكين مطبخ مثلاً. في حال لم تتوفر فسوف يحرقني بأظفاره وأسنانه».

هذا القاتل المرتقب، من المستحيل معرفته، رجل من ملايين جاهل وسجهول، على الأغلب غير متوازن عقلياً، يُهدأ خطره بعلم

إثارة هواجسه الدينية، والمحرص على عدم استفزازه بقول، أو فعل يتحدى معتقداته. لكن فات الأوان، ما دلم هناك من يعمل على تحريضه ليل نهار.

قاتل وهمي!! كان هذا آخر اجتراعاته، لكنه احتمال ممكن.

«قتل من ظهورك في الأماكن العامة».

«سيتوتني بالجين».

«ظليكن...».

إذا كانت الدولة نفسها لا تهتم لسمعتها، فلماذا يهتم بسعته؟ ألا يشينها مقتل مفكر حر من رعاياها على أرضها؟!؟

وكإجراء أولي، لن يمارس نشاطاً ثقافياً علنياً في المستقبل، مستقبل لا يتعدى بضعة أشهر. أصبح للوقت في منظاره الخاص مقاسات مختلفة؛ المستقبل القريب يقاس بالأيام والساعات، والبعيد بالأشهر. أما السنوات ففي علم الغيب.

أنسى ما واجبه هو إلغاء محاضراته، كان إقناعه على هذه الخطوة سيقاً إلى شخصه ومهيناً لكرامته كمفكر لا يهاب تعسف السلطة والإرهاب... ولا الموت. فلم يتجرأ على الذهاب إلى المركز الثقافي، اتصل بهم واعتذر عن ارتباطه بإلقاء محاضراته الشهرية لهذا الموسم، لأسباب قهرية طارئة.

التصرت احتياطاته الأمنية على عدم التقيد بمواعيد محددة لخروجه ودخوله إلى البيت، أو لذهابه وعودته من الوظيفة. ولم يسمح للزوار بدخول مكنته إلا بعد مراجعة الحاجب وإعلامه بواسطة الهاتف عن شخص الزائر وغرضه من الزيارة. في البيت لا

يستقبل أحداً، ويقفل الأبواب والنوافذ بإحكام، لينام مهلوساً غير مطمئن البال. وامتنع عن التردد إلى مقهى الروضة، مع أنه كان يذهب إليه لماماً، للعب الشطرنج مع صديق، أو لتبادل حديث مع أحد المعارف. بينما لازمه صديقه حسين كحارس شخصي في غدواته وروحائه القليلة، عدا العاطفية منها، مع أنها لم تعد عاطفية، أصبحت فسحة ليث هيفاء هواجسه، ويحتر أفكاره، ويتخفف مما يوزقه، حتى لتناقه منها، دون مكابرة أو إحساس بالذنب. ما كان يتنابه من مشاعر، قد لا يصح وصفها بالحين، لكنها لم تكن شجاعة.

بعدما ضبط حياته على الإيقاع الجديد، ضبن بقاءه نظرياً على قيد الحياة طوال فصل الصيف، مع أنه يعلم بأنه مهما كان بنظراً، لا شيء عملياً يمنحه حصانة نهائية أو مؤكدة ضد الموت غيلة، قد يهرون رأبهم، ما دامت الاحتمالات والتضجيرات في العالم على قدم وساق، تحصد المقات يومياً في العراق وأفغانستان، وتنتشر إلى الفول المجاورة والجملة، بعدما نجحت بضرب عدة عواصم غربية كبرى، ما الذي يمنع من امتدادها إلى هنا، ما دام الإرهاب يسري في الدماء، والأوامر بالقتل تنتقل عبر الأنثير؟! عدا أن المجانين كثر.

ترتيباته الأمنية، لم تكن متبعة، ولا تخلق من بعض الشر، ويوسع مجرم متوسط الذكاء اختراقها، حتى الدولة بإسكاناتها الكبيرة، لن تستطيع توفير أفضل منها. كانت إنجازاً معتبراً، تمنى بعده، لو أن سليماً اتصل به، وعرض عليه الحماية. عندئذ لن يتردد، سوف يقول له، لقد تأخرت، لست بحاجة إليك.

وكان أمنيه تحققت، سليم اتصل به، ولم يكن حسبما توقع

اتصالاً من أجل حماية عادية، لا تقدم ولا تؤخر. كان أكثر من هنا بكثير.



فاجأه عرض السخي على الهاتف! لم يكن رفع عتب، بل عرضاً كبيراً، سيوفر له حماية كاملة ومتكاملة!!

ولا يمكنك تخيلها، سأعلمك بتفاصيلها، ربما أصل لعنتك إلى المركز.

أخذته الفعشة، الموقف تجاهه انقلب رأساً على عقب. فسي كلماته التي أعدها له، هنا ما سعرضه عليه، يزيد على ما طالب به مراراً. حماية الواضح أنها غير مجزأة ولا ناقصة. ماذا تكون!! بالأحرى، ما الذي طرأ!!

في المكتب، هنا سليمٌ هنا غير سليمٍ ذلك، كان نادماً لأنه أصل شكواؤه، واعترف بأنه سيكون للتهديدات تداعيات مأسوية.

أخشى أنها ستعدى القضاء الاقراضي إلى الواقع الحقيقي.

الأمرات البادية على وجهه دليل على ما تعرض إليه من توبيخ شديد من رؤسائه على تفسيره. فلماذا فاتح بدوره أن يوبخه بأسلوب مترفع، لا تؤثر فيه إغرايات الحماية المفاجئة، فقال له قبل أن يفتح فمه بتفاصيل عرضه الكبير:

وإذا كان بشأن تفلاحي الشخصية، فأنا كفيل بها. وإذا كان من أجل محاضرتي، فقد ألتفتها.

سليم أيضاً استغرب، فاتح هنا غير فاتح ذلك، فقد طالعتك أيضاً إجراءات الحماية على مدخل المركز. فرغب في إحباطه، قال له كلمتين:

والكك تأخرت.

فوجئ فاتح، كانت الكلمتان التي تسمى أن يقولهما له 11 ما الذي قصده سليم بتأخره. هل فات الأوان على إجراءات الاحترازية، وعبثاً ما فعل، أم أنه يلومه على ما أقدم عليه؟ لم يحصل على جواب. فانتظره من سليم الذي قال بأصرار:

ولو ألفت محاضرتك قبل أن تلقىها، لكنت في متنى الصواب، ووفرت على نفسك حماية لا ريب أنك بحاجة إليها الآن.

لم تفته علامات الحيرة التي ظهرت على وجه فاتح، فأيقن أنه مهما اختلف هنا عن ذلك فيما الشخص نفسه. وكان فاتح قد استرد شخصيته على أثر ما سمعه، وأدرك أن الأمر جدي، والخير في مازق، لم يأت متطوعاً بل واضعاً، بناء على أوامر مشفحة بالتفاهة، ولو ترك الأمر له، لما حرك إصبعا لنجدته.

سليم مثله، استرد شخصيته بلا أمارات قدم على وجهه.

والأسف، الأمر تجاوز أية عطفة نمت أو ستقوم بها.

الأوامر التي جاءت بالخبر على عجل، كانت ترجمة لمعلومات خاطيرة تعلي عليه استدراك شيء ما. ماذا تكون غير عطفة مرعبة لفتله والتشليل به، تودي بسبعة فرج مكافحة الإرهاب إلى

فتر فمه منعولاً مما توصل إليه، لكنه سرعان ما انزعج من أوهامه التي تتفاعل بسرعة وتبني فرضية ضخمة يلمح البصر. وعندما أراد إسقاطها من حسابه، كان سليم قد استغل ذهوله قائلاً:

«استحسن أن تسحني».

لم يخف بكلماته هذه، عظم ما تراكب في رأسه خلال هنيهات، كانت نظراته الهلجنة تركدها، ومع هذا أظهر فاتح بعض الكبرياء.

«ما فحشٌ به من احتياطات، رغم بساطته كالف جنأ، فلا تسخف بها».

«أنا لا أسخف بها، بل أسخفها».



## الجهاز الدولي

تكلم سليم بسرعة، الإجراءات لا تحصل التأجيل، كما أن الوقت لا يسمح بالمنظمة أو المباحثة، ولا حتى بشرب القهوة. دفع الفرجان بعيداً عنه، مبرراً اعتذاره عنها. المهمة التي استدعت حضوره، كانت إبلاغ فاتح بأن حياته مهددة فعلاً، من قبل إرهابيين أصوليين من الجماعات المتأسلمة، أعدوا خطة لاغتياله. باتت على أعبء التنفيذ، لكن...

«ماذا تقول؟!».

نساءل مستغرباً، لا يستفسر، بل ليوجه اللوم إلى فرع مكافحة الإرهاب الذي أمضاه طويلاً، ولو أنه سيصلح خطئه. وهذا ما طمأنه لبرهة وجيزة من الزمن، سرعان ما انقضت، وعلمت ورامها إحساساً بشيء سيهوي فوق رأسه، ثم هوى وما زال بهوي وبهوي، وعلى وشك أن يسقط فوقه ويشطره من لغة

رأسه إلى أسفل ظهره. لم يسيطر على ما اجتاحه من قلق عاتق، كان الذي لا يزال يهوي ولم يشطره بعد، قد أحدث غللاً في الرؤية لديه، جراء توقفه الأصطناع الوشيك برأسه. أصابه بارتجاج شديد، أضر مشهداً أصبح أسيراً في داخله... إذ على بعد خطوات وقف شاب ملتجئ، كان مترهباً به، ينظّر الشرر من عينيه، سد نحوه فوهة مسدسة، وعلى وشك أن يطلق عليه الرصاص.

المشهد راوده، من قبل، بين حين وآخر، على هذا النحو تقريباً. لم يشعر بالخوف، كان مشهداً براه من مسافة بعيدة، وليس قريباً وعانقاً مكفأ، عدا أن التهديد كان تخيلاً، أما الآن فشديد الواقعية، هناك أشخاص تداولوا اسمه وأصبح على رأس قائمة المرشحين للموت، بعدما فرروا لإنهاء حياته.

ولا داعي للتولّي عن الأنظار، فقط إجراء بعض التغييرات على نمط عيشك، وربما تعود إلى حياتك الطبيعية.

ارتدّ فاتح من المشهد المرعب إلى واقع أشد رعباً، وإن كان بارداً، دون تهديد فوري، واحتمالات مفتوحة على السلامة. أنطقه بسؤال يصح وصفه بالجين:

«أين ساجد مكاناً أخفى فيه؟».

«يوسفي توفّر ملجأ لك».

أحس بالخجل من فقدان توازنه وتهاويه السريع. تماثلك أعصابه، واضطر حفاظاً على النظائر إلى التماسك، ولأم نفسه على لحظة ضعف دعت على حين غرة.

«ليس لدي سوى بيتي، ولا أريد مغادرتي».

«لا مشكلة، الحماية ستكون شاملة، حتى ولو كنت في العراق».

«عادته الشك، عادة تصدر وعود تبقى دون تنفيذ».

«هل يوسعي الاعتماد فضلاً على الدولة».

«الدولة لا علاقة لها بهذا الأمر».

توتر الموقف بينهما، ليس بسبب الخطر ولا الملجأ. وإنما بسبب الدولة، إذا لم تكن هي التي تحميه، فمن يكون؟! ألا يعمل سليم لديها، أو بالنهاية... أو بالوكالة... أو بدلاً... إن لم يكن عنها، فمن من؟!.

«لا تقل لي إنك تعمل بمعزل عن الدولة».

«أعمل معها ومعزل عنها، لكن لست وحدي، كن على ثقة».

«لم أفهم».

«انهم أمراً واحداً، هناك من يعمل على اغتيالك».

«من أين جئت بهذا الخبر؟!».

«الذي صادري».

«هل مصدرك موثوق به؟!».

«موثوق جداً».

«من هو؟».

«لا نسألني أكثر».

نشبت سليم في إعطاء المصدر، زاد في إصرار فاتح على معرفته،

كيف يسلم أسوره إلى جهة لا يعرف عنها شيئاً!

«لن أتلقى تعليمات تخص حياتي من جهة مجهولة. لن أتعامل مع أشباح».

«مصيري لديه الوسائل الفعالة الكفيلة بحمايتك أكثر من الدولة، عدا هذا لا يملك شيء».

لم تكن ماثرة سليم على تمويه صلاته بالجهة المجهولة مشتتة، كانت رصوة، كان بماطله، وليس بوجه التستر عليها، فهي أبعد ما تكون عن شبح. توقع هذا الإلحاح، فلم تكن مسانته نهائية، كان تمنعه من الكشف عنها شكلها لارمة لا بد منها، كي تراخذ على محمل الأهمية. من ناحية أن معرفتها ليس بالأمر السهل، مما يعطي تقديراً كبيراً لها، وهو أمر لا ينبغي أن يلتصق به شخص مطلع كفاتح فقط، وإنما أن ينهر به أيضاً.

بعد أن حرك فضوله، قال بصوت مشحون بالإثارة:

«جهاز أمن دولي».

فانهر فاتح. عدتة تولى الخبير بخبرته توضيح لماذا هذا الجهاز:

لم يعد القضاء على الإرهاب معركة دولة أو منطقة واحداً، بل البشرية كلها. ما استدعى تعاوناً فعالاً بين الوكالات الاستخباراتية السرية في العالم، ينسق بينها جهاز تدبره الدول الكبرى، وتشارك فيه الدول الأخرى بتزويده بما يتوفر لديها من معلومات عما يجري من نشاطات إرهابية داخل أراضيها. أصبح يُعرف بالجهاز الدولي لمكافحة الإرهاب، واختصاراً «الجهاز». يمتلك وسائل تكنولوجية متقدمة جداً، ويتحرك على مستوى الكرة الأرضية

## لمكافحة الخطر الأصولي الإسلامي.

كان شرحه الموجز سريعاً وغامضاً في آن واحد، ما أضفى على الجهاز دفعة إضافية من الإبهام أعطت أثرها فوراً على وجه فاتح الذي أصابه الذعر. فركه سليم بضع لحظات لتجليل ضخامة هذا الجهاز وما يمتلكه من قوة ضاربة، تشارك فيه الدول الصغرى بالنحس على مواطنيها. ثم بضع لحظات أخرى، ليقدر معنى تولّي جهاز دولي أمر قضية محلية، لا تزيد عن أمن شخص واحد. تلتها لحظات متوترة، ليستوعب تلك النقلة النوعية من حماية داعلية مشكوك فيها، إلى حماية دولية موثوقة!!

ولكي يكون على بينة، لن يخفي عليه أنه مرتبط بهذا الجهاز بعلاقة متينة، منذ قام بدوراته التدريبية في الستين للماضيتين في أوروبا وأميركا. وفي حال أراد التأكد من فاعلية ما يعرضه عليه، يكفي أن يدرك بأن الجهاز عابر للقارات، لا تقف في وجهه حدود على الأرض ولا في الفضاء، قدراته غير محدودة، يعمل على كشف بؤر الإرهاب، والقضاء عليها بأساليب سرية، وتحت تغطيات متنوعة، عبر مسارب خلفية فاعلة، تصل دون مراء إلى صميم شبكات عنكبوتية يجهل حتى أفرادها بعضهم بعضاً.

أبعثها برود بعض العمومات عما أبعثته من عمليات في نيويورك ولندن وروما والقاهرة والرياض... وأكد أن الجهاز بضع في حساباته خريطة لا تستثني بقعة من العالم مهما صغرت، مظهراً بجلاء مدى المبرفرة اللانهائية للعاملين فيه، وقدرات الجهاز التكنولوجية الهائلة في اكتشاف عمليات كانت ستزهق أرواح الآلاف من الناس الأبرياء... أين منها مسألة الخيال التافهة!!

سرعان ما أصلح سليم هذا الاستخفاف الإنساني الجسيم، صحيح أن الجهاز مختصر بالعمليات الكبيرة، غير أنه لا يغفل عن عملية صغيرة، كاختياله، لا تعادل أكثر من حادثة سير في بقعة ضئيلة القيمة استراتيجياً، لكن في ميزانهم، لا تقل قيمة عن أية جريمة دولية كبرى قد تشعل حرباً عالمية... إنها حياة إنسان ينفي ألا يشعر أنه وحيد بلا أصدقاء على الطرف الآخر من العالم.

وأما لماذا هم حريصون على حياتك، فدعماً لأصحاب الفكر الحر، دون أية منة، أنتم تشكلون عظم الدفاع الأول ضد الإرهاب. من طرفهم، هنا لا يكلفهم شيئاً، ومن طرفك يمكنك تفادي تضحية بلا معنى، بقليل من التعاون معهم. أما الجانب الإجرائي الذي جعلهم يسارعون إلى بسط حمايتهم عليك، فهو أنه ما زال في الوقت منسج لإنقاذك. اقتراح اغتيالك، لحسن الحظ، لم يحز بعد على موافقة أمر هذه الجماعة.

هذا ما تسرب إليهم من غلبة نائمة متباشرة عملياتها قريباً.

وما يُكسب لفضيحه جدية أكبر، تعرضه إلى اعتداء صارخ على حرمة، كان بمثابة تحذير له من الاستمرار في تحدي هذه الجماعات، أمثله، مع ما ألحقه بها فيما بعد في محاضرتنه، إلى عملية اغتيال لا مفر منها.



أساليبهم المتكررة، ولا يستعصي عليهم التكرر بأي مظهر مخادع. وهذا لا علاقة له بفعاليتهم السياسي والديني.

كان الجهاز مطلعاً بالكامل على أصغر الأمور، وإلا فكيف عرفوا بأمر لا تحتاج إلى اختراق جماعات متخلفة على أعضائها فقط، وإنما إلى سريرة أولئك الذين يتودونها من جمهورهم الخفية؟

وإذا كانت هذه الجماعات مخترقة بهذا الشكل العميق، فلماذا لا يقبضون عليهم؟ لم الانتظار، ما دام الجهاز لا يجهل شيئاً مما يجري، وسوف يعلم أيضاً بما سيحصل بشأنني من مناقولات في المستقبل القريب، وما سوف تنتهي إليه من الموافقة أو عدم الموافقة على قلبي.

«العملية أدق وأحفد مما تتصور».

نهض سليم من مقعده، واقرب برأسه منه:

«حركة الجهاز محدودة فوق أراضيها، فلا تلج، تفهم موقفهم».

«أئن يتعاونوا مع أجهزة الأمن المحلية؟».

«جزئياً فقط، لا يريدون أن يخسروا رجلهم داخل هذه الجماعة. لديهم خطط بعيدة المدى قد تشمل، إنهم لا يتقون بأحد».

وأكمل بصوت منخفض:

«بصراحة، وهذا سر احتفظ به لنفسك، الدولة تنازلت لهم عن هذه القضية، وأصبحت ضمن خطط الجهاز. وسوف يلتفتونك عن طريقني بكل ما يخلصك، مع حماية تساعذك على النجاة من أي محاولة لاغتيالك».

«ماذا أقدم لهم بالمقابل؟».

وكان ذكياً بسؤاله، إذا كان التعاون متبادلاً، فلا بد أن لديهم طلبات، تبدأ صغيرة، ثم تكبر وتكبر، ولا تقف عند حد. هؤلاء لا يعطون إلا لكي يأخذوا، بداية سيخسرون إلى عملائهم، ثم يدسونه على المثقفين، و...

«لا شيء، كن على يقين، لا شيء أبداً».

كان الجواب محبطاً لذكائه.

وقف سليم، ألقى نظرة إلى ساعته، لقد دهمه الوقت.

«فكر ولا تأخر بالجواب».

وخرج بسرعة، متجنباً سماع رد منه.

أطلق فاتح من النافذة، رأى سليم يخرج من المركز، ويهرع إلى سيارة كانت بانتظاره عند الرصيف. جلس في المقعد الخلفي، دارت به السيارة حول الحديقة، ثم انعطفت صوب حي السفارات.

إلى الجوار، كان المشهد الأخضر قد غاب، وتمددت تحت نظره، عواء الشارع وأناس قلائل، أسبح عليهم السكون هدوءاً مصحفاً. بينما سؤال يدور في ذهنه:

هل أصبح في بلده تحت حماية جهة أجنبية؟!



## حماية لامرئية

في الفترة الأخيرة كثرت زيارته لهيئاته. لا يدري إن كانت ترتاح إلى وجوده، ولا تزعمها هواجسه، ألست يخشى عنه وعنهما؟ يقعد مهسوماً، ثم ينطلق بالكلام على سجيته. وعندما يحلو لها الكلام، يصفي إليها، بينما يدور في داخله حديث آخر، من قبيل ما بات يحاوده.

تردد أمام بنائتها، في هذا الوقت المتأخر من المساء، كانت زيارته الليلية المتكررة مستهجنة بسبب الجيران وما قد يتقولونه عنها. وتزايد تردده، ألم يبلغ في إشراكها بمشاكله ومتاعبه، إن لم تهدد حياتها بسية، فسوف توضع تحت المراقبة؟

لمح من بعيد، شجراً متطاولاً يقف في نهاية الزقاق، يسرق النظر إليه. حديق إلى العتمة، لم يكن الشبح المتطاول سوى رجل طويل القائمة، يستند إلى الجدار، يمد رأسه ثم يتراجع نحو الخلف. هل

أدخلوه في برنامج الحماية دون أن يحصلوا على موافقته، أم أصبح هدفًا برصد الإرهابيون تحركاته؟! أحس بالخوف، ربما صدر عليه حكم بالإعدام، وأرسلوا إليه أحدهم لتنفيذه. ماذا لو ارتأى هذا الشيخ التخليص منه في منزل هيفاء؟!

سيضبط في الفراش، رجلاً وامرأة في ملبسهما الداخلي، أو بلا ملابس، يمارسان أو لا يمارسان التكاثر خارج نطاق الزوجية. يطلق عليهما الرصاص، ويفوز بنتيجة مزدوجة، ويكسب جزاء مضاعفاً، ويسجل بقتلهما نصراً إضافياً جلالاً. بينما تفقد نضحية القتل معناها السامي، كاعتداء ظلامي على الحق في الحياة.

ماذا يدعى هذا الاغتيال السياسي، الذي لن ينتج منه سوى فضيحة جنسية؟!

انتبه إلى أنه ما زال واقفاً في مكانه تحت شرفها، ونور غرفة القعود مضاء، وهناك رجل يراقبه، هل يعود لتراجعه؟ كان بحاجة إليها أكثر من أي يوم مضى، ضاق صدره بما يحمله، الجديد الذي طرأ، كان جديداً بحق، لا يستطيع البرح به إلا إليها، كان سراً دولياً.

سارع إلى المصعد، وكبس على زر الطابق الرابع. فتحت هيفاء الباب، لم يتلفظ بكلمة، دخل صامتاً. تابهته بنظراتها. قالت له:

«لن تعيد اليوم حكاية كأمثلك».

ابتسمت في وجهه، كان متعباً، فاحتضنها، وضع رأسه على كتفها، وأعفى وجهه في شعرها، يستعير بالأمان بين ذراعيها عن الحماية الأجنبية، وإن كان من غير ضمان، إلا بملازمة حفظها نمأً.

وما الذي عن علي بالك، وجاء بك في هذا الوقت؟».

كان ينتظر هذه الإشارة، فلم يهت إلا بعدما فضح السر الدولي مع العرض الذي حمه سليم إليه، وما دار في ذهنه من تخمينات واستفسارات. تسائل:

«الدولة تنازلت عن معالجة قضيتي وأوكلتها إلى الجهاز الدولي، لماذا لا أتصل مثلها، وأضع مصري أمانة لديه؟».

خلال حديثه، اكتشف أنه كان أسهل إلى القبول بهذا الحل، فحاول أن يرفع هيفاء إلى الوجهة نفسها، بتعليق كاد أن يكون مطولاً، أوجزه بأن العولمة عولمت الإرهاب والأمن معاً، فلم يبقا قائلين للتجزئة، أصبحا يخصصان البشرية جمعاء.

هيفاء لم تسعف برأي مؤيد. اعترضت بأن الإرهاب مهما كان الرأي حوله، بات الدفاع الأخير للبشر الذين يحسون بأنهم يطردون من التاريخ، ولا مكان لهم ولا لعقائهم على الأرض، وهنا ما يجعل الإرهاب انتحارياً وقصير النظر. وبالمقابل، من لا يعلم بأن السلب والنهب، هو العلاقة التي تربط الدول الكبيرة بالصغيرة. عندئذ، أين يكون القتل المتبادل هو أسلوب التفاهم الوحيد؟

كانت نشأتها الوطنية في المدرسة والجامعة، قد نجحت منذ ذلك الوقت في معادتها الجفوية للاستعمار والإمبريالية، وما استجرت به على الشعوب الضعيفة من استغلال وتبعية. فلم تثق بالغرب، ونظرت مما يأتي منه، الجيد والسيئ، وتساوى لديها ما يرسله من بوارج حربية ومعدات كهربائية منزلية تستعملها يومياً، من الغسالة والجلابية إلى عصارة الفواكه. أما العولمة وما شاكلها،

تعاير ملطفة للهيمنة.

خلقت أراؤها صدى لديه، مع أنها لا تخلو من التحجر، فهي من النوع الذي يوصف بالتخشب، حسب تعبير أعجبه ساد أخيراً، واستعمل في الصحف بكثرة ملحوظة، فتخشب هو الآخر. لكن بالنسبة إليه، الإرهاب قد يطوله، أما العولمة فتوفر له الأمان.

هيفاء غاضبة الآن، هل نحتاج الديمقراطية إلى الفاذفات الصلابة والديابات الثقيلة وأطنان القنابل؟! ما الذي نشره غير الدمار والبؤس والموت؟ الغرب متحضر في بلاده، وهمجي في بلداننا.

فاتح لم يستبعد أن تعدل هيفاء عن رأبها، غداً أو بعد غد، وتصبح أكثر تفهماً لأساسة التقدم وضحاياها، والتكاليف الباهظة للديموقراطية، مع أنها لن تتراجع عما أبدته من انتقادات، وقد تعترف بأن الحضارة الإنسانية واحدة، صادف أن الغرب يتقدمها حالياً.

«هل تعتقد أنهم حريصون فعلاً على حرية الفكر؟».

«لم لا؟».

«وإذا، لماذا تأخذ قضيتك هذا المنحى السري الدولي المخاطر؟».

«جاءت تسالعا، فلم يعلنا، حياته قضية إنسانية، لا ينظر التحقير

عشوائتي، جثث، أشلاء بشر وحيوانات، أسراب من اللاجئين المنكوبين، دمار على مد البصر، جنود يخترقون الجبهة الألمانية... في أسفل الشاشة، يدور الشريط الإخباري، اجتماعات وزراء الدول الصناعية الكبرى. مقتل ثلاثة مقاومين في غزة. الجيش الأمريكي يطوق الفلوجة، عبوات ناسفة، تدمير عربة نقل، قتل وجرحى، انتحاري يفجر نفسه في سوق...

وأبست عمليات الجهاز الدولي السرية داخل البلد اختراقاً لأمن الوطن؟.

أترك أنها ناكفة، فرجاءها:

«ما الذي يدور في رأسك؟».

«الحس الوطني استنفذ في داخلي».

تذكر بكل أسف، أنه كان في زمن مضى وطنياً بالفطرة، ما حال وطنيته تخلصت وفقدت تماسكها؟ لم تكن في السابق ضيقة، كانت منفتحة على أفاق رحبة.

اتسحت إلى المطبخ، لتتبع الأرز، وتسلق الفروج في طنجرة البخار، وتحضر طبقاً طعام غداء اليوم التالي، ليكون جاهزاً لدى عودتها من وظيفتها. ما أتاح له الدخول في غمار مناقشة مستفيضة، أنبغي له تجديد وطنيته!! إن لم لا ١٣٧٠ ما دام الأوروبيون والأميركيون لا يقبلون انتقاصاً من انتمائهم إلى بلدانهم، يتباهون بأعلامهم الملونة ويتفخرون بها، يرفعونها عالية، بمناسبة ومن دون مناسبة، وينشدون أغانيهم القومية، وينزعجون من ارتفاع أسعار النفط، ويدعون إلى احتياح بلاد الغير...!! ثم لا تعجبهم الحرب فيظاهرون احتجاجاً ضدها، ويدعون إلى الحب والسلام.

كيف ينجح الغرب في أن يكون إنسانياً وجشعاً في آن واحد؟!

سؤال، وعلى نحوه أسئلة كثيرة، كان يقصدها بحجة أن الدول الكبرى تجهل ما يجري داخل الدول الأخرى، ولا تعري بالاعتقالات والمساجين وحقوق الإنسان المهذورة واضطهاد المرأة. ثم فجأة يظهر أنهم يعرفون كل شيء من أصغر الأمور إلى أكبرها. ويطالبون بحكومات ديموقراطية، وقضاء مستقل، وإطلاق سراح الموقوفين... إلخ، لا يعلنون عما يخفونه إلا عندما تتهدد مصالحهم، فتحاصر الدول ويُشهر بالحكام، وتصادر حساباتهم في مصارفها، مع أنهم دعموا دولنا عجل حكومات فاسدة، ثم انقلبوا عليها، ولم يتورعوا بعد ذلك وبكل صفاقة عن أن يعقدوا معهم صفقات مخزية غير معلنة!!

ها هم، وحالته أفضل مثال، يهتمون بمفكر يكاد يكون مجهولاً على أرضه، لا يهتم به مفكروهم، وإنما رجال مخابرتهم.

حوالت هيفاء اتجاه أفكاره، فتخرج عن السؤال أسئلة، كل واحد يعود إلى الآخر، لم يكن هذا وقتها، ولم تفض إلى شيء، وبقي سؤاها بلا جواب.

تمدد على الصوفا، وتعجب من أن طرحه لأفكار تختلط فيها السياسة بالثقافة، جعله يخوض جدلاً سياسياً فإ طابع فكري، ولا يفكر بشيء لصيق به أكثر كالجنس، فهو لم يقرب امرأة منذ حادثة العرج!!

أغمض عينه، فيما كان صغير طنجرة البخار يأتي من المطبخ، واستلم للتوم، دون أن يت بأمر الحماية الأجنبية.

ما رزح تحت وطأته طوال يوم البارحة، وبقي على حاله ليلاً، نجلد صباحاً في المركز، عقب قراءته لخبر يؤكد حصول الاتصالات بين مسؤولين سوريين، وبضعة قياديين في الجماعات الإسلامية، عبر قنوات سرية، بعد أن تعثرت القديمة، وتولفت في بداية العام الماضي. الاتصالات بدأت ثانية قبل أشهر تحت صيغة مفاوضات، لم تستن أحداً من الجماعات الإسلامية المتطرفة وغير المتطرفة، تحققت في ظروف بالغة التكتم في مدينة أوروبية، وانتقلت إلى إمارة خليجية، بعد أن قطعت شرطاً متقدماً معقولاً، ومن ثم تاهت اجتماعاتها في عاصمة عربية، وقد انتهى فصلها الختامية قريباً في دمشق، تحت تأثير المساعي الحميدة.

كان الخبر تصريحاً غير رسمي لمصدر رسمي، رفض ذكر اسمه كالمعتاد، سرعان ما نفاه، فجرى ترحيل التصريح إلى شائعة حاول من أطلقها، أو من أوعزوا له بذلك، إثارة بعض التخمينات، لاختبار ردود أفعال أطراف عدة. كانت قد اتخذت مسار خبير شبه مؤكد، سئله في القرب العاجل أعمار ستكون مؤكدة.

الذي لم يذكره الخبر، لم يكن من الصعب تكهنه، وهو أن الآمال السنية على المفاوضات كبيرة، لو نجحت فسوف يعود الفاروق المنفيون والملاجئون إلى بلدنهم، بشرط التعهد بالتنازل عن أفكارهم الجهادية والتكفيرية، والانصراف إلى عباداتهم، وهو أمر لا خلاف عليه، لكن لم يمت بعد بأمر تشكيلهم لحزب منزوع السلاح، ممارسون من خلاله السياسة بقدر لا يزيد عن غيرهم من الأحزاب.

اعتقد، وقد انبثت وساوس قوية، أن الخبر الذي وقع عليه وقوع الصاعقة، ثمة جانب منه يخصه، إن لم يكن شخصاً كله له، كان ملاحماً لوضعه، ودلالاته واضحة، وينعكس عليه بشكل

إيجابي. مصيره لم يعد معلقاً على كلمة من قائد جماعة إرهابية، وإنما رهين مفاوضات استولت، لن يصبه أذى، إذا استمرت وحقت نجاحاً. والمؤكد في هذه المرحلة الحرجة ألا يفاخر أحد بقتله لثلاث نفضل المصالحة. وفي حال أخفقت، وهو المتوقع، ضل الأغلّب، وضعه في خطر.

«عندئذ من يحميني؟».

أصبح عرض الحماية عرضاً سخياً لا يقاوم، ما ألهمه قراره النهائي. فحسم أمره، واتصل بسليم وأبلغه بقوله حماية الجهاز الدولي لمكافحة الإرهاب.

من خلال حديثه معه، ألمح إلى غير المفاوضات، وتساءل عن مدى التقدم الحاصل فيها. أنكر سليم علمه باستئنافها واعتبرها خبراً ملفئفاً. فاستغرب فاتح وأغضى امتعاضه من عدم اهتمام مسؤول عن ملف الإرهاب داخلياً وخارجياً، بخبر أو حتى شائعة على علاقة بمسألة 11

سليم الذي أنكر، وإفاه على الفور برنامج موجز تضمن لمحة عن آلية الحماية التي ستطبق عليه بحذافيرها:

رقابة ليل نهار، على مدار الساعة، دون توقف، وبالتعمير الوظيفي ٢٤ على ٢٤ دولم كامل. تحركاتك ستخضع للرقابة، لن تقتصر على خط سيرك من بيتك إلى بنك المعلومات وبالعكس، بل ستشمل الشوارع التي تسلكها، المحلات التي تتردد عليها، البيوت التي تزورها، الأشخاص الذين تعرفهم، أو على تماس معهم، أو تقع عينك عليهم... إلخ. والأهم أن خصوصيتك مصونة، ولن تمس.



تتميز المراقبة بأنها غير مرئية. لن تضاهقك أو تشعر بوجودها....  
 لن يدخلوا معك إلى غرفة النوم، سيتوقفون عند الباب، جاهزين  
 للتدخل عند أي بادرة غير طبيعية أو حركة مشبوهة، مثلاً رجل  
 في الخزانة، أو خلف الستار، أو تحت السرير.

لم يكن يمزح، وليس من داع للحياء. الحماية ستكون محكمة  
 تماماً، لا يحرقها عائق، ولا يتوقف عند حد.

## عزف منفرد على البيانو

سمحت له الحماية الدولية بمعاودة نشاطه الثقافي، واقتصر على الإصغاء والمشاهدة دون المشاركة والمنافسة، فانتقل من منابر المتكلمين إلى مقاعد المستمعين. كان بالمقارنة مع ما اعتاد السجهر به في محاضراته، مستمعاً صامتاً، خاملاً وسليماً. ما نذى مشاعره، ما جدوى جلوسه ساكناً دون حركة، أتحرس ساكناً دون التلطف بكلمة؟ مع أنه تسمع بما طرح من إشكاليات عويصة، دون إجهاد ذهني بإيجاد حلول، أو تخريجات لها. حاول أن يكون متلقياً جيداً، بالاطلاع على ما كان يرد إلى الساحة الثقافية، بعد ظنه في السابق أن ما اكتسبه من ثقافة يكفيه لسنوات قادمة، فلم يقرأ أو يسمع أو يشاهد إلا ما يشير ضجة في الأوساط الثقافية، ولم يكن يستحق. كانت الضجة تفتعل بقصد الإثارة أو اصطيد الشهرة وجني المال. طبقت ثقافته صامدة على حالها، لا تتقدم ولا تتراجع، تعتمد على مخزونها، ثقافته الكثير.

لاستفراك ما فاته من تطورات، كانت الاستراحة الفسرية فرصة سانحة. فواظب على ارتياد المراكز الثقافية، وتابع ما تقدمه من أنشطة فكرية وأدبية، وعروض مسرحية وموسيقية وأفلام سينمائية وعارض فنية متنوعة. لم يمرض أكثر من شهر واحد، حتى أدرك أنه لم يخسر الكثير، فما زالوا يرددون الكلام نفسه، ويكتبون الكلام عينه، ويمثلون المواقف ذاتها، ما يُعرض سواء كان على شاشة أو عتبة أو على الجدران، أشبه بما عرض سابقاً، بعضهم يسرق من بعضهم الآخر، الذي كان يختلس الأفكار والمواقف والأحداث والأشكال... من الخارج بعد تعديلات كسولة ورديفة، فلم يُشهر أحد بأحد. كان السامع سارهاً بين الجميع.

أكثر ما راق له هو الموسيقى، كانت تريح أعصابه فشرح أفكاره، وبسبهو عن وجوده، تغط عيناه في الغناء الأوبرالي، وبنام مله جفونه في العزف السمفوني. ثقافته الموسيقية لم تكن غنية ولا والية، كانت فقيرة، لكن لا بد من التظاهر بأنه على مستوى ما يرد من الغرب من مستحدثات، لم تكن حديثة، أغلبها سمفونيات وباليهات قديمة، أُعيد تقديمها بتوزيع مجدد، أي بأسلوب عصري، حسب آخر صيحة، بهدف إطالة عمرها، ليفي قديمهم جديداً. فجددهم لم يكن جديداً كلية، كانوا يحافظون على قديمهم، ليزعموا بأنهم بلاد التراث الخالد المتجدد.

بينما نحن، وكان كلامه موجهاً إلى صديقه حسين، نهمل تراثنا تحت زعم أنه أصغر وبالي عفا عليه الزمن، ونعتقد أن الابتكارات نحو الماضي دليل عدم رشد، والحنق عليه دليل نضج. ولقد استغرب حسين تعليق الأستاذ فاتح، لم يعرف عنه حياً ولا تعلقاً بما راح زمانه.

وعندما حضر حفلة للفناء الأصيل، قُدمت فيها نماذج من طفاطين وأندول مصرية، وقنود حلوية وموشحات شامية، غلبت له روحها، مع أنها قدمت بحلتها العربية القديمة، وأحدثت في داخله ارتجاجاً لذهناً، وأعدته النشوة إلى معارج الاصطهاج. فاضطر أن يخفي إعجابها بها. كان الاصطهاج من سمات أمزجة العوام لا المثقفين العقلائين.

ما أحس به من نشوة، كان عالج عطوط علمانيته التي لا تحفل بالماضي المحلي. فما باله وهذا الفناء بعيد وبكره، ويذهب بالمشاعر إلى عذر التطرب الشغيب للمعطق والرعي، بينما الموسيقى الغربية الرافية تخاطب العقل وتسمو بالإنسان إلى العلاء والمعالي، ما أثبت جدوى الماضي والحاضر والمستقبل الغربي في سيرة الحضرة العالمي.

ولقد انطرب، على الرغم من الأزمنة الغربية، ولم يجد بأساً في التعامل على وقع ناي ليل وما عين، وترديد الأهات بينه وبين نفسه، والاستسلام لنفحات العود والقانون والبرقي. وأحس بالخيانة مزدوجة، لأنه استمتع بها سرّاً، ووفرتها له حماية كانت تحت الرعاية الأجنبية.

نشاطه الثقافي الزائد لم يكن لاستفراك ما فاتته فحسب، كان مقصوداً، لسبب له علاقة بالكرامة، فهو لم يتهرب من مسؤولياته كمفكر، واضطراره إلى إلغاء محاضراته لتلا محادث بليلة بين الجمهور حفاظاً على الأمن العام. كان من لوازم إعادة الاعتبار لشخصه وتصحيح صورته الظهور في الأوساط العامة، كي لا يُظن أنه يخشى على سلطته الشخصية. لذلك لم يتأثر ممن كانوا يرشقونه بنظرات الأزدرام، كان عدم توارثه يعد تحدياً لهم. بينما

شكلت له نظرات الإعجاب والتقدير تعويضاً مستلزماً.

لكنه لم يشعر بالأمان، كانت مظاهر الحماية الأجنبية من فرط لامرئيتها، تبدو وكأنها معدومة تماماً!! لا سيما عندما لاحظ عونة الشبح المتطاوّل إلى الظهور في أوقات متباينة، تارة على رصيف مركز المعلومات، وتارة أخرى أمام المقهى، أو كما رآه أول مرة إلى جوار بناية هيفاء. تجسد مراراً، بهيئة رجل نحيل طويل القامة، لا يبدو عليه أنه رجل أمن، ولا عميل دولي، وإنما مجرم من النوع الغريب الوقح، برمقه بنظرات شريرة، وعندما يصبح على مقربة منه، يهيم بالانقراض عليه!!

هنا كله، دون أن تخرج الحماية عن لامرئيتها وتشكل إلى جواره، أو خلفه، أو على مرأى منه. ولقد اضطرب مرة، وقد رآه يتبعه بشكل ظاهر للعيان في سوق الخضار، بشي وراه من بائع إلى بائع، ثم يصدمه بكشفه، إلى أن يطلب من الشرطي القبض عليه، إذ بسيارة توقفت، انفتح بابها، امتدت منها يد شدته إلى الداخل، لتطلق به.

لِإِذَا حَمَاة لَا تَظْهَرُ، لَمْ تَفَارِقْهُ الْحَشِيَّةُ مِنْ اعْتِدَاءِ مَفَاجِئِهِ، فِي وَقْتٍ لَا يَجِدُ مِنْ يَدِجْدِهِ، فَكَانَ إِذَا التَّرْبُ مِنْهُ مَسْئُولٌ أَوْ عَابِرٌ سَبِيلٍ، أَوْ عُلِقَ فِي الزَّحَامِ، تَتَوَفَّرُ أَعْصَابُهُ لِمَجْرَدِ احْتِكَالِكَ مَرْفَقِهِ أَوْ سَاعِدِهِ بِأَيِّ شَخْصٍ. يَفْشَرُ بَدَنَهُ، وَيَحْتَسِسُ الدَّمُ فِي عُرْوَقِهِ، يَشْعُرُ بِالِاخْتِنَاقِ، وَيَجِيلُ بَصَرَهُ بِاحْتِئَازٍ عَنِ مَنَفَذِ لِلنَّجَاةِ. وَكَثِيرًا مَا اعْتَلَجَتْ فِي دَاخِلِهِ رَغْبَةٌ جَارِفَةٌ فِي الْهَرَبِ بِعَيْدًا، وَالِاخْتِيَاءِ فِي مَكَانٍ مَنَعُولٍ فِي غَايَةِ أَوْ جَبَلٍ.

حاول الاتصال مراراً بسليم، ولم يظهر به، فاعتقد أنه سافر بمهمة

خارجية، وتركه دون أن يجري الترتيبات النهائية لحمايته، أو نسي إعطاء الإذن بتنفيذها، وربما يعود أو يتذكره، قلص نشاطاته إلى الحد الأدنى، مع الاستعانة بالحماية القديمة والمتواضعة، فطلب من حسن مراقبته عند الضرورة إلى الأماكن العامة.

هذا الإجراء لم يدم أكثر من أسبوعين. في دار الأوبرا، اقترب منه خلال الاستراحة بين فاصلين، رجل عمره خمس الكشوفين عاقد الحاجبين، نقر على كتفه، وأشار إلى مقصورة أطل منها سليم،

مرفق، وتعالى عمنه مثل أحيح مكتوم، وكان لديه أسبابه، فهو لم  
ير أحداً بحميه، لا حراسة ولا ملاحقة ولا مراقبة ولا ترصداً...  
حتى من يهدا!

«يحتشدون في مراقبتك على الأقطار الصناعية».

«ماذا عن التحرك على الأرض؟».

«التحرك الأرضي يجري بالتوازي مع الفضائي، هناك جماعات  
جاهزة لإحباط أي هجوم عليك، لديهم جيش من الصلاء. اسألني  
كم تأخذ عملية التخاطر بين الفضاء والأرض؟ أقول لك، في التنو  
والمحظة».

بان على فاتح عدم التصديق. وتساءل:

«أين هم الآن؟».

أشار سليم يده إلى الصلاة، ورفض الكشف عن أماكن جلوسهم.

«يعنيك أمر واحد فقط، توفر الحماية».

ولفلا يظن أنه مهمل، أعلمه بأنهم منعوا ثلاثة من الإرهابيين من  
التهجم عليه.

«جرى اعتقالهم، وما زالوا يحققون معهم حتى الآن. أحدهم لا  
بد أنك لاحظته، ضبطوا معه حيلاً، كان ينوي أن يخونك به».

«من هو؟».

«الرجل النحيل الطويل، قد تراه مجدداً».

«هل أطلقوا سراحه؟».

«ظهر أنه أهل، لا خطر كبيراً منه».

«ماذا لو...؟».

«لا تخف. كل شيء تحت السيطرة».

أغلق ملف الحماية، لكن بقيت ملاحظة واحدة، أكد عليها قبل أن يغادره، ألا يقوم بأي نشاط فكري. باعتصار، لا محاضرات حتى إشعار آخر.

ما أكد في ذهنه أن المفاوضات الجارية مرتبطة بالمحاضرات الموثوقة. لكن على أي نحو بالضبط؟



## ذكري عيد الزواج

تحدثت مشكلته مع الحماية الكاملة في أنها متكاملة بالامرئيتها، ورجالها الكثر اللامرئيين متواجدين بكثافة بشكل لامرئي في الأماكن الحرة، وعلى استعداد للتدخل اللامرئي، بأساليب لامرئية في أية لحظة.

لم يقتنع بتكبية شفافة امتيازاتها غير منظورة، ولا محسوسة أو ملموسة، مع أنهم قبضوا على ثلاثة رجال، أحدهم يحمل حبلاً. لن يمسر عليه، ولو كان أهبل، في ظل حماية كهذه متخفية تحتاج إلى وقت للظهور، أن يعلقه على المشقة، قبل أن يتمكنوا من مطاردته والإسائه به.

وقبلها، كان إنكار سليم للمفاوضات لاقتاً وبدعو للتساؤل، بل وحثه على صرف النظر عنها. لماذا حاول إخفاها، واعتبرها غيراً ملفقاً؟ على هذه الحالة، ما أكثر الأعباء الملققة!! هل أراد أن

يقه في ظلام بثاتها؟ لم يستعد هذا.

باتت المفاوضات أمراً يعنيه. ولهذا السبب وحده، أخذ يلاحق سجلياتها يوماً بيوم. ولم يكن صعباً عليه تتبعها ساعة بساعة، رغم أن جلساتها السرية لا تعقد إلا كل فترة من الزمن، تسبقها اتصالات وتعقبها مشاورات يتكتمون عليها، إذا ما تسرب عنها شيء، فضيل، تختلط فيه الحقائق بالشائعات والشكهنات.

كان الحصول على نتائجها من أسهل الأمور، ما دامت نصب في بنك المعلومات، لا يذهب إليها، وإنما تأتي إليه، لا يبحث عنها، وإنما تنهال عليه. صحيح أنها تكذب بعضها بعضاً، وما يُسرب منها اليوم، يُسرب بما يتلفه غداً، أو بعد ساعات، وربما دقائق. عموماً، ينهي فرزها، وتفتتها مما يشربها من أطاويل لا صحة لها.

كادت الأخبار تنوحي على الشكل التالي؛ اتصالات تجري، تتوقف لتتلوها مفاوضات، تتوقف لتعقبها مشاورات، تتوقف لتعود إلى نقطة الصفر، ومن ثم لتجري ثانية، كأنها لم تتوقف، في انتظار نهاية معلقة، لم تحسم.

المهم، العملية مستمرة.

وكانت جارية لم تنقطع، فأحس بالأمان الذي لم توفره الحماية، وتعزز بشكل قوي بعد أيام، عندما نُقل خير عن انتقال الاجتماعات إلى دمشق، هنا ربما على بعد مئات الأمتار، دون أن يؤكدوا مصدر رسمي. اكتسب الصدفة عندما تناوكت الصحافة العالمية بالتحليل، ولم يكذبه الإعلام الرسمي للدولة.

وعندما كادت الصحافة المحلية أن تعلن عن المفاوضات، بدأ

وكان الطرفان على وشك إنهاؤها بإصدار بيان اختامي عما توصلا إليه من اتفاق، وكان مرضياً لهما، لكن تُعقَد في اللحظات الأخيرة، وأرجئ لبضعة أيام، ربما يُجري كلاهما بعض المشاورات الإضافية، الطرف الأول مع مسؤولين في الرئاسة، والثاني مع قيادات في الخارج. وهي فترة قد تطول، خلالها يحدد حساباتهما على أساس اتفاق أخير، شامل ونهائي.

لم يتضاعف إحساسه بالأمان فقط، بل وشالطه شعور جديد، مفرط في القدم، عاوده بعد زمن طويل لا يقل عن عشرات السنين من عدم الأطمئنان، الشعور بالحرية في وطن سيختلص قريباً من مشاعر البغضاء والكراهية والثغور. كان يقينه الطاغية بأن الأمان الحقيقي ليس أن يشر به وحده، بل الجميع.

واتاه هذا الشعور في وقت كان ملائماً، فقد حلَّ عيد زواجه في اليوم الأول من كانون الثاني، وكان موعد الحفلة السنوية التي يعدها للمرحلة. أزروه شتاء غابت أمطاره وحضر صقيعه، باغت دمشق عاصفاً، يبرد فارس ورياح قوية، تراجعت حدتها في ليلة رأس السنة، بسقوط الثلج طوال الساعات التي سبقت وأعقبت قدوم العام الجديد، فبزغ الصباح مجللاً بالبياض، واستمرت ندف الثلج الصغيرة تتطاير في الفضاء طوال النهار، تنهال كهباب ناعم، تخفف زخات عفيفة من المطر.

مع قدوم المساء، كان المشهد جافراً، لحظات الاحتضار القاسية تجددت بلمحة خاطفة، وكأنها إشارة البدء بحفلة لم يُخف مطلعها أحزانها، فالآهات المترجمة وأناث الأمم شرعت السكون، واحتل المشهد صورتها، شرها الكستنائي يحيط بوجهها الأصفر مثل هالة داكنة اللون، العرق منصّب على الوجنتين والصدر،

والعيان غائران تحجرت فيهما الدموع.

أبعد ستارة النافذة، فأنكشف منظر تنالت فيه الأضواء الصغرى، أضاف جرحاً عميقاً إلى الآلام اللغنية، بحث في نفسه شعوراً بنقاء نظيف حافظ على شعلة الحب متوهجة. كان الثلج قد ترك في الشارع وفوق السيارات وسطوح الأبنية والأرصعة وعتبات دكاكين السوق يابسه مطلقاً برداء شفاف من الرمادي الباهت، لبنا يابسه شاحباً. لم يكن هناك ما يأمله أو يتمناه، أو يتحسر عليه. فلم يتصل إطلاقاً بذكرات مراسم عيد الزواج.

أزاح جزر النافذة قليلاً، فتسللت كالمعتاد من كل سنة، نسمة باردة منعشة مشبعة بالرطوبة، منحت الغرفة المحتفنة بالأشياء أنفاسها العسيفة وروايها الشجي، وحررتها من الفراغ الموحش، وأتقال الجدران والباب الموحد، والباب الآخر المفتوح على أشياء الراحة المبعثرة فوق الفراش. التلفزيون صامت على غير المعتاد، والباب المغلق المؤدي إلى المطبخ، لا تتسرب من خلاله الرائحة الفواحة لقلب الكاتو.

كانت المقدمة المتلكفة، دونما أصوات ولا روائح، أكثر صلاحية لممارسة الطقوس المتواضعة، الجميلة والأثيرة إلى نفسه، في عيد لا يشاركه فيه أحد من الأحياء، وإنما امرأته يستعملها من قلب الموت.

وحيداً، يتلمس وجودها لا عيالها، من خلال الصور والأثاث والملايس والتذكارات. لم يحس طوال الأعياد الماضية أنه كان قريباً منها، ولو لمجرد التصور، كما في هذا العيد، مشاعر الخوف من القتل التي كابدها خلال الفترة المعيبة السابقة قرّنت إليها،

فتمنى مهما كلفه هذا التوق، ألا يفارقه كلاهما، رغم أن الحياة باتت مشرعة على أفق مديد، والموت عاد مؤجلاً إلى مواعده في علم الغيب.

كان الشهيد الذي طالما تطلب منه التظاهر أنه يتخيلها، يتطور عادة إلى ما يرغب فيه من مشاركة، فيتخبط معها في حديث مشوّق من طرف واحد، يصطنع مادته من نفعات ذكرياتهما المشتركة. اللبلة، لم ينس بحرف مسرع، ولم يتوقع أن يسبح منها شيئاً، حتى لو تعلقت الكلام، أو تذكرت ما تعبته الكلمات.

كان وقد اعتنق من المفاوضات والحماية، ورفقاء يعقون عليه أنفاسه، وقللة يتظرون الأوامر للإجهاز عليه، طليقاً في مكان ضيق بين الشموع والورود ونسائم نسري باردة، لا يعياً بالاعتقالات والعملاء واحتمالات الموت. هذه الجدران، لا تربطه بالأرض، ولا ذلك المنظر المعاني بالثلج وأتوار تترامى عاتقة.

هنا في مكان قصي، لا يدري أين هو حقاً، وزمان طليق بلا حسابات واحتياطات ومحاضرات. هنا حيث لا سياسة ولا إرهاب ولا إسلام ولا عقل ولا علمانية. جنح به التأمل والأسى، فأخذ حرته في الحزن والتفكير والشطط. صارحها، ولم يكن يتدع، أو يستحرم، أو حتى يتظاهر، وهي إلى جانب، ترمقه ما زالت بنظراتها ذاتها، الحنون والداغقة، تتردد أنفاسها أكثر من أنفاسه، تعلق بصوتها الأثني من زمن بعيد أكثر من صوته الذي لا يسمعه غيره. قال لها إنه يحس، وإن كان مجرد إحساس، لكنه يقيني، بأن نهايته على الأرض دنت، واللقاء قريب.

كان ما يقوله يناقض ما توصلت إليه المفاوضات، وما بشرت به

من سلام، فبات يحتاج إلى شرح طويل، شرح لا يبرر فيه مخاوفه، بل يخفف له تخالفه، وأن يعيد سرد وقائع ما سبق من أحداث جسم، انتهت، أو تكاد أن تنتهي على غير، وإن كان لا يخط نفسه على موقفه فيها، سذهب في سبيلها، محملة بمواقف غير لائقة.

غير أنه تذكر بأنه يعيش في الماضي الجميل، ولا ينبغي تنقيحه بالماضي القريب غير السعيد. فقال بمرح وكأنه يلقي بنكتة سوداء:

ربما كنت في استعراض، ليس لي من دور فيه سوى الرجل  
المفلوب على أرمه.

لم يسمع جواباً. فأجل حديثه برمه، إلى موعدهم القادم في العام التالي، وربما أقرب بكثير، موعد إن حالفه الموت، فسوف يأتي مبكراً، لن يأخذ أسابيع، بل أقل بكثير، بضعة أيام، لو صدقت هواجسه. عندئذ سيشرح لها كل شيء، وجهياً لوجه.

«هل هذا يرضيك؟»

لم يلمس منها رضى أو عدم رضى، ما الذي يعنيهها من الأمر كله سوى هذه اللحظات المسرقة من الموت والحياة؟

في هذا اليوم السعيد ارتكب حماقة، تجاوزت بتداعيات خياله المنهك، عهداً كان أن يكون بهيجاً، نكتته بوساوس استعارها من حالته الأرضية، وعكس جلسة لطيفة تمت إلى السماء، لا تحدث سوى مرة كل عام، وأصبحت على وشك التحول إلى مساة ودموع. كان الأجدر ألا تهدر على أوهام بالسة.

وإذا تمني، فألا تجهل ما يعاتبه من أجلها، في سبيلها يتخفف من علمانيته، ويقتنع بقاصل روحي، يُظلمها فيه على أحواله، وحياته تنزق إلى أخبارها، ولا تشتاق إليها. بورك وإن متأمرًا، كان عليه أن يحاظر قصة الموت الذي ملته وكرهته.

لماذا يتبأ نفسه بالفجعة؟

## تحولات مرئية

بعد فاصل الذكرى الحزينة والعيد البهيج والذكريات المؤلمة والمشهد الشتائي والوداع المؤقت والتداعيات البائسة، عادت الحياة في اليوم التالي إلى طبيعتها، ولم تكن طبيعة تماماً، عائلتها السقم والتوفّر.

بعدها تباطأ الزمن، طوال شهر، مرّ كأنه عدة أشهر، إلى أن أثير غير رفيع معنوياته ودفع الزمن إلى الأمام، فلنجد إيقاع الأحداث متسارعا من جديد. غير لم يزد على بضعة أقوال تناهت إليه، تداولتها دوائر غريبة عديمة: الجلسة القادمة هي الجلسة الختامية من المفاوضات، ستكون حاسمة، تفتح صفحة جديدة، ونحدد وجه البلاد لبضعة عقود.

نأيد ما سمعنا، بما لثق إليه مستثمرون ونجار على علاقة بصناع القرار، عبروا فيه عن ضيقهم من مشاورات طالت.



فاتح لم يستعجل حلولها، المستحسن أن تأخذ وقتها كاملاً. وربما تلتزم وتطور عملتها ثانية، ما زال هناك متسع للاسترخاء لا سيما أن أصداءها أخذت تترسخ، وسائل الإعلام تناقلها بحفر دون أن توفرها من التحليل، وتنقلها إلى جمهور عريض بدأ يتأهب لنفس الصعداء. وإذا أنكسر الناطق الرسمي علمه بها، فالمصدر المسؤول الذي لم يعلن عن اسمه، لم يُكذَّب عبر المفاوضات السابقة واللاحقة!!

قال لهيفاء، إذا بدأت الصحافة تناولها بشكل عادي في أعيانها وتحليلاتها، فهذا يعني أنهم يتوقفون لها النجاح. بشائر المصالحة هلت.

بدأت الجولة التي ستكون مشهودة، تأخذ أبعادها، قبل أن تسهل جلساتها، يضح المعلومات المتناحضة حول ما اتفق عليه، أو ما سوف يتفقان عليه، كانت الخطوط العامة المختلف عليها، قد ذُلت وجرى الانتقال منها إلى التفاصيل بعد أن أبلغ الواحد منهما الآخر بالتعديلات المطلوبة. الجلسة المنتظرة، لن تكون سوى اجتماع لإعلان البيان النهائي. أي أن المفاوضات الفعلية تجري الآن، داخل كل طرف بمنزلة عن الآخر على شكل مناقشات موسعة، تُضيق شفا الخلافات بين الأجنحة المختلفة للجماعات الإسلامية. أما الدولة فلا مناقشات في داخلها، لن يتزحزحوا عن طلباتهم. الشروط واضحة: عودة الإسلاميين فرادى، لا تنظيم بجمعهم، ولا هوية تعلن عنهم، أو لافتة تشير إليهم. نشاطهم المدني لن يتعدى الجمعيات الأهلية والأعمال الخيرية. أما السياسي، فمن خلال الأحزاب الوطنية، الاشتراكية والقومية، دون أية صفة دينية، تمزجهم عن الأديان والطوائف والمذاهب الأخرى.

فيما كانت طلبات الجماعة الإسلامية القصورى، تنازلات قصوى، لم تزد على طلب السماح لهم بممارسة نشاطهم الديني تحت صيغة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبحدودها المتواضعة الأدنى، أي بالعمل على تغيير المنكر بالقلب واللسان فقط، دون استعمال اليد، أي بأضعف الإيمان، افتناء بالحدث النبوي الشريف.

غير أن الدولة اعترفت بأضعف الإيمان، التغير بالقلب لا باللسان، حسب آراء مستشارين مختصين، مدنيين وعسكريين، كان للإعلاميين منهم دور كبيراً ما يقصد باللسان، ليس فصاحة الإسلاميين المعروفة، بل قدرتهم على التهييج بالكلام مكتوباً أو شفهياً، وأكثر من تجربة تشهد على قوة دعاوهم المبثوثة في منشوراتهم، أو ما تردد منها في زمن مضى بالمساجد تحت غطاء العمل الصالح، فإذاً به ينهب إلى الحاكم الغاشم. كان اللسان فيها أحدً من السيف وأمضى. وحسب تجربة المستشارين من رجال العمليات والمداخعات، اللسان أبلغ من البندقية، والكلام أقوى من الرصاص، وأوا من مفاعيل بلاغته المناهضة، طبقاً لأدبيات التحريض الإرهابية، رجالاً لا يهابون الموت في حرب المدن، وقلوباً جريئة في الدفاع عن العقيدة، وبدأ ثابتة في الاختيالات.

فجرى تحديده أضعف الإيمان بالقلب فقط: لا خطابة ولا نصيحة ولا دروس دينية حتى تلك التي تدور حول الفقه والشرعية والسوابث والحيض والنفاس... والسبب، قد يستعملون لياقتهم التحريضية في أية لحظة، ويندفعون لا يلوون على شيء إلى قول الحق مهما كانت عواقبه، فيجترلون على ما لا يُجترأ عليه، لا

يخافون في الله لومة لائم!! فتشدد عزائم الناس بأحاديثهم، ويستقرون بحججهم، فيتوكلون على الله، وتشن الأمة الحرب على الدولة، ينزلون إلى الميدان، وعذ بعدعها... قتل وتقتيل، تفخيخ وتفجير، حرائق ودمار. من يوقفهم عن طلب الحق لا سيما أن الحق إلهي!!

في انتظار الاجتماع الأخير، عجت فترة الاستجمام بالأخبار وحفلت بالتوقعات المتفائلة، انعكست بشكل مهدئ على رجال السياسة بتصريحات مسالمة. توقع قاتح بالمقابل أن تنعكس أيضاً في الكواليس على الأجهزة المخارطية السرية، على رأسها الجهاز الدولي، بسنح هؤلاء الذين يتحملون عناء مراقبته وحمايته، إجازة هم بحاجة إليها بعد أسابيع من العمل اللامرئي المضني، استنزف جهداً أكبر وتكاليف أكثر من المراقبة العادية، لتطلب الدوام الطويل والتنمية والتوراي والتغطية والتسكّر. إجازة يستفيد منها مادياً جهاز ضخم يحرك عشرات من العملاء، يعملون في ظروف صعبة على أرض أجنبية، مما يستهلك مصاريف إضافية، عدا تعرضهم إلى مخاطر ليست بالحيان.

لكن ما انتفضه سابقاً من مظاهر ملموسة، توفر منه ما يزيد على المطلوب بكثير، برقابة ضالة ضللاً، وحماية شاملة تماماً!!

الإجراءات تحولت من لامرئية إلى مرئية... تفتأ العينين لا تكف عن العمل ليلاً ولا نهاراً، يؤكفون وجودهم في كل مكان، في الشوارع والأزقة، تقاطعات الطرق، عند إشارات المرور، في المقاهي والحدائق ودور السينما، فوق السطوح وعلى الشرفات... إلخ. ثم استأجروا طابقتين على الطرفين المقابلين، الأول مواجهة بيته، والثاني مواجهة المركز، شرعت نوافذهما، وبرز من كل

واحد منها، فوجهه منظار مقرب، شد الأول إلى غرفة القعود،  
والثاني إلى مكة مباشرة!!

كان مرافقاً مائة بالمائة، في كل حركة يقوم بها. كانت وبالضبط  
تلك المراقبة التي حدثه سليم عن مزاياها، كاملة ومتكاملة، مع

عرض الحائط بتعليقاتهم، وكان في صمت المسزولين، نفحة كبيرة من الارتياح، نكابة بالاعتراض الذي أحدثه الخبر.

كذلك، عاد الأهل الطويل إلى العمل، هو أيضاً كان غالباً عما جد من جديد، وارتد إلى ملاحقته بناب متلطياً بالجدوان خلف السيارات وحاوليات القمامة، من مكان لآخر، على نحو أكثر جسارة والحاحاً! فاتح لم يعبا به، الحماية وفيرة وكفيلة بالعشرات من أمثاله سواء كانوا أغنياء أو أذكياء. لكنه أجرى تعديلاً حول فكرته عنه، بإعطائه وصفاً أدق، لم يكن أهبل بالكامل، بل نصف أهبل. فقد اتعظ بحادثة اعتقاله، ولم يعد

## الصديق يعترف بجهله

سمع نقرأ على الباب، كان بعد العشاء في المطبخ، نظر إلى الساعة، كانت تقارب الحادية عشرة، في هذه الساعة من الليل لا يأتي سوى حسين، لكنه يفرج الجرس ولا يفتح على الباب. لعل الجرس معطل.

لم يكن حسين، كان صديقه ذا الوجه الطفولي، عادداً في مساء بارد بعد حرد طويل. لم يعرفه، تميزه من صوته:

«السلام عليكم».

يلبس سترة جلدية سوداء، محكمة السحاب، ياتنها العريضة المرفوعة، تخفي وجهه، وطاقية الصوف تغطي شعره. طوى الياقة وخلع الطاقية، فظهر وجهه وعلى ملامحه أمارات قلق طفولي. لم يدخل، لبث عند العتبة، تلفت إلى الخلف، وحملق إلى العتبة

طويلاً، دون أن يأتي بحركة، استدار وتمشى بحذر نحو حاجز  
الفرج وأضفى ملياً، ربما أحد طالع أو نازل. وبمجرد أن علاه  
أطلق من صدره دفعة واحدة ما احببه من أنفاس.

بعلمنا أحاط مظهره وقدمه وحركاته وأتفاهه بعناصر بوليسية،  
دخل وأغلق الباب وراءه دون أن يصدر صوتاً. تردد في القسحة  
الصغيرة المزدية إلى غرفة القعود، ولم يتقدم بعدها خطوة واحدة  
إلى الأمام... لماذا؟ لعلها يتكشف! (ما أخبره بأن المنزل  
مرتب). ثم خلع قفازاته الصوفية. صانحه وقال بتوجس، بأنه لم  
يظن...

واقعة يردفها بالسنة والشهر واليوم، وحتى بالساعة، وأحياناً بحالة الطقس، ما طرأ كان أم صحواً، مكثراً أم غائماً جزئياً.

تركز حديثه حول تعليقات الدول الغربية على المفاوضات وما تخفي وراءها من نوايا، لم يذكرها حسبما سمعها فاتح بالجملة دونما ترتيب، كان دقيقاً من هذه الناحية، فميز بين الصباح والظهر والمساء والليل، أول من أطلقها الخارجية الأميركية التي قادت جوقة التصريحات، كان الوقت لديهم نهراً، ولدينا ليلاً، تبعها الباقون بعد ساعات قليلة. وأطلقوا تعليقاتهم على هدى التصريح الأميركي. ما أظهر رغم التنوعات والاختلافات بينها، أنهم غير راضين البتة عما ستؤدي إليه.

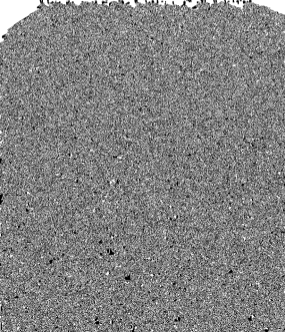
وليس أدل ولا أقوى على تجاوز مخزونه لسخزون المركز، أنه تابع حديثه بأعر أنباء الطرف الإسلامي المفاوض، وكانت تدور حول انشفاق الجماعة الإسلامية إلى فريقين، أحدهما التنظيم الإسلامي الراغب بالعودة إلى البلد وبالشروط المفروضة من الدولة، فيما فرر الفريق الثاني، بعد استطلاع مواقف أعضائه المبعثرين في الدول العربية والغربية وفي بلدان آسيا وأفريقيا، عدم الموافقة على هذا النزول العذل. وأصدروا اليوم بياناً، في الساعة الخامسة بعد الظهر، لم يوزع بعد على وسائل الإعلام، وإن ظهر على بعض المواقع الإلكترونية، رفضوا فيه بشكل نهائي أية مفاوضات أو مشروع اتفاق، وكل ما عقد وما سوف يعقد مع ما يدعى زوراً وبهتاناً بالتنظيم الإسلامي، ووصفوه بأنه ليس بتنظيم ولا إسلامياً بقصة رجال متخاذلين مدسوسين على الجماعة.

وما يؤكد أن من تقاطروا أخطأوا في فهم ما يجري.



لم يهتم فاتح كثيراً بمن أعطى أو أصاب، ما يشبه التساؤل هو  
 الدول الغربية التي وقفت ضد المعالمة، كيف الخقد هؤلاء الذين  
 لا تغرتهم شاردة ولا واردة، التقييم الحقيقي لها؟ وهنا ما سره له  
 صديقه:

«... من أن الأمل...»



«ها صديقي، لسْتُ كما تظن، لا علاقة لي بهما».

فاستشاط فاتح غضباً، ليس من إنكاره، وإنما من لهجة البرفة:

«إنّ، من أين جئت بهذه المعلومات؟ لا يستطيع مخلوق الوصول إليها، إن لم يكن من هؤلاء أو هؤلاء».

«لست منهم، لكن الأمر يعني، أنا أتابع قضية أمي، لعلك تذكره، عندما كنا في الصف الخامس الابتدائي، كان في الصف الثاني الإعدادي. مضى على سجنه ما يزيد على خمسة عشر عاماً، كان يجمع تبرعات لأسر الشهداء. ومنذئذ أقوم بإعالة زوجته وأولادها».

«الكثك تعرف الكثير... الكثير جداً».

«أخبار الجماعات في الخارج لم تنقطع عني، دائماً ثمة وسيلة، الإنترنت وغيره، أتواصل مع الكثيرين وأطمئنهم على أهلهم».

«ألا يشكل هذا خطراً عليك؟».

«استدعيت أكثر من مرة إلى الفرع، حاولوا منعي من مساعدة عائلة أمي، بدعوى تخفيف منابع الإرهاب».

«لم يلحف عليّ في السؤال، الحقيقة قد تكلفه سنوات من حياته».

«هل تعتقد بالعنف؟».

«لقد اخترت منذ زمن طويل طرفي إلى الله».

«الطريق إلى الله متعدد».

«بل واحد، أن تعبد الله مخلصين له الدين».

له الحق في ألا يثق به، إنهما على طرفي نقيض. حسب تقديره، يبدو أنه مبال إلى التنظيم المسالم. على كل حال، سواء كان مع الجماعة أو التنظيم، لن يقدم أو يؤخر شيئاً بالنسبة إليه، الذين لا جسمهما، والعقل يفرقهما، وصدقاتهما مشكوك بها.

فكنت ولم يسأل، لكن صديقه فاجأه بقوله:

«لماذا نسأني؟».

«المجرد الفضول، في الواقع لا يعني أمرك».

«لكن أمرك يعني. جئت أحفرك».

«أنت الأحوج إلى الاهتمام بنفسك».

وهنا كان صديقه تذكر سب مجيئه إليه، فهتف أسفاً:

«اعفوني على جهلي!! لم أعرف أنك مستهدف بالقتل إلا مؤخرًا، مؤخرًا جدًا».

واتته الأبخاسية، لأول مرة يعترف صديقه الذي يعرف الكثير بجهله الفاضح. وأراد أن يخفف عنه عبء عدم معرفته، لكن ما الذي أراد أنه مستهدف!!

«لا تشغل بالك بي، لدي حماية ممتازة، لا أعتقد أن أحداً يسمع بشأنها، نموذجية فعلاً، ولا أطمح إلى المزيد».

«لقد غرروا بك. أنت داخل سيناريو محكم، كل خطوة تخطوها تقودك إلى النهاية، أنت ذاهب إلى حفرك».

## لماذا السيناريو؟

لم يلتفت فاتح إلى مسألة حنطه على الرغم من عطورتها، رائحته كلمة سيناريو، حتى أوساط الإسلاميين باتت تستخدمها لتفسير المخططات الشيطانية للكفار!! كاد أن يسخر منها ومنه، لكنه أحجم، لئلا يجرحه. صديقه المتفاني في فعل الخير، يوحى إليه بأن طريقه الرحماني إلى الله، لا اتصاله المشبهمة، فاده إلى اعتراق سيناريو، كما يدعي، محكماً بكل معنى الكلمة. لا يمكن كشفه إلا من خلال تجل روحاني، حالفته الرؤية، فتراه له أن ينقذ صديقه من عطاياه العلمانية، فلوح له بسيناريو معين، بعد قليل سيذكره يوم الحساب وعذاب جهنم.

«يدو أنك لم تأس من عتابي».

«الله يهدي من يشاء».

فقال ضاحكاً:

«أراهنك على أنك ستعاود الكرة. لن تياس، ما دمت شكيب من وراثي فترا كبراً من الحسنة. لكنك تتناسى أنني اتخذت موقفاً لا رجوع عنه، لن نظفر بسبه إلا بسيفات يُذعن عن حناتك».

اتسعت ابتسامة صديقه، وقال:

«الله كريم».

ابتسامته الواثقة، ضابقتها من فرط طيبتها واستملاحتها. كان ينتظر عليه بطريقة دينية متساهلة ومتسامحة؛ الله لم يأذن بهديته بعد. فأحس بالخدبة. قبل قليل، امتنع عن إيذاء مشاعره، مع أنه كان يوسعها للهوى به، والسياريو أفضل سبيل لفسه معلوماته. فحشش به:

«لو استعملت نصير مؤامرة، لكنت أكثر توفيقاً».

«لقد استهلك، وأصبح ميؤداً».

«المؤامرة أشد رصاً، تتحمل التحويل والتحويل».

«يعتقدون أن السياريو أدق».

محاوكة بايت بالفشل. لم يتوقع أن نصيحتة السخيفة ستشجع صديقه على الدفاع عن السياريو والتركيز عليه. وأصبح مجبراً على أن يتحمل سماعه وهو يشرح له بمنتهى الطيبة، أن المحضطين الجدد، يشبهون به، لأنه أقل ربة. المؤامرة سمعتها سبته، أما السياريو فترفيهية؛ لا تعارض بينهما، كل منهما يخدم الآخر ويكمله.

كانت الفكرة طريفة، السياريو يحرر المؤامرة من مواصفاتها التقليدية، ويمسحها طابعاً بريئاً على علاقة بحللين أذكيا ذوي

عجال واسع، لا يخفون توقعاً ولا احتمالاً. صديقه يجتهد ضارباً على الوتر نفسه:

«يفكرون بأسلوب سينمائي، يفترضون لماً ينبغي أن يحدث لك، يضعون النهاية قبل البداية، ثم يقسمون عطوفاً تصل بينهما، ومهما جرى من عراقيل، الخاتمة التي بانتظارك حتمية».

«ما علاقي بما تقوله؟!».

«إنه السيناريو الذي أنت فيه».

لاحظه يتكلم جليلاً، فصرخ به:

«قل إنك تمزح».

لم يكن يمزح.

«اعلم إذن، بأن الجهاز السري الدولي لمكافحة الإرهاب وراء البداية والنهاية».

يا الهي... ما دام يعرف بالجهاز الدولي، فهو لا يجهل شيئاً!!

«إذا بدأتنا من المشهد الأخير، فنصوّر نفسك طريحاً على الأرض، مفارقاً الحياة، والدماء ترف منك».

لم يعبأ بمشهد لن يستغرق أكثر من بضع ثوانٍ. وإنما أذهله الفيلم الخفي الطويل الذي سبق النهاية.

«ومهما طرأ على السيناريو من تعديل وتحديث، فالخاتمة الأساسية هي تخريب الاتفاق بين الدولة والإسلاميين، باغتيالك».

ولأن الملخص كان حينها في سينما، انقطع عنه منظر شديد الإثارة وبحبس الأنفاس. طلب فاتح منه، أن يعود به إلى الواقع دون سينما، فلم يتأخر صديقه عن القيام بجولة على الأرض، لم تكن أكثر من تلخيص للسيناريو:

بعد محاضرتك المشهورة، لغتُ انتباه الجهاز الدولي، فجرى احتيارك لتكون احتمالاً قيد الاستعمال القريب. وكانوا قبل فترة وجيزة من الزمن، قد تعثروا بك في المستشفى، وأخرجوك على قوائمهم.

استعانوك من ملفاتهم، وسارعوا إلى تأهيلك، جعلوا منك رجلاً مشهوراً بواسطة عملاتهم على الإنترنت، على أمل أن تصبح هدفاً للأطراف الراهبة في تنفيذ الاتفاق، مثل الجماعة المناهضة للتنظيم، والدوائر المعارضة للمفاوضات داخل الدولة، كإدارة مكافحة الإرهاب وعلى رأسها رجلهم سليم (ويعرف بسليم II) إنه أكبر الراهبين بالقضاء على الجماعة الإسلامية، كانت له معهم قصة شنيعة (ويعلم بالسجل أيضاً II). واحتياط بنحضير أحد المهابيل (...ويعلم بالأهبل طويل القامة II) كي يكون مستعداً للاحتواء عليك.

كل هذا تمهيد للحلقة الأخيرة من السيناريو، في حال تم الاتفاق غير المرغوب فيه، أو كإد أن يحصل، يشارون بتدميره على الفور، خلال مهلة قصيرة لا تتجاوز ساعة أو ساعتين. في هذا الوقت الضئيل، يقتلك أحد العناصر غير الراضية عن الاتفاق، في حال تخلف عن التنفيذ، يدمرون الأهبل إلى التخلص منك... وإذا لم ينجح تماماً، وأصبحت مثلاً بجرح غير مميت، فسوف تجهز عليك لا محالة، وصامة في القلب أو في الرأس تماماً.

اغتيالك سيكون إشارة البدء.

تنطلق بعده وحدات الأمن للقبض على كل ما له صلة بالإسلاميين بمختلف أنواعهم وأشكالهم، بحجة إقدامهم على عبادة الأتفاق قبل أن يجف حبر التوقيع عليه، بعدما لن يكون لهم وجود إلا كقتلى ومطاردين.

الأمر غير معقد، بل سهل جداً، كل شيء معمول حسابه، وإلا فلماذا السيناريو؟!

فيا صديقي، لا تطمنن إلى عدسات المناظير، سرعان ما تتحول إلى بنادق بمناظير. لن تغفل منهم، بعد أن جعلوا منك طُعماً للكثيرين، وفرصة سهلة لهم.

الحماية الكاملة، ضمان لقتلك بشكل مؤكد لا مجال للخطأ فيه.



خطر له أن يسأله كيف علم بهذا كله. لكنه أحجم، لم السؤال، إذا كان ما قاله صحيحاً، فلا بد أنه من الجماعة، إن لم يكن من التنظيم.

أما السؤال فطرحه صديقه عليه:

«هل نظن نفسك تمثل في فيلم بلا سيناريو؟».



## السيناريو الرباني

إذا كان السيناريو قد هبط عليه أشبه بالصاعقة، فلم يرغب في التفكير به إلا بشكله الفني، سيناريو فقط. كان باستعارته من السينما إلى الواقع، واستغلال شهرته الهوليوودية، أخف وطأة عليه من مؤامرة تتعاون على تنفيذها عدة دول بواسطة جهاز دولي لمكافحة الإرهاب.

نصيب العرق من صديقه بعد أن أنهى عرضه المشوق، أنزل صاحب سترته الجلدية السوداء، فبان ببذلة كحلية اللون وربطة عنق رمادية ولحمض سكري، كأنه مدعو إلى حفلة ساهرة. حلّ ربطة العنق قليلاً، وأخرج من جيبه مندبلاً أبيض مطويًا، كان نسخة طبق الأصل عن المحارم التي كانوا يحصلونها في جيوبهم وهم أطفال صغار عند ذهابهم إلى المدرسة. فزفقه، كان المندبل هو ذاته، واحد منها، تذكره من أطرافه المطرزة بأزهار صغيرة

أرجوانية اللون، حافظ صديقه عليه، متمسكاً به مظهره الطفولي. وأخذ يمسح العرق من على وجهه ورقبته. فانتبه فاتح إلى ما أصابه هو الآخر من تعرق شديد.

من برهما، يظن أن الدنيا صيحت. وإن ألقى نظرة، مثلما هما الآن بلقيان النظر من خلال الباب المفتوح على غرفة القعود، فسوف يرى النافذة الواقعة على امتداد برهما، يتأرجح على صفحة زجاجها بلرق عفيف داخل فضاء أسود، وكأن البرق يلمع دونما شرر. بينما الريح تتلاعب بالأضواء المتراصة من حيايات الشارع القليلة، والسماء دون أن يبان منها شيء، مدهشة تنفر بالسطر.

سح فاتح عرقه بكم قميص بيجامته، وهو يفكر بدحض سيناريو كان يراه خيالياً ومكتشفاً. لم يتصور أن تبلغ الحساسة والجريمة بالأجهزة المضادة للإرهاب أن تتكرر سيناريو خاصاً به. علق عليه منقداً:

واته مطرد جداً.

بعضي أنه يصلح فيلماً سينمائياً فقط، حسب طراز يعتمد الفسوخ والمفاجآت، يعج بالعلاء المزوجين والقثلة المأجورين والأبدي الخفية، والمطاردات المسببة، لا كميناً له علاقة بالواقع والسياسة ومصائر بشر حقيقيين، ما زالوا على قيد الحياة.

ولا تعجب، إنها السينما، فن وصناعة... وحضارة.

بدا من ابتسامة صديقه التي أخفاها، أن السخرية واتته. ولم يكن هذا وقتها، استغل السوقف لينتقد الحضارة الغربية في أجمل تجلياتها وأمتعها، الفن السابع الذي تُحجر إنجازاته للاستفادة منها

في المؤامرات. كانت مفاجئة تشفع له طرفة كبيرة، تحتوي على طوائف صغيرة، نظيفة وقليلة في آن واحد.

حاول فاتح أن يبدو لائماً لآراء سيناريو مصنوع جيداً، دونما فن إنساني، ومن سقط الحضارة، لكن فاسياً:

«إنه عمل ذني».

بينما كان صديقه قد استمرراً السخرية، وربما كان جاداً، وهو يتكلم ميرهاً على صواب نظريته الفنية:

«أخذت المؤامرة من السينما القشرة على التخطيط بعيد المدى، أي مثلما يخططون لقبلة النهاية قبل أن يعرف الحبيب عيبته، يخططون لرصاصة في الرأس قبل تحديد الرأس نفسه».

ما أخذ يدور في ذهنه، كان أبعد من القبلة والرأس، ذهب بالفكره إلى الحرب التي تشنها الدول الغربية على الإرهاب، لئلا يربطون لها ألا تتوقف، وأن تبقى مشتعلة على الدوام؟ هل يفسرها سيناريو تأمري يعمل على إعادة ترتيب العالم من جديد؟ التاريخ لا تسيره المؤامرات، لكنه حافل بها، ولو كانت لا تصنع تاريخاً ولا مستقبلاً.

لم ترتفع معنوياته، على الرغم من دحضه وتبني لكل ما لا ينسجم مع حركة التاريخ، أحس بالخزي، مهما يكن فهؤلاء القابعون هنا وهناك، حملة مشاعل الحرية الذين يزعمون بأنهم يدبرون معركة الدفاع عن الحياة، وتربطه بهم العثمانية والعقلانية... ويقفون معاً جنباً إلى جنب في الجبهة نفسها، قد وقفوا ضد.

الن يخرورا من الحقيفة شفاء.

قالها، واسترد ذالقة العلمانية، لماذا يدينهم وخذهم؟! ألا ينبغي التبرج في هذه المناسبة على ترتيبات إلهية تدع أسور الخلق نهباً لجشع الدول الكبرى؟ لم يكن لي طرح هذا السؤال على نفسه أبداً، وإنما استغل وجود ممثل لهؤلاء الذين يؤمنون برب عادل قادر على كل شيء، ليسأل عن ذلك التدمير الكوني الأكبر:

أنت كرجل نفي، ألا تؤمن بأننا جميعنا داخل سيناريو رباني هائل، جامع مانع، وما عداه من سيناريوهات صغيرة، حتى الموصومة بالكفر منها، مجرد أنها تافهة، تتخط في داخله؟.

ولا تتكلم مثلهم. ولا تفهمنا كما يشاؤون، هذه، وأنت تعرف، ليست حرباً دينية، على الرغم من الشعارات المرفوعة والصيحات المضللة، بادعائيات شرعية كاذبة تحلل الذبح وقطع الرؤوس، دينا لا يشرع القتل ولا التدمير، ومع هذا يصفونه بالقسوة والوحشية. هل نحن قساة فعلاً؟ لماذا لم نكن وحوشاً قبل سنوات؟ تعلم أنها حرب بالسة، وهم من يجعلونها شريرة، وإذا كان بعضنا مثلهم، فلأن الحرب لا تدع مكاناً للرحمة.

لم يرد عليه، ربما لأنه لم يشعر أنه من الطرف الآخر، هل لأنه ولد مسلماً، ثم اختار ألا يكون مسلماً؟ ففكر بصوت عال:

إذا كانت أفعالنا مكتوبة قبل بداية الخلق، فلماذا خلقنا الله؟.

أها صديقي، كلف عن القول بأن البشر مسيروا لا مخيروا، لماذا تتعمدون فهم الدين بشكل يُدين الله؟! ألكي نؤكّدوا على هشاشته ونهاويه إزاء المنطق؟ البشر حرية الاختيار، لا جبر ولا

لرغام، هذا هو المنطق الإلهي».

فاجأه هذا النمط الحديث من الدين. فقال حاتقاً:  
ولهذا لا يفعل الله شيئاً يخفف به عن الناس مأسيتهم».

والأقرب إلى العقل والدين والعدل أنه ترك لنا تغيير حياتنا  
وحظوظنا بأيدينا، وألا نستكين للأمر الواقع، وإلا فلعلنا الحياة،  
والعمل، والتفكير!!».

لم يعد يدري هل كان يناقش نفسه أم يماحكها!!  
«إذا أنت تعتقد بوجود سيناريو رباني، يسمح ب ورود سيناريوهات  
بشرية».

«سيناريو رباني لا يصادر حرية الناس ولا إرادتهم، ولا يعمل بديلاً  
عنهم. وقد يتدخل أحياناً، من يدري!! أما سيناريوهات البشر،  
فلا تدع مجالاً للخروج عنها، ولا تتردد بالقضاء على من  
يخالفها».

«دعني أنكر».

حاول استجماع أنكاره التي تشتت دون جدوى. بعد حين، سمع  
صوت صديقه قادمًا من خلال الضجيج الذي في رأسه، وكان  
بعيداً جداً.

«توكل على الله، واسأله أن يلهيك الصواب».

«أنا سأوكل على نفسي».

«كي لا تنورط في الادعاء، فكر جاداً بما عليك أن تفعله لتنجو

بنفسك، الفرصة ضائعة، وأتمنى ألا تكون معدومة».

«كيف عرفت أنهم أعدوني للاختيال؟».

«كل طرف مخترق من الطرف الآخر. وكان من الممكن ألا أصفق ولا أهتم، لكنني فكرت واستجنت».

«تريد القول، إنك تفكر وتستجج، وأنا لا أفكر ولا أستجج؟».

«أنت تتق بهم، وأنا لا أتق».

«اصدقني القول، هل سيضحون بي؟».

«وكان واقعاً لحظتها بأنه لن يكذب عليه».

«سأساعدك لو طلبت مني».

«لقد تخلوا عنه، ويُحضرون لقتله. وهذا جاء كي ينفله!!»

«لا تقل لي بأنك جئت لهذا الغرض».

«نعم، لهذا الغرض».

«إنما لا تساعدني».

«سأجد لك مخبأ أميناً».

«دع هذا الأمر لله».

«لم يكن يريد السخرية منه، وإنما من نفسه. اقترب صديقه منه ورجاه»:

«علمني أحد أدواته».

«هناك أن تظن للحظة واحدة بأنني قد أهبل».

«رفض عرضه، ليس لأن الله غفله من قبل، أو لأن هؤلاء الذين

وقف في صفهم، واعتقد بما اعتقدوا به، سوف يخالفونه. بل لسبب أمر، لأنه يستحيل عليه أن يخشى لدى أصولي، ولو كان مختلفاً عنهم. أي عار سبهم به أمام الذين لم يوفر مناسبة دون أن يتقدم بضراوة!! لا بلين بكرامته كعلماني اللجوء إليه. تابع بإصرار:

«هذا أمر مفروغ منه. لن أسام عليه تحت أي ظرف».

وإذ نظر إلى وجهه، كانت ملامح صديقه الطفولية البريئة قد تلاشت في الاحتقان الداكن الذي عبق في وجهه، وتجاهدت بغضنت بها ملامحه، كأنه بلغ سن الرشد والنضج والكهولة والشيوخة دفعة واحدة، وهو يقول له بصوت ملؤه الأسى:

«أنت رجل ميت».

رفع سحاب سترته الجلدية وبانته، وضع طائفة الصوف على رأسه. نظر إليه نظرة وداعية، وغاب في ظلام الفرج.

أيقن أكثر من صديقه، أنه رجل ميت لا محالة.

## وداع طويل

لم يكن الليل سيئاً ولا الصباح الذي تلاه. مع التقدم في النهار، استسلم للمفاوضات، كيفما اتجهت سواء نحو الوفاق أو الإخفاق. لم يكن سوى أن يحسن الاستعداد لحدث استثنائي يعادف المرء في العمر مرة واحدة، في تلك النهاية المحتومة. عاهد نفسه أن يكون جديراً بتاريخه العتيق، وألا يضعف أداؤه، أو يتخلف في اللحظات الحاسمة عن مستوى يليق بمفكر لم يرهه الموت، هنا ما سوف يتركه ورائه من انطباع... أن يمسد رابط الجأش كما يأمل حتى اللحظة الأخيرة.

بمسد؟! إزاء ماذا؟! ألا يتهاون ويفقد أعصابه، ألا يصرخ ويكي من الخوف، ألا يتهاون ويفقد رشده... كان يخشى ألا يحسن التصرف.

في طريق العودة من المركز، حاول المؤلف مع فكرة أنه يفارق



دون هواتف الأشخاص والأشياء والشوارع والمدكاكين، الإعلانات وأعمدة الكهرباء، أكشاك الهاتف وشرطة المرور وطلبة الجامعة... وكل ما يراه بشكل ثابت أو متحرك. كان يمضي ويخلفونه ورايهم، مجرد رجل عابر، يخرج من مشاهد لا مكان له فيها.

صباح اليوم التالي، حافظ على الإبقاء نفسه. فودع على التوالي، سائق سيارته البيجو، المارّة الذين لم يمن بالنظر إلى وجوههم من قبل، فانشدت نظراته إليهم، وأولئك الذين يراهم لأول وأخر مرة في حياته... وهنا الطريق المؤدي إلى مستشفى الموساة، فالمدينة الجامعية، ساحة الجمارك، يتعطف نازلاً صوب ساحة الأمويين، مبنى التلفزيون، فطلعة حي المالكي، يخترق أزقته...

ثم موظفوه يتقاطرون إليه مستغربين دعوته إلى اجتماع صباحي. لبدأ إجراءات وداع حيث يدور في داخله، دون أن يشاركه فيه واحد منهم. لم يؤلمه أن يكون من طرف واحد، وإنما اكتشاهه (لماذا متأخرًا) أنه كان ينبغي أن يكونوا أكثر قرباً منه، بدل هنا

الشخص الوحيد الذي سيهبطه حضوره، فلم يتجرأ على توديعه، الموظفة الجديدة التي عاتبها، في ظل صراعه العناني المكثوم مع الحجاب. آساء إليها وإلى علماته، كان عليه ألا يتورط بالارتكاب هكذا حماقات وأحقاد.

ألم يحزن أوان إصلاح خطته؟

قبل أن يخرجوا، طلب من مدير الشؤون الإدارية، إصفير قراره بعدها من القبول إلى وظيفتها السابقة. أهد المدير قراره وأردف معلقاً بأنها لم ترتكب أية مخالفة خلال وجودها في البراد. فما كان منه إلا أن أمر لها بمكالمة ترضية لها.

بعد أن أنهى مراسم الرحيل، أحس أن ترضيتها هكذا من بعيد، تفتتها حقها المهضوم، ولا تعيد إليها اعتبارها. نظر إلى الساعة، ثمة وقت لديه، كان ضيقاً، سبقتهم وودعها أسوة بغيرها. فنزل إلى القبول.

رفعت رأسها إليه. كانت وراء طاولتها أكفاس من الأوراق تكاد أن تحجب وجهها، وإلى جوارها سخانة صغيرة، فردت كفها فوقها تدفأ على حرارتها، وإذا رأته، انتفضت واقفة، وسارعت إلى فصل شريط الرصلة الكهربائية. غص النظر عن مخالفتها التعليمات الخاصة بمنع استعمال السخانة في الدوائر الحكومية، وطلب منها أن تعيد وصلها. كان متأسراً لأنه أدركها قبل أن تتجمد.

ألقى نظرة على السكان، الرطوبة تنز من الجدران المشققة، حياة الضوء الباهت متعلية من سقف المشور الطلاء، البرد يوزج بظله القارص فوق الطاولة والكروسي والأوراق، لا يترك حرماً ولا فراخاً. تحاول أن تخفي يديها وهي تفرك كفها ببعضهما بعضاً. لون

وجتبتها أقرب إلى البياض المصفر، عينها تالفتان في محجريهما،  
أنفها محتقن ومحمر، وشفتاها ضاربتان إلى الزرقاء.

لقد شوه ملامح زوجته، لم تعد الفتاة تشبهها إلا قليلاً.

كان قاسياً عليها، دون مبرر، وأكثر مما أراد أو حتى تخيل! خابته أن ضميره لم يورقه على الإطلاق، طوال الفترة السابقة، بما وقع عليها من حيف وامتهان، حاسبها على ما كانت ترتديه لا على ما فعلته. ولم تعرف هي لماذا! وعندما حاولت أن تعرف، رفض الاستماع إلى شكواها، فلم يقابلها عندما طلبت مقابله. أجاز لنفسه أن ينكر عليها لباسها، وأن يستنكر تغطية شعرها! من أعطاه هذا الحق؟ الحق في أن يحقد عليها ويضطهدها. فلنلبس ما نشاء، ولنظهر كما نرغب. هل يعقل أنه لم يتوان عن الانتقام منها بسبب الحجاب؟! لمن يتأرق؟ للمرأة المظلومة المقيدة إلى بيتها وزوجها وأولادها؟ ما الذي يعرفه عن سعادتها أو نعاستها؟! وماذا كانت تلك الحرية التي يدافع عنها، ولماذا انحصرت على بشر دون بشر؟! كانت حاجته إلى أن يعترف لها، ليس كي يُشهر بما فعله، أو ليدفع ثمن عدوانه العمياء، وإنما كي

بحق له ولا لغيره، أن يعاملها هذه المعاملة غير العادلة. لقد تعدى صلاحياته، ارتكب عملاً ضد الأخلاق والضمير، لن يفره لنفسه، أقدم عليه بسبب الخجل من ذكره. ولا يجوز لرجل مثله أن يفعل، لئنه يستطيع تعويضها عنه، يمتنى أن تقبل اعتذاره وتصفح عنه.

انقرت شفتاها الضاربتان إلى الزرقة عن انهماكة باهتة، مستغربة هنا الدفق من الخطأ واللوم والخجل والأخلاق. ظنت من فرط هدبانه بالقوية والضمير أنها تجاوزت حدودها بالاستماع إليه!!

لم تفتح فمها بكلمة. ربما كان يشكو من عارض التيس بوجودها، وقد يتراجع بعد قليل عما فرط به من اعتذار وطلب للصفح. غير أنه ما زال واقفاً ينتظر، وكأنه في هذا القبر المبرود بشدة، تجمد على هذه الحالة طالباً الغفران. تساءلت بنظراتها دون كلام، تومن إلى أنها لم تفهم ما سمعته. فقالت متلعثمة:

«أنا لم أشكُ إلا من البرد، طالبت بمدفأة، القبر كما ترى، ينتفر إلى مدخنة أو حتى نافذة، فاضطرت إلى استعمال السخانة.»

كانت هي التي تتنفر عن هذا الإرباك الحاصل بينهما.

أحسن بالضيق، ما أراد تحمل مسؤوليته، أعطأ طريقه إليها، وكأنهما تبادلوا الأدوار، ولن ينال صفحها، وأصبح المطلوب أن يمر موقفه، لو عرفت أنه أعادها إلى عملها السابق، فقد تتنفر هي منه.

«عطشي، ولا أنكره، أنني فعلت هذا بسبب الحجاب الذي ترتديه، لا بسبب آخر، ولقد تراجعت عن قراري بنقلك، الأمور

سعود إلى ما كانت عليه بالنسبة إليك. أنا آسف على فطنتي.

قلتها لها بكل صراحة كي تحترفه، عسى أن يكفر عن ظلمه لها.

كان قد فاجأها، أطرقت برأسها، وعندما رفعت، كانت نظراتها أكثر صلابة ودغماً، بخالطها شيء من الرثاء له.

ربما عانيت من البرد، وهو عناء يحتمل، بل ويشجعني على مواجهة ما هو أشد منه، وأيضاً الثبات على اختياري للحجاب. أنا لم أؤذ أحداً، وأتوسى ألا يؤذيني أحد. إذا كنت أسأت إلي، فأنت أسأت إلي نفسك. وصفتني إذ أسامحك من كل قلبي، ربما غيري لا يسامحك، لا تخلو بعض المحجبات أمثالي من التحجر.

أذعته هذه المقطرة الكبيرة والهادئة على السامح دونما أي منة أو مقابل. أحس بالارتياح، الوقت لم يفت، لقد فعل شيئاً حسناً. تراجع بخطوات واسعة قائلاً:

«سلمي أغراضك إنهم بانتظارك في الأعلى».

غادر القبر ومعها المكان الذي أخذ شطراً من حياته. لم ينس قبل خروجه من البناء، أن يشمل الجدران بنظرة أميرة ومعها هؤلاء القابض خلفها الذين لن يروه بعد اليوم.



قبل أن يخطو في الشارع، برز سليم في نهايته!! وأضنى بظهوره بقايا المنظر الأخضر الممتد خلف السور المنخفض للحديقة. كان الشتاء قد جعله يتأكل، عزى الأشجار وأسقط أوردها،

وأحال لون ما تخلف منها إلى الأصفر.

مضى زمن لم ير سليم، خلاله لم تراوده أية رغبة في رؤيته. نجاهه، نزل عن الرصيف مسرعاً نحو السيارة، لا حصة له في برنامج الوداع. لكن سليم لحق به واستوقفه. كان لديه شيء ما بخصوص الأمن، استجد اليوم.

لم يجد سليم عن المقدمة المعتادة، كان بالمصادفة ماراً بالقرب من المركز، ولم يجد بأساً في التوقف قليلاً لإبلاغه بأسر عاجل، ثم أبدى استغرابه لمفاتيحه المركز في هذا الوقت المبكر من النهار. وتابع غامزاً، ما يعرفه عنه بأنه نظامي يتقيد بالدوام، وكما يقال، فتوة لموظفيه.

«أنا في إجازة».

«حسناً، لن نعود إلى غرفتك، ستمشى قليلاً».

«لكنها واقفاً على الرصيف. وقدم سليم له بشاره، لم يحلم بها:

«الخطر زال نهائياً، ويجري التفكير حالياً بإلغاء الحماية».

تسرع في أرضه وعلق بالخصاب:

«إنذا لم يعد هناك سرور للمراقبة».

ابتم سليم ابتسامة عريضة:

«كما توقعت تماماً، هناك مفاوضات عاجلة ستجري بين الدولة والإسلاميين، تتوقعها قريبة بين ليلة وضحاها. سنبداً خلال أيام، ومنى حصل الاجتماع، فالمصالحة ليست مرجحة فحسب، بل على الأبواب، وعلى الأصح بين يوم وآخر».

رمت على كتفه وتابع:

«اتحرّث إلغاء الحماية تدريجياً، كي تكون أكثر اطمئناناً».

كنتم فاتح فرحتي، سبستعد حرثي وإن بالتفريج، لن يكون تحت  
أنظارهم، ولا ضمن دائرة أهدافهم، مسدداً عليه بشكل دائم. لم  
يعد مطلوباً في الحرب على الإرهاب.

ومع هذا لم يرغب في فهم سر التحول الحقيقي الذي طرأ وجعل  
الجهاز الدولي يغير عظمته ويقرر ألا يضحي به، وإن أراد أن  
يقب:

«كدت أن أكون ضحية مثالية».

لم يقلها، وكان موقفاً الموقف الذي تجنبه، انقلب رغماً عنه  
وداعياً، فسلم انتهت مهمته، قال له بأنه لن يراه ثانية إلا مصادفة،  
ربما في مكان ما، لن يلتقي عليه التحية، سوف يضطر للأسف إلى  
التظاهر بعدم معرفته.

«استعزوني بالطبع».

صافحه بقوة، وهز يده عدة مرات. وقبل أن يدير ظهره إليه، تذكر  
شيئاً:

«بخصوص إجازتك».

«ما بها؟».

«أرى أن تعود عنها».

لم يكن ليخبره، ولا يطلب منه، كان بأسره ومن دون مناقشة،

بالغاء إجازته، وأن يداوم خلال الأيام القادمة كالمتعود.

ولا ينبغي لفت الأنظار إلى أن شيئاً ما تغير.

لم يله بكلمة، كان يمارس عليه ضغطاً لا يطلق.

وأظن أن جهازنا قد اتصل بالمركز، وأتعل إجازتك إلى الأسبوع القادم. غداً ستكون على رأس عملك.

ما جعله يتراجع عن تفديراته المتفائلة، لا، لم ينج، والخطة لم تتغير، الحماية نفسها، وغير مسموح له أن يكون مجازاً، كي لا يُعقد عيظهم، ما زال يسير على الخط المرسوم له، دون أن يحد عنه، سيتلونه خلال هذا الأسبوع.

لم تهزه معرفة التراب موعد موته، كان والتمأ، وهذا الفاصل من السعادة جعله أكثر بأساً. حز في نفسه، أن يكون بين مرؤوسيه الأسماء الذين أحس نحوهم بالكثير من المودة، مخبر ينقل أخباره إليهم، لولاه لما علم سليم بالإجازة، وسارع إلى إنهائها.



انعكس إلغاء الحماية التدريجي، بالمزيد من المراقبة والوقاحة.

الإجراءات الجديدة اجتاحت خط سيره المعتاد، فالسيارة التي أخذت تلاحقه، لم تخف نظرات راكبيها، استفزازهم له. وفي السوق تجمع أشخاص مجهولون التحرش والاصطدام به سهواً، بعضهم يمشون ورايه على بعد مسافة قريبة، وعندما يستلهم نحوهم، يسارعون إلى الوقوف عند واجهة محل، أو دكان باعة الجرائد، يقرأون عناوين الصحف، أو ينحنون ويتظاهرون بأنهم



يرهبون أشرطة أحذيتهم. أما الأهيل طويل القامة، فأصبح أكثر تقيفاً بالنظام والدينام والتوقيت، كأنه موظف لديهم؛ ينتظره أمام البيت صباحاً، ويسبقه إلى رصيف المركز، وعند الظهر لا يتخلف عن هذا المنوال. ثمة من يؤمن له المواصلات السريعة!!

لم يتعطل برنامجهم، ما زالت مراسم الوداع سارية على طريق الذهاب والإياب، يفارق من يراه في اللحظة التي يقع بصره عليه، ثم يعود إلى مفارقه ثانية؛ فودع عدة مرات باعة الخضار والخبز والفروج واللحوم والبوظة والناهلسية والمدلوقة والبقول والفلافل والجرالد والسجلات...

ومعهم الأهيل، كلما لمحته في سوق العزقة، كان بالكفاية به بلاحفة بمصره، فيتولرى الأهيل ويندس في الزحام أو يخلف ميكروهاص، أو سيارة، يد أن طوله كان يفضحه ولا يساعد على الاختفاء. لم ير فيه القاتل المنتظر، وإنما شخص انضم إلى قافلة المودعين، حبل بينهما مؤقتاً، وقد يكون آخر من يودعهم.

## ما زال للوداع بقية

هل نسي حسين؟

نعم نسيه، ورد على باله مساء، والشمس على وشك المغيب. كان في الأيام الخوالي يطيب له الاتصال به في مثل هذا الوقت، فيرافقه إلى المحاضرات، أو يتسكعان معاً في الشوارع، يذهب معه ويرجع خالي البال، لا حفر ولا توجس، ولا رجل يدعى سليم وجهازان الأول محلي والثاني دولي، وأهمل بلاحقه من مكان إلى مكان، يتلاعبون بمصيره. أيام لم يعض عليها سوى أشهر قليلة، لتأتي بعدها أيام ما قبل الموت بقليل.

لا، ليس من الصداقة ولا اللباقة أن يخامر دون أن يراه. كان صديقاً وإن لم يكن حسيماً، لن يضغط حقه من المودة الصادقة، أو على الأقل معانته أسوة بموظفيه، إذا لم يكن ذا مقدرة فكرية بارزة ولا كفاية عقلية نافذة، فلن يقلل من شأنه. كان صديقاً

مخلصاً وحارماً شجاعاً.

ليس لديه الكثير ليقوله له، لكن رفته ستؤنس في تجوالهما ليلاً.  
لن يتكلم مع نفسه، سيجد من يستمع إليه، ويودع مدبته غلظة.

دمشق في الليل، لم تكن هي التي يعرفها، لا زحام ولا ضجيج.  
مدينة غاملة، صامتة وساكنة، لا تبالي بمن يذب فوق أرضيتها،  
ولا بما أصابها. الأضواء غامية، والأصوات تنسلل إلى جنباتها  
خافتة من الفنادق الهاجعة وملاهي السهر ومقاهي آخر الليل. زعم  
السيارات القليلة يمزق ركودها، غارقة في الوحل والبرد  
والقاذورات. لم يكن على موعد معها، مجرد مدينة صادفها بفتة.

التفت إلى هذا الذي يمشي إلى جولره، لا يصح أن يمضي دون  
أن يترك له ذكرى لطيفة، فلم يحفل عليه بالكريم الواجب:

«أعترفُ بأنك كنت بقلب الصديق المخلوق المتفتني، والمدافع  
الحقيقي عن مبادئ ومثل، لم تكن أنت أقل مني إيماناً بها».

أجابته صديقه:

«أنا عظيم الأمتان لك، كنت المعلم المرشد. أطلعتني على حقيقة  
العالم، وما يجب عليّ لإزائه، ليس التفكير فحسب، بل وتغييره  
تحو الأحسن».

بعد أن تبادل عبارات التمجيل والتقدير، وقفوا في الساحة الصغيرة،  
علفهما شارع فؤاد الأول، وأمامهما مفترق طرق يطل على  
الصالحية، فنلق الشام، السبع بحرات، أزقة ساروجة، ودخلة  
الردوس. بدأ المفترق ملائماً للفراق. سيقول له بأنه سوف يرحل،

بأسلوب فاتر ومرح لا يصلحه. ومن ثم يفضي كل منهما إلى اتجاه.

«بئها لي أنتي سائح».

«سحب، إلى أين؟».

«قلت بئها لي، ولم أجزم. وبالكافي لرتابت تبيهك إلى أن تعتمد على نفسك، وتفكر وحدك، فلا تستهن بقدراتك».

لم ينفصلان ناعماً معاً إلى العالجية، حسب أن تكفيهم بعض

أفكار عظيمة، تساعد على الترتبة والجدل، التفاهات أكثر جنوى في العيش.

والقناعة، يا صديقي، خير ما تعصم به.

هل يقول له، إن القناعة ليست سببة السعة كما صورها له من قبل، بالعكس تمنحه وضعاً متفوقاً. القناعة لا تنبأ بالتقدم، ولا يضيرها التخلف، لا تفتت من الندم، عدا أنها لا تعرضه على التضحية، ولا تشجعه على الإقدام... هل يتحمل عقله هذا التخليل المعاكس؟

لكن ماذا لو لم يكن تخليلاً ولا معاكساً؟

مسؤوليته تجاهه لا تقل عنها تجاه غيره، كان جمهوره المصغر، الذي يمثل جمهوراً أكبر غرر به وأخذته إلى رحاب العقل اللاتهيائية، وحين الوقت ليرتد بهم إلى غياهب الظلمات، ليلبثوا وحدهم، البحث عن بصيص نور، لن يكون بصيص أمل. الحقيقة لا أمل منها. الحقيقة هي اليأس، مثل الضياء السهر بعشي البصر ولا تميز الطريق.

التفت إلى حسين، هذا زائع العينين مذهوراً من هول الانقلاب الحاصل، الفزع ركبته وطاح به إلى أفكار لا طاقة له عليها، الصحيح لم يكن صحيحاً، ثمة صحيح آخر، ما هو؟ كيف يتوأم مع هذا الجديد؟

لم يشفق عليه، العوالب المبين كالخطأ الأكيد، بضعة أفكار مرعبة على هذه الشاكلة تجعل هذا الرجل المسكين الجسم والعرض، يتهاوى أرضاً، دون أن يشكل ما كان يحفته به طوال سنوات مناعة ضدها. جريمة أخرى، ارتكبتها بقسوة ودونما رادع

نحطيم دماغ رجل بعد أن ساهم طويلاً بتشكيله، ألم يودع في  
داعله الكثير من التواث التي لا يأتها الباطل؟

لمر أن ما نيا عن السكون، أعفاه من المررات والحجج، تبه إلى  
سيارة، لاحظ قبل فترة، أنها تلاعنهما من بعيد، تلف حين  
يتوقفان، وتسر حين يسيران.

«يلو أنا مراقبان!»

تعهد التباطؤ، ثم لرتد نحوها، حلذاها وتمشى إلى جوارها، فرأى  
سليم جالساً في مقعدتها الأمامي إلى جوار السائق. توفز حسن  
واستعد للعراك، لكنّه فاتح:

«إنها دورية من رجال الأمن.»

الرقابة عادت ليلية ومشددة، وارتفعت سويتها بوجود سليم،  
فانسلم إلى وداع جائر، ملونه الشوارع والأزقة والمحلات المظفة  
وأكياس الزباله، يتسم أبخرة النفايات المتخمرة، ويهبط سكارى  
بلغتون وبترنحون، وقططاً جالعة وشاردة، وجرذاناً تسلّ مطفئة.

مشاهد كالحة تثير القرف، أهبة الحجر، والكثير من الإعلانات  
الكبيرة والصغيرة، الملونة والمضيئة، الطويلة والعريضة، تعطي  
واجبات السخام. الغواء السقيم، بكسر حدة الوداع الثالث، يحزن  
موجع، وفراغ ينضح بمعالم تنفس، هاله ما آلت إليه من قبح  
وبشاعة. ما جعل الفراق عبثاً وأكثر عبثاً. فليرحل دون آلام مرحة  
لم يعد القلب قادراً عليها. حان الوقت لكي لا يحب مدينته،  
الأجدي أن يكرهها.

في لحظات الفراق، الحب هو الألم. هذه مدينة لا يحبها، دمشق الأخرى حطت رحالها في الفاكهة. لن يتحسر على ذكريات هي الأخرى ماتت. كان يودع مدينة لا يعرفها، أما تلك التي يعرفها فقد فارقت قبل أكثر من عشرين عاماً دون أن يعرف.

ألمه أنه صار رجل الماضي لا المستقبل.

المستقبل هو الموت.

التفت نحوه، حين لاذ بالصمت، تمنى لو يتغير منه. أوقفه في لحظة، كانت محنته وحده، وشاركه لهاها. معاً في السراء والضراء، لا، لم يتغير به، إنها مأساته، لكنها حقيقة، حقيقة لا تخصه وحده، فلماذا يبعده عن هوة ليست أكثر من تساؤلات، ماذا لو كانت العلمانية إشكالية دخيلة، أو لم يكن الدين عائقاً، ولا الإسلام هو المشكلة، ولا الحل، والمحضارة لعنة، ولم تكن هناك أية حقيقة على الإطلاق سوى الموت، وهذه الحياة لا شيء، وما نحن إلا أشباح نخشع حياء نتوهم فيها سعادتنا وشقاوتنا... وما نفعه من خير، وما نقره من شر، كله بيان... 19

لم يودعه، قال له، سأراك قريباً.



اعتكف في غرفة النوم، فتح أدرجه الخصوصية، وأخرج ما فيها من أوراق وصور، رتبها ومزق كل ما لا يرغب في أن يطلع عليه أحد من بعده، لم يترك أوراقاً تدل عليه، إلا كمستهلك للماء والهاتف والكهرباء، وإبصالات بالضرائب وغواتير الأثاث المنزلي، بعضها بالنسيب ولم يكن مريحاً. واحتفظ بسند ملكية البيت

وبأوراق أخرى للأجهزة غالبية الثمن. كان يكفي الورثة عناء البحث ونفض الخبر عنها.

ولأول مرة، يفتح الدرج الذي يخص أشياء تركتها الراحلة من مخلوقات مرضها، فأثلف صور الأشعة والطبقي المحوري والرنين المغناطيسي، وتخطيط القلب، وتحليل الدم، وغيرها من تحاليل عن وظائف الكبد والكلى.... كانت تبين مراحل ثبات مرضها الطويل ثم تدهوره السريع، ووصفات الأدوية المعالجة والمسكنة والمخدرة التي لم تشفها، أو تخفف من آلامها. وجدنا غيبوتتها، أو نصف غيبوتتها، أو عجزها عن الكلام وفقدانها الإحساس. كانت أكثر رحمة بها من الدواء.

حانت نظرة منه إلى صورة زوجته إلى جانب السرير، فأحس بالسرور، لم يكن وحيداً. وتحيلها إلى جواره، تبدو كما في الصورة تماماً، صحبة البدن، تبسم ابتسامتها الرقيقة التي لم تفارقها. راوده خاطر سيحج، إنه ذاهب إليها، وإذا لم يجدها، فلن يفتن، ما دام قضاء واحد سيضمهما معاً.

لم يشعر برحابة الماضي، إلا عندما خرج إلى غرفة القعود. أجال بصره بين التذكارات المعلقة على الجدران وفوق الرفوف

التي كانت تزينها بالصور والكتب والهدايا التي كانت تزينها بالهدايا



الأخيرة، لن تعني شيئاً لغيره، سوف يعيشون بها، وتؤذع في السقفة، ربما يتخلصون منها.

كان عاجزاً عن وداع حياة تبثرت بين الجدران والأوراق، خزنها في لفة واحدة، سيمطيها لهيفاء وسألها التصرف بها، لا قدرة لديه على حرفها. لئنه لم يكن يدري بموعد موته، السموت السفاجن نعمة، ورحمة لا تنكر، لمن يأتيهم بفتة، يوفى عليهم ذكريات وإثارة لواعج، ويدعها للآخرين.

شمل بجرأة ما تبقى من معالم بدأت تأفل متلكفة، أفسح لها السبل كي يرحل خالي الوفاض منها، بعيداً عنها، عماها تُسَهِّل له طريق الذهاب، لم يبق سوى إجراءات تسارع بلا روح، ويشرف عليها بحنكة. كان قد احترف الوداع، وجره مراراً عندما سافر لحضور مؤتمرات في عمان وبيروت والقاهرة، سفر تعبه عودة، فكان لا يكلف نفسه ولا غيره مجاملات الوداع ولا الاستيغال. هذا السفر يشبه ما سبقه، وإن كان أفسى، وبلا مشقة، ولا تعبه عودة.

معالم قائمة، وتماتته، رحيله يتفاحس، واحتفالها يتعشر. أحس بالأسى، وهو ما كان يخشاه، لم يكن يخاف الأشياء والأشخاص فقط، بل ويتركهما مبعثرين، نهياً للذين لا تضمنهم التفاصيل الأكثر حميمة، وقد تكون مثار سخرياتهم، بالنسبة إليهم ستكون نالفة، بينما كانت حياته كلها الشقة والجميلة... والأجمل.

ويترك فجأة ويعمق جراح، وألم هائل، ووعي مرعب، بحجم الكون كله، وبذهول لا يحده ولا يوصف، وبما يفوق صلدة لا

نطاق ولا تحتمل، أن هذا الوداع يختلف عما سبقه وعن كل ما  
تصوره إنه الموت... .

فناء مطلق، وذهاب أبدي إلى حيث العدم واللاشيء.

## مسألة إيمان

عانقها في اللحظة التي فتحت له الباب، أراح رأسه على كتفها، وانفجر باكياً، ينفرف دموعاً احتزنها طوال يوم قضاء بودع العالم بقلب كسير وبلا عبرات. في داخله عظام هائل من الأفكار، لم يسكن من لملته، وتماسك جاعداً ليستطيع الوصول إليها.

«كفكف دموعك».

قبل أن ينهار، قادته إلى غرفة القמוד، وجلست إلى جواره تخلف عنه. انطوى إلى جانبها، قال لها:

«لقد انتهيت».

كان بلا حيلة لزاء خوف املاكه وعطل تفكيره وشلّ مفارمته.

«لا أكف لحظة عن تمزيق روعي».

نجحت أنه ليس بمقلدوه الاستسلام للقياس، حتى بعد تخليه عن منطقته العارم. كانت علاقته الفلسفية تحميه وتساعد على مجابهة العالم والاستخفاف بالموت. حاول أن يفسر لها ضائقت النفسية التي لم يكن يتصورها هكذا:

«أعشى من فرط عوفي أن أؤمن».

«لم لا؟».

«هذا أمر انتهت منه منذ زمن بعيد».

«لا، لم تنته منه، الأمر بعينك، ولا يمس أحداً غيرك، لا تفكر بهم، وبما سيظنونه عنك. الصورة التي اعتيت برسمها وأردت أن تكونها، هل هي أنت؟».

«من أنا إذا؟».

«هل خطر لك يوماً أن تسألني، فيما إذا كنت مؤمنة؟».

نظر إليها مستغرباً، بدأ من تعابير وجهها أنها ستفاجئه بأنها في الطرف الآخر. فلم يصدق. ما الذي يجري، وهو لا يدري عنه شيئاً!

«لكنك لم تعري الإيمان اهتمامك».

«أصلاً، ما الذي تعرفه عني؟».

«لا تكذبي علي».

«عندما أكون معك، لا تكون معي. أنت لا ترى ولا تتكلم إلا مع

نفسك، فاعتقد أنني مثلك. كذلك زوجتك لم ترها إلا من خلالك. كانت مومنة، وكان إيمانها بسيطاً وقويماً.

«لم تعمل عليه».

«لا تفكر فيها كما ترغب أنت».

«الله أحبها أكثر من مرة».

«هل ساعدنا، اعتقدت بأنه كان يجربها بعدم الإنجاب، وأرادت أن تكون أهلاً للامتحان. اقتنعت ولم تنظر، أعانها إيمانها في التغلب على ما حرمت منه، وشد من أزرها في مرضها. ثمة أوقات كانت تصحو فيها من غيبوبتها، وتخدعك بعينيها المغلقتين، وتخفي عنك كل ما يمكن أن يخلف من عذاباتها، آلام يشق على البشر احتمالها إلا بالأدوية المخدرة. يظن من حولها أنها تتناولها، وكانت تتخلص منها. لم تأبه بالألم هل كانت ترغب فيه؟ لا. أرادت التعرف عليه، وكانت طاقتها على التحمل خارقة، أو أن الله يخفف عنها. فسر لي، لماذا كانت

«خلال مرضها، لم يحمل إليك ما كانت تقوله أي معنى، فسمعت بريرة وغضفة وجمجمة وأصواتاً أخرى، وصفتها بهديل الحمام، لم تكن مشكلتها مع الأكم ولا مع الإيمان. كانت تسأل لماذا خلقت، ولماذا سموت، ولماذا جاءت إلى الحياة، ولماذا منخرج منها، وإلى أين ستذهب؟ كانت تخشى جواهرك الذي لن يكون سوى... إلى لا مكان».

«كان من الممكن أن...».

«محاضراتك الغبية لم تقدم لها أملاً. الاستسلام أسعفها، لا الأطباء. فدعت الله أن يهديك ويغفر لك، لبتك أصغيت إليها جيداً».

«لكنه لم يشفها».

«وإذا شئت المساحكة، فقد تركها للعلم».

«في تلك الأيام، أنا أيضاً أمنت، واستنثت بالصلاة والأدعية».

«ذلك الجانب اللاعقلاني الهامشي في داخلك، ماذا تقول عنه؟».

«أقول إنه زائف».

«ولولاه في ذلك الوقت، لتصدعت».

«كان يوسعها الآن في هذا الظرف، أن تدفعه إلى المزيد من الأنهيارة، وأن تسحقه، باستغلال ما يتستر عليه، احتفاله بالذكرى السنوية لعيد زواجه. ألم تنظروا ذكراها المتجددة على الأمل بعدونها!! من يوسع أن يسامحه على شطط فكري ناله كهذا؟

وألم تمارس في السر كل ما رفضته في العلن؟ لجأَتْ إلى تشيلة صغيرة، بينما استطاعت هي أن تعبر إلى حفيظة كبرى إلهية.

لا يريد أن يفكر، ولا أن يتذكر، كان في حالة مترددة من البؤس، ويعرف السبب، لم يفلن إلى عديعة زوجته، كانت مؤمنة سراً، وتتعذب خفية عنه. لم تتعاون معه، أو تصدق ما بذله من جهود إيمانية، فهل يصدق الله؟ قلت بتصويبها من المرض والوجع، لماذا لم يقبل بما قبلت به؟ هل يكفي القول إن الموت كان شأنها وحدها، وليس شأنها معاً؟

بل يريد أن يفكر وأن يتذكر، وأن يخاف أيضاً، ليس من التكفيريين الذين كفروه وطالبوا برأسه، ولا من الأجهزة السرية وسخططات تطلب التضحية به. كان خائفاً من أنه أخاع الطريق، وما بات ينتظره من إحساس غامر بالعزلة والندم.

لم يكن أعزل كما هو الآن، القضاها التي شكلت معنى حياته، ورفع لواحقها ودافع عنها، وكان مستعداً للموت في سبيلها، لم تعد موثوقة. العلم والمقل، لا يهناان الخلاص ولا الحل بعدما أقرط في الإيمان بهما، فأصابه العمى، ولم يحاسبهما.

ما الذي قلعه له العلم خلال مرض زوجته؟! تحاليل وصور وأدوية، اتكست عليها بالمزيد من العذاب، وعليه بأمل مستحيل. لماذا وجه نقمته إلى الله، ما دام أنه غير موجود، وحمله عبء عدم شفائها، ألم يعجز الطب؟!

اجتاحته مشاعر غليظ من فسوة الإحباط وروعة الإنكسار، إزاء

اكتشاف حقيقة غابت عنه، مع أنها كانت نصب عينيه. هذه المرأة أحبته أكثر مما أحبها، تسنت له الخير، ولم تشأ أن تحرفه عن طريقته ولا التأثير عليه، أرادت أن رأوا واحداً، ألا يفقد رجائه في الله. لكنه فقدته وفقد معه رجائه من العالم، هل يستعيدهما؟

رأسه لا يستوعب كل هذا الانقلاب، إلى أين سيأخذ به تربي؟ إلى مجاهيل أخرى، هل يصح رجل الخرافة لا العلم؟ هل يؤمن بما كفر به، ويكفر بما آمن به؟! فات الوقت، لا رغبة لديه في الخوض بالأوهام ولا في حقائق إضافية. لقد عرف ما تمنى ألا يعرفه أبداً، لئله ينسى.

الآن انهارت مقاومته، الآن تداعت مكارمته. الآن، لماذا كل هذا يحدث دفعة واحدة؟ الآن ما الفائدة؟ الآن لا أحد يوسعه أن يمد يد العون إليه، كان وحيداً أمام الموت.

... وسقط في نوم أشبه بالموت.



في الصباح، كان كما تركته البارحة ليلاً، مشلوحاً على الصقوف، أشلاء رجل، أنهكه وعيه الكوني بالزوال النهائي، حاول استعادة وعيه الأرضي، والتسرية عن نفسه بذكريات دينوية، وبمشاغل حياتية مصيرية، كادت أن تحول اتجاهه نحو عالم لا يخضع لترتيبات العدم والفتاء، وإنما لعالم البقاء... لكنه أخفق، ما زال يراوح بينهما.

قررت لا بد من إيجاد مكان يلويه خارج البلد سواء كان الذين



يسعون إلى قتله رجلاً ثم أشباحاً، أصوليين ثم جهات محلية ودولية. سبذل جهودها، عسى تنقله من الحقائق الدامغة لا من الأوهام العارضة. كان أملها كبيراً، ما زال في الوقت منسج. ستكسر من السفارات الأجنبية منحه حق اللجوء السياسي.

أغلقت الباب خلفها، وإذا التفت صوب الشارع لتستوقف سيارة، أصبحت على سياق مع المفاوضات، قبل أن تُتأنف أو تغفل.

## لقاء على حافة الحلم

لم يكن كما ظنت... رجلاً حامد القوي، منهكاً وعلى وشك الزوال، أو رجلاً لا يريد أن يمسح. كان بكامل عفتونه وحضوره الفعني، يدري أنه يرى ويشارك في ما يشبه حلماً على صفة غامضة بالخيال والواقع.

كان في حضرة الراحلة، أو هي في حضرتها، تزوره بعد مرور أكثر من ثلاث سنوات على غيابها. كانت أكثر من خيال، وأقل من امرأة من لحم ودم، ذات حضور بهي ولافت لا يطيقه حلم كتيب ولا خيالات مشوشة. حتى أنه عندما رآها، اعتقد من فرط ما تراكم في ذهنه من عمليات فراق متوالية شائكة وأليمة، أنه في طريقه إلى مقابلة لا تحصل وزر كل ما سبق، وفي سبيله إلى وداع أخير، لا يصح وقوعه، قبل تصحيح ارتباطه العاطفي بها، لم يكن حبه لها أقل من حبها له. من هنا يبدأ، ثم إلى وداع يعقبه لقاء لا

فراق بعده، ما دام سيلتحق بها، فلمرحل نظيفاً من التفسير  
وتبكت الضمير، عفيفاً في فضاء مفتوح للصعود، ولم يكن شاقاً،  
لفزة صغيرة، ويرتفع كما القديسون إلى السحاب، ليضي مع  
الغيوم نحو السماء الثالية، مثلما كان يرى صورهم في الكتب  
المصورة، حول رؤوسهم هالة، من سماء إلى أخرى، حتى  
السابعة، ومنها إلى الملأ الأعلى.

هنا تولف الحلم عن الجريان في هذا الاتجاه. ففكر، صعوبات  
كثيرة ستواجهه، ولن يفلح. فعدل عن وجهته، دون التنازل عن  
الغاية منه. سيخذ موقفاً أفضل، يشرف فيه من قرب وبعد على  
ما سيجري في آن واحد. ينظر إليه بمنظار طالما تنهت من هذه  
الزاوية، أي أن يكون في داخل الحلم وعلى حافته معاً، يرآب  
الحلم ويتخس فيه، يجرب الوهم مع قدر من الحقيقة، يساعده  
على إجراء التداخل بينهما، والتلاعب في عبارتهما، فيكب  
مساحات على حساب الخيال، يدرجه في تلافيف الواقع. لا  
سيما أنه بعد زمن على فقدانها، يستحيل أن يلتقي بها في الحلم،  
كفي يُؤدِّعها في زمن مستقطع من الواقع، وإنما يلتصقها فرصة  
ليجدد علاقة لم تعد ملكاً للماضي، بل تبحث عن أفق لها في  
عالم قادم، حتى لو كان ما يجري غير محسوب ولا منظر. كان  
جاهزاً، وإن كان على عجل، فذكراته معها، المتوقفة عند القديمة  
منها، يفترض أن تتخذ منحى آخر، يروض ما فاتهما من زمن كاتا  
ستشاركان فيه، ويضيف إليه ما تشكل على حدة بعد فراقهما.

تلبس روباً يشبه الرداء الأبيض الذي كانت تلبسه في المستشفى،  
يرمز إلى ألماها الخفية المستوحاة من الشفاء المبارك بالإيمان.  
كانت مضطجعة وقعدت. نزلت عن السرير وولفت تشأم ما

حولها. الروب محتشم سايق الطول، لا يكشف عن ذراعها ولا مفرق يديها، أو صدرها وساقها، ذبله يشحط على الأرض. فرمز أيضاً إلى نقاتها، بدت كأنها في صورة التقطت يوم زفافها.

على الرغم من فرحة الشديد برؤيتها، كان إحساسه بظهورها مرهقاً، أشبه بدفقة مبهرة من جمال عاصف لم يجربه من قبل، فأغضض عينه، لن يستطيع أن يتوه به ولو للحظة عابرة من الزمن. ماذا لو دام دوننا انقطاع؟

... والواقع شكل عائقاً، لولاه كان أكثر حرية.

أراد أن يفصل فيما إذا كان صاحباً بتخييل والدنيا غلام، أم كان بحلم، والحلم قوي الإضاءة إذا لم يحدد أبعدها، فالظلمة انفضت بحضورها وأضامت الخيال إن كان تخيلاً، أو الحلم إن كان حلاًماً. لم يسطر على المشهد، إلا عندما تأكد من أنه أفلح في التراجع بضع خطوات، ولم يعد مستغرقاً فيه، ولا غائصاً في غماره، يتشبث بقدر ضئيل من حياة، ما زال على قبحها، ولم يكن كافياً. كان ضرورياً فقط، لولاه لما أحس بالتوازن، ولو مؤقتاً.

وجه نضر، بشرة ناعمة، خدان مشردان، وعينان تنزلان برهقاً يشع بالبهجة، شفتان انفرجتا قليلاً، ونطقنا باسمه. حدد زمن تألقها

يجب، مع أنني لم أشر إلى عودتي، إلا من قبيل الغيرة، لكي لا تزوج بامرأة غري.

قال: قدومي إليك، متوقف عليهم.

قالت: هل هم جادون في ذلك؟

قال: بالنسبة إليهم لا جدوى مني، إلا شيئاً في وقت يحددونه. سأقيد بتعليماتهم كي لا أتأخر عليك. لكنني أجهل الزمن الذي ستأخذ المسافة التي سأقطعها للوصول إليك.

قالت: مهما طالت، لن تأخذ أكثر من لمح البصر.

قال: إيذاً، أنا قريب منك.

قالت: هل تسمح لك علماتيك بأن تصدق هذه الأمور؟

قال: ما دامت ستحدث، فأنا أصدقها.

قالت: العقل البشري لا يستسيبها.

أحس بالخجل، كانت تحرضه على التمسك بمواقفه، لكنه وهو في هذه الحالة لا يهسه إعانة النظر فيها، إنه لا يبحث سوى عن مكان هناك... إلى جوارها.

أدارت ظهرها إليه. ناداها فالتفت إليه قائلة:

أين العقل في أمر هو إلغاء للعقل!؟



عادت عفاء ظهرها، لم تجده، فألقت عنها وإلى حين عناه تليلاً.

كان يذهابه إلى عمله في المركز، قد أعفاهها من إخباره بأن الأمريكيان ومعهم الإنكليز والفرنسيون لا يرون خطراً جدياً على حياته. ولقد حضروا سابقاً السلطات المحلية على حمايته، بعد تلقيه التهديدات عبر الإنترنت، ويعتقدون أن الدولة لم تقصر في هذا المجال. من طرفهم يرغبون في المساعدة، لكنهم لا يستطيعون التدخل في شؤون نفس أمن الدولة، ثم إن تحركهم في الداخل محدود جداً، إن لم يكن معدوماً. ومهما يكن فسوف يتابعون باهتمام بالغ قضية عن كتب بوساطتهم الفنية.

وعندما أثارت مسألة تعاون فاتح مع الجهاز الدولي لمكافحة الإرهاب، وطالبتهم بما وعدوا به، تطابقت أقوالهم:

«كوني على يقين، ليست هناك أية قنوات خلفية أو علاقات سرية، تربطنا مع أية جهة أو شخص في بلدكم».

لم يكن عسيراً عليها إقرارك أن السفارات الأجنبية التي كانت تتبارى لأصطبار لاجئين سياسيين مضطهدين لكثيهر بالدولة، قد غلت يديها من العلماني.

## الانسحاب التدريجي

النهاية تأخرت، زادت عن أسبوعين، وأكثر قليلاً.

سبقها بعض المتغيرات، لم تحصل دفعة واحدة، تمت على مهل، وتالت بالتدريج، تبه إليها في حينها، وكان ذلك بعد خروجه ظهراً من المركز.

على غير المعتاد، لم ير الأهيل ينحني على الرصيف المقابل الملاصق للحديقة، صادفه في سوق المرة لدى نزوله من السيارة في موقف الشيخ سعد. كان مقرصاً، لمحبه من خلل زحام المارة، مستنداً بظهره إلى عمود، يقع بين دكانين، مستغرقاً في النوم، بهلوس في عزّ دوامه، بينما عليه أن يكون صاعياً ومتأهباً، يسمي وراه، وفي انتظار الأوامر. اعتقد أن الأهيل انتهز فرصة تغيب المراقب المولج به، وتنافس عن أداء واجبه.

كذلك في الصباح، تخلف عن وقوفه أمام البيت، ولم يبقه إلى رصيف المركز. لم يعد غيابه تقامساً عن العمل، الأغلب عطب أصحاب السيارة المكلفة بتفلاته، مع أن تحت إمرة الخبير سليم أسطولا من السيارات!! في اليوم التالي، كانت السيارة جاهزة على الرصيف، والأهبل ليس داخلها ولا خارجها!! يبدو أنه سب الإهمال الحاصل، وتقصره ناجم عن كسل لا عن صحوة ضمير، ما الذي يجعله يتردد في عمل قالوا له إنه سيرضي الله به، ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ويكسب من ورائه الجنة وما تحفل به من طيات، عدا أن المهمة الموكولة إليه بسيطة لا تحتاج إلى أعمال ذهن، مجرد أنه سيندفع نحوه ويغرز سكينه في مكان ما من الصدر أو الظهر أو البطن، إن لم ترهن أنفاسه، سيتولاه غيره ويجهز عليه بطلقة من سدس أو بدقية.

مضى يوم آخر، والأهبل غائب. لا، لن يدعوا الخطة لمزاجه يعطلها. الأغلب أصحابها تعديل استدعى إبعاده، أو استغنوا عنه، واستعاضوا بغيره، سيظهر قريباً، لكنه لم يظهر... أو عينوا بديلاً له لا يتحتم ظهوره في الشوارع، حسب خطة لن تنفذ كما كان مفترضاً في وضع النهار، خلال المسافة الواصلة بين السيارة والمركز، أو بين السيارة ومدخل بناء بيته، وإنما ليلاً والناس نيام.

كان مجرد خاطر، لم يأخذ به، الخطة كانت دقيقة، لا تحتمل إجراء تعديل في شخص المنفذ، لا سيما في الأهم الأخيرة، مستحيل أن تخلو الخطة من الأهبل المضمون من ناحية الهيبة والتوجيه، فاستبعد أي تغيير طرأ. شيء ما حدث، توفير بالمصاريف أم أنه في إجازة؟ تبريرات واهية، لا تخطر سوى للموظفين أمثاله، هنا النوع من الخطط لا ينال منه أي نقشف في



النفقات، ولا يُسمح للمتعاونين تحت هذا الظرف بأي إجازة، حتى المرضية منها.

وعندما كاد أن يأس من رؤيته، صادفه مرفعاً وثاماً في مكانه من السوق، فتجراً على الاقتراب منه. اتحنى وتفحصه، ملابسه الممزقة لا تخفي لحمه وعظمه، فلم يظهر طرف الخنجر المشدود حول خصره، أو أي نوع من الأدوات الحادة. كان منزوع السلاح تماماً!! الأهل غير المسؤول عن أعماله، لم يعد يحطراً عليه، أهل سالم، لا يقتل ولا يجرح. إنفاً من أين سوف تأتي الضربة الأولى!!

عندئذ تلاء التعديل الأهم، أو التغيير الأكبر!!

قبل الدخول إلى البيت، رفع عينيه إلى البناية المقابلة، النافذة مفتوحة، ولا منظر مسدد، أو أشياخ يتخاطبون في الخلف. البارحة لمحهم، ولم ينتبه، هل كانوا يمارسون عملهم كالمعتاد، ثم يخلون المكان من المعدات؟

إزاء النافذة، التي باتت مثل غيرها من النوافذ، مشرعة على الفضاء، تذكر ما قاله له سليم حول الإلقاء التفرجعي للحماية. إنفاً، باشروا بالخطوة، لكن على المدى الطويل، لولا الأهل لما اتبه إلى هذا الانسحاب المفرط في تدرجه، إلا إذا كان التأخر لأسباب بيروقراطية. ولم يكن سبق الأهل في الانكفاء، إلا لأن الخطوة تملح عليهم كفت الأشخاص عن العمل في الشوارع، بالتوازي مع الانسحاب من المواقع، بإعلاء المعدات الثقيلة والخفيفة، ولا بد أن المرئية منها والجماعات غير المرئية، تأخذ وقتاً أطول من انسحاب شخص مفرد كأهل، ينسحب من

الصحو إلى النوم، وتجرد من سلاح ضمير لا يسرعني الانتباه.

ما أثار غيظته، أنه بات على انسجام معهم، بتابعهم لحظة بلحظة، لا ينفصل عن حركة منهم. فلم يفته التراجع المتسلسل لمظاهر الحماية المشددة نحو تحجبها وتقنينها، ثم تلاشيها، تجلى بتناقض الأشخاص مجهولي الهوية، ومعهم السيارات الرديئة المسوأة بالزجاج الدخاني، ثم اختفائهم جميعاً، دون أن يتركوا وراءهم أثراً فوق الأرض، فلا رجال يستوقفونه ويسألونه عن عنوان، أو يلمسون منه إشعال سيجارة، ولا متسولون يلهفون عليه بطلب بضع ليرات، أو مراجعون مشبهون، ولا سيارات يتلامح وراء زجاج تواقفها متلصصون، فوو وجوه متجهمة وشوارب متهدلة، أو سيارات مسرعة تميل نحوه، وتكاد أن تدسه، ثم تتوقف على بعد عطوتين منه، مصدرة زعيقاً حاداً.

عندما لم تعد خطواتهم ترافق خطواته، ولا عيونهم ترصد، بات يمشي ويفكر ويتأمل وحيداً، كان إحساسه بالانطلاق غريباً، بعد أن قلقه وكاد أن يساء. قال لهيئة:

«هل أنا في حلم، لم أنني خرجت من كابوس؟».

قالت ضاحكة وبحيرة:

«كلاهما، كنت في كابوس، خرجت منه إلى حلم».

## الربيع

النهاية التي تأخرت قليلاً، حلت بعد أقل من ثلاثة أسابيع، أخذت وقتاً، كي تحدث. ولم تكن كما توقع تماماً.

من نافذة المركز، أزرته الطبيعة على طرفتها، فالطقس اعتدل، بعدما انحسر البرد. ففي اليومين الماضيين، بات النسيم أرق وألطف، درجات الحرارة، أخذت بالارتفاع وإن ببطء. الحديقة بمرسى بصره، تعيد إحياء جمالياتها بروية، وتعمل بأناة وبشكل شامل على ترتيب التناسق بين انضرارها الساطع، ومقاعدنا المبعثرة، ومناشيتها الوارفة بالظلال... وروائح التربة. على هذا الوقع التمهيل، استهل الربيع قدومه.

وكان كل ما حدث ذهب مع الشتاء الأغل.

من مكانه وراء نافذة المكتب، لمح صديقه بسلامحه الطفولية جالساً على كرسي في الحديقة، وقد تصالبت يده على صدره، وكأنه على مقعد في المدرسة، يتأمل مثله إطلالات الربيع، يجتمعها رغم المسافة الفاصلة بينهما، رؤية مشهد واحد، وإن كان كل منهما يراه من موقع، أحدهما يشرف عليه من العالي، والآخر داخله، يرى جزءاً منه.

فاجأته فكرة طريفة، صديقه هو الرجل الوحيد الذي لم يودعه، رغم أنه الشخص الذي كان واقفاً من موته، حنوه ولم يكن على صواب. ها هو نجا!! صديقه سيقول بأن خللاً أصاب السيارو، بينما هي ثقلبات سياسية لا يحيط بها سيارو مهما كان محكماً.

أغار صديقه رأسه ورفع نظره إليه. امتنع فاتح عن دعوته للمصمود إلى مكتبه، أو النزول إليه في الحديقة، إذا كان صديقه حدد اليوم موعداً للقاء معه، فهو لم يُعلمه به. غير أن الحديقة نفسها، أعادت إلى ذهنه المعنى الأزلي في تجدد الطبيعة، عندما تبدل هيأتها في كل فصل من الفصول الأربعة، مثلما الآن من الشتاء إلى الربيع، وفي وضعه المستجد هذا، كان انتقالاً من حالة أشبه بالموت إلى حالة أشد التصاقاً بالحياة، لغزاً، لا يفسره العلم، كما فعل مع الطبيعة، وإنما الأرشيف السري لدوائر المخابرات الدولية والمحلية.

كيف حدث هذا؟! لا بأس بالاستماع إلى اجتهاد يتعلق بانتقاله بين الحالتين، من الموت المسلط عليه، إلى أمان يتم فيه بظمانينة ندو بلا نهاية. كان بمقدور صديقه الذي يعرف الكثير، أكثر مما

بحسب الإدلاء برأيه حول ما طرأ من تحولات على قضيته، وإن من وجهة نظره، معلوماته لا تخلو من بعض الحقائق.

لم يقاوم فضوله، نزل إلى الحديقة، وفي ذهنه أيضاً أن يسأله هذه المرة عن اسمه، فهو لم يتذكره حتى الآن. جلس إلى جواره على الكرسي. نظر إليه بإعجاب، ما يليه كان منسجماً بعضه مع بعض، البذلة والقميص وربطة العنق والحذاء، ألوانها رباعية زاهية تلامس البحر المحيط. قال معلقاً على ما جرى وانتهى، من خلال الشهيد الترامبي أمامهما:

«العالم يحرف على إيقاع الحياة».

كان يُشبهه وباستفزاز على ربيع حل متواتراً مع بداية متفائلة أخذت مجراها بقوة، تبدت في هذا التبدل اللانتهى بقاؤه حياً، رغم ما مر به من أزمات. هز صديقه رأسه، ولم يتكلم.

كاد أن يسأله عن اسمه، لكنه لم يرد تحويل مجرى الحديث، فسكت في انتظار أن يسمع منه تعليلاً. صديقه ابتسم فحسب. فذكَّره بالسيارو المخبئ:

«يبدو أنهم عدلوا عن قلبي».

حوّل صديقه بصره عنه، ونظر بعيداً.

«هل أنا محظوظ؟».

أراد بهذا التساؤل أن يعنى صديقه من التفسير، برد إنقاذته إلى

المعنى الذي ينفذ ما لا ينفذ - فنفذ فاستراح عن صحتي

«أي ليس كما زعمت مرة بأن تغير حياتنا وحفظنا بأيدينا».

«لم يحدث ما يغير أفكاره».

«ألا تلاحظ أنه مهما فعلنا، فالأجهزة السابوية تقرر مصائرنا، وهي التي تحرك الأجهزة الأرضية».

«يبدو أنني لم ألاحظه».

«قالها سائراً مع ابتسامة استخفاف، فرد عليه فاتح سائراً أيضاً».

«قل لي، هل أودعهم الله أسراراً، أم ترك مكانه فارغاً، فحلوا محله؟».

«دع هذه التشبهات المجافية لرب الكون، الله لم يودعهم أسراراً ولم يترك مكانه فارغاً. الله استخلف البشر على الأرض. انهم، الحياة مجال مفتوح للفعل والتنازع والصراع والمعرفة والتأني والمقتل والتدمير... وإعلاء كلمة الله، اعتر ما ترهب فعله، اعتر ما ينهي الدفاع عنه. يا صديقي، أرجوك أن تفهمني. ما حال الحرية التي تنتعج بها. هل هي لارتكاب الجرائم فقط؟ لا، بوسعنا أيضاً مقارعة الشر... هناك الأخلاق».

بغية تذكر، فسأله:

«ما أخبار أخيك؟».

«ما زالت مقطوعة».

«أهو حي؟».

«لا أعرف».

وتبدى على ملامحه ألم طفولي، كان عجزاً مطبقاً.

أحس فاتح بالأسى بلفهما معاً، ما دام أنهما نشاركما بالعجز، فكلاهما بحاجة للعون. أزعجه ما حل به من بأس، فبل قليل كان إحساسه بالسعادة طائفاً. وتنى من صدقه الأكثر تجربة أن يتجده، ويساعده بخبرته الأوسع بالفعل والاعتبار كما بالألم والعجز، على التلازم مع الدولة والأجهزة والشر والخير. فاتفق قائلاً بحرارة:

«هذلت جهدي في الاستعداد للموت، وودعت جميع من أعرفهم. ولم يحالفني. الحياة عبء لا يطاق، سأعاني منه كثيراً. في الفترة الأخيرة، ذهب بي الخوف إلى أشد الأفكار حماقة، تراهي لي أنهم لا محاولة سيضحون بي. وكنتُ على خطأ، ولكني أذكرك، كلانا أنا وأنت، وقعنا في الخطأ نفسه، ومع هنا أنا بالأس!!».

«لا تأس، بل فكر ملياً على أي نحو كنت رجلاً ميتاً، والآن أنت رجل حي. لقد نمت الحياة ثانية. فكر، لماذا وهبت الحياة؟ فكر، بأنه لا يجوز الاستهانة بها. فكر، بأن الحياة نعمة. فكر ما الذي سفعله بها؟».



وقف صديقه، الحديث انتهى، فوقف أيضاً. تراءى له أنه لن يراه بعد اليوم، قد تعود الخطة للعمل، فرصة لن يضيعها، سيودعه، ويحضر إليه. لكنه تذكر بأنه كان يسأله عن شيء، ماذا كان هنا الشيء؟

## النور

النهاية التي تقترب، أصبحت قريبة جداً، خلال زمن أقل من دقيقة، لكن مختلفة قليلاً... يفارق مسافة لا يزيد على بضعة سنتيمترات.

أثار صديقه وجهه في أرجاء الحديقة، بدأ من البريق الذي لمس في عينه ذلك المدى الذي لا يحد مما يشعر به من إجلال نحو الخالق ومن تعظيم للجمال الذي رسمته ريشته في هذه البقعة الصغيرة من العالم: أشجار الصنوبر والذلب، أزهار المارغريت، عمائل المرجان والحشائش... أظهرت ملامحه الطفولية دهشته العارمة إزاء تاسقها الأعاذ، وتقديره الكبير للصعلة المنهلة التي لا تغفل حتى النباتات الصغيرة، وعباهاها الدقيقة جداً، والحشرات والهوام... وتلك التي لا ترى بالعين المجردة. تلمس بأصابعه وريقة صغيرة، وتفحصها بإعجاب، كأنما هناك ما كتب على

صفحتها. ثم انحنى واقرب بأتفه من زهرة ملونة، أخذ منها نفساً.

تذكر الشيء الذي أراد أن يسأله عنه، كان اسمه!! تنحى وانتظر أن يكمل صديقه تنشقفه العميق. لكنه لم يكمله... إذ انتشر مستقيماً بجذعه، كأن شيئاً نغزه في خاصرته!! في السكون الواهي، لم يسمع سوى صوت مختق، أشبه بخربشة خاطفة.

رآه يتقدم متصلاً إلى الأمام، خطوة بخطوة، ثم يفتل في مكانه، ويتراجع مخطوف اللون ومتحجر الحلقين. يرتعش بقوة ويسقط أرضاً، ينسطح مفتوح الفراغين والعينين، الدماء تنفر بفزارة من صدره، شفتاه انفجرتا عن آهة... يردد أن يقول شيئاً قبل أن يلفظ أنفاسه، لكنه كان قد لفظها.

للحظة، تعطل كل شيء في رأسه، صار أعشى، يتلمس فراغاً، فيما مزقت سمعه حصة قاطعة أشبه بخبر خاطف! الاغتبال حدث!! انقشع الفراغ وتبادر إلى ذهنه فوراً، أنهم أعطأوا الرجل المقصود. الرصاصة كانت من نصيبه، وذهبت إلى صديقه.

لم يهرب أو يخشى. النجاة عيانته، لم يكن عدلاً أن يكون صديقه ضحية. وبشكل لم يكن غامضاً، واجه فكرة يلصق البرق! الأمانة تلي عليه اللحاق به.

التفت صوب الأبنية العالية، لمح رأس القناص بارزاً من الشايفة المقابلة لمكبه، البنديقة ما زالت مصوبة نحوه. فتح ذراعيه، ولوح له بيديه، يتبهد إلى أن المنظر الأعبر من السيناريو بحاجة إلى تصحيح... الرجل المطلوب ما زال حياً.

أحس بالارتجاج، لم يعد ما يفعله عن الرصاصة القاتلة سوى

ضغطة على الزناد. القناص وراء بوضوح من خلال المنظار، وطوعة البندقية مسددة إلى جيبه أو قلبه. غير أن القناص أطل برأسه نحو الشارع.

كانت سيارة يداخلها سليم، خرج منها، ونظر إلى العالي. القناص ينتظر أوامر أخرى. تكلم سليم بواسطة جهاز صغير محمول، فتراجع القناص وأعاد النظر من خلال المنظار. وسرعان ما رفع رأسه، مسح عرقه. وتكلم ثانية مع سليم.

شمل فاتح ما حوله بنظرة، كان ما يجري يحدث بمحزول عن العالم، العشاق متلاصقون فوق كراسيهم يتهاسون، شبان صفار انتحروا جانب عميلة يذاكرون في كتبهم المدرسية، عجائز يمشون الهويش، الجنائتي يللمم علب كولا فارغة من الأرض، المصافير تترزق، الطيور تحلق عالياً وتحط على الأرض... كأن شيئاً لم يحدث، وشخصاً لم يقتل.

التفت سليم نحوه، تواجها من بعيد، تبادلوا النظرات، تشابكت عيونهما، والتحمت ببعضها بعضاً اتفاق حصل بينهما، لا مفر، المهمة مستنفذ. أشار له سليم بيده ليعتد قليلاً. فتراجع فاتح صوب الخلف، كبرر سليم الإشارة نحو اليمين، فاتزاح فاتح إلى اليمين. أدرك أنه وضعه في الهدف تماماً. الأمور على ما يرام، تعاونه معهم سيهل عملية التسديد بدقة، هذه المرة لن يخطئه.

أرغى القناص رأسه وراء المنظار، وأخذ يسدد من جديد. الرصاصية ستخترقه، قبل أن يسمع صوتها. لحظات تمر كأنها دهر، سمع صوت دقات قلبه، ثم صوت عريشة مكتومة الصوت المخلق نفسه. ترى أي مكان من جسده انبثق منه الدم؟ انتظر

قليلاً، لم يسقط أرضاً، ولا دماء! ما زال واقفاً على قدميه. التقط نظرة إلى صديقه، الدم ينفر من صدره. الرصاصة الثانية كانت من نصيب جثته الهامسة. رفع بصره إلى العالي، كان القناص قد اختفى.

ركع إلى جواره مذهولاً، بدت ملامح صديقه أكثر طفولية من أي وقت مضى، حتى عندما كانتا في المدرسة الابتدائية. الأكيوان الزاهية لملايه، ففقت بالأحمر. فمه المفتوح يسيل منه الدم، تلك هي الكلمة التي أراد قولها له.

أترك خائباً وسليم يتقدم نحوه، يحاذيه ويأمره بحزم:

«تابع طريقك إلى المركز ولا تنظر إلى الخلف».

كم كان أحسن. كل شيء يجري معكوساً.

سليم غشي ألا تكون الرصاصة الأولى قاتلة، فأبعده عن صديقه، كي يستطيع القناص إطلاق رصاصة الموت الأكيد. المهمة نفذت بالكامل.

تابع طريقه إلى المركز.

من نافذة مكتبه، نظر إلى الخلف.

سليم لم يعد وحيداً، تواردت إلى رصيف الحديقة عدة سيارات، نزلت منها عناصر مسلحة دخلت إلى الحديقة، وأحاطت بالمكان.

التفت سليم، لمحاه واقفاً عند النافذة، ابتسم وروح له يده.

أحس أنه مدين لصديقه بتفسير.

ليس ثمة عطاء، الخطة أنجزت بنجاح، وإن كان هناك تعديل، فقد أصاب السيناريو في اتجاه آخر، نحوه هو بالفات.

التفسير لم يكن وانهاً. ومن السخرية أنه أصبح بأسس الحاجة إلى صديقه، ربما أسعفه برأيه، وقال له، لماذا هنا السيناريو غامض ومعتد إلى هذا الحد؟ ولماذا هو مرعب، وغير مفهوم؟

حتى اللحظة الأخيرة، كان في متهى الغباء ومتهى التعاون، داخل خطة كان البديل فيها، استلج خلالها صديقه إلى الموت. لن يتكهن ما هي، وليس يوسعه إدراكها... سوى أن هذا العالم لا قلب له، وبلا ضمير.

لو أنه يسمعه، فسوف يلومه، كنت تعرف عن الآخرين الكثير، أما عن نفسك، وما قد يلزم بك، فأقل من القليل. وقد يواسيه، ما عرفه كان كائناً لفتلك.

هل سيقته؟ لا، معرفة الكثير مثل القليل لا تفيد شيئاً.

ألمه أن الضياء الذي أحاط به كان صاعقاً. صديقه لن يشاركه فيه، وهو أيضاً لن يتحمسه، ولا مقر من أن يشق طريقه وحده في داخل هذا النور.

قال لنفسه، نور ليس أكثر من ظلام داس

نسى في هذه اللحظة، لو كان يسمعه.

---

# Solo Piano Music

by Fawwaz Haddad

Novel

First Published in April 2009

Copyright © Riad El-Rayyes Books S.A.R.L.

BEIRUT - LEBANON

elrayyes@codextel.net.lb - www.elrayyesbooks.com

ISBN 9953 - 21- 409 - 3

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording, or otherwise, without prior permission in writing of the publishers.

الطبعة الأولى: نيسان (أبريل) ٢٠٠٩

الشراء: النسخة الإلكترونية

[www.arabicbook.com](http://www.arabicbook.com)

تصميم الغلاف: نبينا طهينة

(مستشار: بيروت غرافيكس)

## عزف منفرد على البيانو فواز حداد

“كان وقد انعتق من المفاوضات والحماية، ورفقاء بمؤن عليه أنفاسه، وقتلة ينتظرون الأوامر للإجهاز عليه، طليقا في مكان ضيق بين الشموع والورود وتسايم تسري باردة، لا يعيا بالاختيالات والعملاء واحتمالات الموت. هذه الجدران لا تربطه بالأرض، ولا ذلك النظر المعافى بالثلج والنوار تتراكم خافتة.

هنا في مكان قصي، لا يدري أين هو حقاً، وزمان طليل بلا حسابات واحتياطات ومحاضرات، هنا حيث لا سياسة ولا إرهاب ولا إسلام ولا عقل ولا علمانية، جنح به التأمل والأسى، فأخذ حريته في الحزن والتفكير والشطط، صارحها، ولم يكن يتدع، أو يستعير، أو حتى يتظاهر، وهي إلى جانب، ترمقه ما زالت بنظراتها ذاتها، الحنون والداغمة، تتردد أنفاسها أكثر من أنفاسه، لعل بصوتها الآن من زمن بعيد أكثر من صوته الذي لا يسمعه نهره، قال لها إنه يحس، وإن كان مجرداً إحساس، لكنه يقين، بأن نهايته على الأرض دنت، واللقاء قريب.”

من الرواية

[www.mlazna.com](http://www.mlazna.com)

^ RAYAHEEN ^



دار النشر  
EL-KAYYED BOOKS

ISBN 9953-21-409-3



9 789953 214092